

جامعة مؤتة

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

الجماليات الشعرية في الأندلس

في عصر ملوك الطوائف

ودورها في المرحلتين الأدبية والنقدية

إعداد

حسن أحمد علي حيدر

إشراف الدكتور

فايز القيسي

١٩٩٩م

المجالاتي الشعرية في الأندلس

فسي، مصر مكتبة الطوائف

ودورها في الحركتين الأدبية والنقدية

إعداد

حسن أحمد علي حيدر

بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها/ جامعة الإمام محمد بن سعود

الإسلامية / الرياض ١٩٩٠م

إشراف الدكتور

فايز القيسي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

في اللغة العربية وآدابها / شعبة الدراسات الأدبية

تاريخ تقديم الرسالة: ١٩٩٩/٥/٨م

تاريخ مناقشة الرسالة: ١٩٩٩/٦/٨م

لجنة المناقشة

الدكتور فايز القيسي رئيساً

الأستاذ الدكتور محمد الشوابكة عضواً

الدكتور جهاد المجالي عضواً

الإهداء

- إلى والدي:

إلى من ظل بحنانه وعطفه وإرشاده يتعهدني، وبتشجيعه وكرمه وفضله يشملني، إلى من
أنار لي الدرب والمسلك، وذلّل لي الصعب والحزن، إلى من أشربني حب التعلّم،
والإصرار على طلبه، إلى من أمتنّ له بحياتي كلها، إليه أهدي هذا الجهد المتواضع ثمرة
من ثمار غرسه.

«حبا وطاعة»

- إلى أُمّي الغالية بركة من بركات دعواتها الصالحة.

«عطفاً وحناناً»

- إلى أخي عبدالكريم:

- إلى من شدّ من أزرّي، وشاركني أمري، ورفع معي حملي.

«وفاءً وعرفاناً»

إلى شريكة حياتي:

إلى من شاركتني عناء هذه الرحلة، وعاشتها معي لحظةً لحظةً.

«تقديراً وامتناناً»

- إلى إخواني وأخواتي وأسرّتي الكريمة كافة.

«إخلاصاً وشكراً»

حسن أحمد علي حيدر

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل الدكتور فايز القيسي الذي تجشم معي عناء هذا البحث بالإشراف والنصح والمتابعة الدؤوبة بجلد وجد وإخلاص وقد كان هذا الجهد المتواضع حصيلة صحبة طويلة ربطتني بأستاذي منذ حل ركابي في هذا البلد الطيب، وقد كان في نفسي حب وميل للأدب الأندلسي فوجدت في أستاذي ما غنى هذا الحب وروى هذا الميل وتعهده بالحنو والسهر عليه حتى أثمر هذا العمل، وكان أمل أستاذي أن يقطف ذلك الثمر عند استوائه وحين يكون يانعاً، لكنني تعجلت من أمري، وقطفت الثمر قبل نضجه، ولعل ما بذلت من جهد فيه يشفع لي عنده، وجزى الله أستاذي عني نظير جهده خير الجزاء.

كما أتوجه بالشكر الفائق إلى كل من الأستاذ الدكتور محمد الشوابكة، والدكتور جهاد المجالي على تفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة، وتكرمهما بقراءتها وإبداء الملاحظات حولها، التي لا شك سوف تضيء لي كثيراً من الجوانب التي لم أتنبه إليها، وتثري قضايا ذات علاقة بها، نبت عنها شفتري وفلّ فيها غربي، وقصّر عنها جهدي، كما أتوجه بالشكر إلى أساتذتي جميعاً في قسم اللغة العربية، الذين أكن لهم كل حب وتقدير، وفاء على ما قدموه لي من معونة ونصح وإرشاد، لإنجاز هذا البحث.

كما أتوجه بالشكر إلى العاملين بمكتبة الجامعة، فقد لمست فيهم كل تعاون وإخلاص للحصول على ما يلزمي من المكتبة، وأحص بالذكر الأخ تيسير المواجهدة في قسم الإعارة.

وأشكر إخواني وزملائي الأردنيين جميعاً على ما حبوني به من حفاوة وحب وتقدير وحسن ضيافة.

كما أشكر إخواني وزملائي اليمنيين الذين وقفوا إلى جانبي وشجعوني في داخل الأردن وخارجها.

كما أشكر جامعة تعز التي منحتني هذه الفرصة، وقدمت لي هذه المساعدة، خدمة للمسيرة العلمية التي ترعاها جمهوريتنا اليمنية في كل مرفق من مرافقها التنموية العامة.

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة المجالس الشعرية في الأندلس في عصر ملوك الطوائف، وقد كشف البحث عن عدد من الدوافع السياسية والاجتماعية التي كانت وراء إذكاء جذوة هذا النشاط الأدبي والعمل على تنظيمه وتقنيته، والدفع بحركته وإحياء سته في الأندلس، باعتباره مظهراً حيوياً يلبي كثيراً من الحاجات الثقافية والرغبات النفسية والعاطفية وغيرها، مما كان المجتمع الأندلسي شغوفاً به محتاجاً إليه.

وأظهر البحث أن شعر المجالس يُقدم للباحثين معلومات قيمة تُسهم في الكشف عن كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والعمرانية التي شهدتها المجتمع الأندلسي في عصر ملوك الطوائف.

كما كشف البحث أن شعر المجالس كان مرآة ناصعة، انعكست على صفحتها تلك الحياة اللاهية التي بالغ الأندلسيون فيها كثيراً، بانتهاب الملذات وإشباع الشهوات والتزوات، وجلب ألوان المسرات إلى نفوسهم وضروب المبهجات.

كما قدم البحث صورة عما كان يدور داخل تلك المجالس من أنشطة نقدية، وعلى الرغم من تواضعها، إلا أنها أسهمت إلى حد بعيد في الكشف عن جيد ذلك الشعر من رديته، والدفع به إلى التجويد والتحسين، والكشف عن بعض الملاحظات النقدية التي كانت تشغل بال الأندلسيين في تلك المجالس، غير أن كثيراً من هذه الملاحظات لا يتعدى الانطباعات الذاتية، والأحكام الشخصية البعيدة عن الموضوعية، إذ يتحكم فيها الرغبة في مجاملة صاحب المجلس، وادعاء المعرفة، والتنافس بين الشعراء، وغير ذلك.

المقدمة

لقد نشطت الحركة الأدبية في الأندلس في عصر ملوك الطوائف نشاطاً عظيماً، حتى عرفت فيه الأندلس أعظم إشراق أدبي في تاريخها الإسلامي، وقد تعددت مظاهر نشاط الحركة الأدبية، وكان من أهم هذه المظاهر انتشار المجالس الشعرية في طول الأندلس وعرضها.

وكان أكثر هذه المجالس يعقد في بلاطات الأمراء والوزراء والأعيان، وقد يعقدها نبهاء الشعراء والأدباء وسط الرياض والمنتزهات، وكانت هذه المجالس متديبات للمطارحات الأدبية والنظرات النقدية، يجتمع فيها الأدباء والشعراء لإنشاد الشعر ومدارسته ومذاكرته.

ولقد أكثر الشعراء والكتاب من وصف هذه المجالس والدعوة إليها، ومن هذه المجالس تلك التي كان يعقدها المعتضد بن عباد يوم الإثنين من كل أسبوع، ومنها أيضاً- مجلس المعتصم بن صمادح الذي كان يعقده يوم الجمعة من كل أسبوع، وغيرها من المجالس التي كان يعقدها أمراء الأندلس ووزرائها وأدباؤها، والتي غدت متديبات للشعراء وأهل الأدب.

ولقد لاحظ الباحث أن الدارسين المحدثين لم يولوا هذه الظاهرة الأدبية العناية اللازمة، إذ إنهم شغلوا بدراسة الشعر بصورة عامة، ولم يتجاوز حديثهم عنها حدود الإشارات إليها والتنويهات بها، عدا دراسة واحدة تناولت المجالس الأدبية في الأندلس، بصورة عامة، للدكتور عبدالله بن علي الثقفان، إلا أنها لم تول المجالس الشعرية، في عصر ملوك الطوائف، العناية اللازمة، ولم تقف عند دورها الأدبي والنقدي، وقوفاً يجلي ذلك الدور الذي يستحق وحده دراسة مستقلة؛ لذا جاءت هذه الدراسة لتنهض بهذه المهمة، إذ تهدف إلى:

- ١- تحديد مفهوم المجالس الشعرية، وأنواعها، وبيان دورها في الحياة الأندلسية العامة.
 - ٢- تقديم دراسة مستفيضة للشعر، في هذه المجالس، سواء جاء هذا الشعر منشداً أو شاهداً أو تمثيلاً أو مغنى، وتحديد ملامحه ورسم معالمه وإبراز سماته من حيث مضامينه، وبنائه الفني.
 - ٣- استقصاء الآراء والنظرات النقدية المبثوثة في ثنايا هذه المجالس، وربطها بآراء نقاد الأندلس والمغرب.
 - ٤- بيان الدور الذي قامت به هذه المجالس الشعرية في تطوير الحركتين الأدبية والنقدية وإثرائها في الأندلس، في عصر ملوك الطوائف.
- وقد جاءت هذه الدراسة في تمهيد وباين اشتمل كل باب على فصلين، وخاتمة.
- تناول التمهيد الحديث عن الإطار السياسي، لهذه الفترة المدروسة، للوقوف على طبيعة الأوضاع السياسية، التي أملت لها حوادث خطيرة، ومتغيرات سياسية كثيرة، أفرزت ما عُرف حينئذ بـ «دول الطوائف»، تشكلت منها الخارطة السياسية، في الأندلس، إبان القرن الخامس الهجري، وقد كان لهذا الوضع السياسي المجزأ أثره الملحوظ في تطوير الحركة الأدبية وازدهارها، في تلك الدويلات المتعددة.
- كما تناول التمهيد الحديث عن الإطار الأدبي، حيث وضحَّ الحركة الأدبية في بلاطات تلك الدويلات، التي ترعرع فيها الأدب، وكانت أوعيه له، احتضاناً ورعاية، وكانت على درجات متفاوتة، في ذلك الاحتضان وتلك الرعاية، والهدف من ذلك إعطاء القارئ صورة جلية عن الأماكن التي تردد إليها الشعراء كثيراً، والأماكن التي ضعف ترددهم إليها، والأماكن التي أقفرت منهم؛ ليكون القارئ على بينة، وهو يسبح في أجواء هذه الدراسة، حيث سيكتشف في رحلته هذه، أننا نخرج كثيراً على أماكن بذاتها، بينما نمر بأماكن أخرى مرور الكرام، وأخرى لا نكاد نلتفت إليها البتة.

أما الإطار الاجتماعي فقد تكفلت الدراسة بإبراز صورته ، عبر مواقع مختلفة منها؛ لذلك ضرب التمهيد عنه صفحاً، وخلا من ذكره، تفادياً لتكرار الحديث عنه.

ولأن هذه الدراسة في طبيعتها، دراسة مضمونية وفنية، لظاهرة المجالس الشعرية، وما كان يجري فيها، فقد رأى الباحث ضرورة الحديث عن مُدخل تاريخي لها، يُجَلِّي كثيراً من القضايا المتعلقة بها، كالحديث عن مفهوم المجالس الشعرية، وأنواعها، وتقاليدها، ودورها في تحفيز القرائح وتجويد عطائها، والحديث عن أكبر مؤسسة أدبية اهتمت بأمر الشعراء آنذاك، عرفت بما كان يسمى «ديوان الشعراء»، والحديث عن أماكن الإنزال أو التزل التي كان الشعراء يأوون إليها، قبل التحاقهم بتلك المؤسسة، كل ذلك خصص له الفصل الأول من الباب الأول، أما الفصل الثاني من هذا الباب، فقد تناولت الدراسة فيه الحديث عن حياة الشعراء، وعلاقتها بالأمراء، وما تخلل تلك الحياة من أحوال معيشية وأخلاقية وسياسية.

وقد خصصت الدراسة هذا الباب من البحث الذي يغطي نصفها تقريباً للحديث عن الموضوعات التي ذكرت، لأننا لن نستطيع فهم هذه الظاهرة الأدبية المتمثلة في المجالس الشعرية واستيعابها، وإدراك آثارها وتأثيرها في الحياة السياسية والاجتماعية، وتفاعلها في أوساط المجتمع على مختلف طبقاته، والخروج بنتيجة تؤكد أننا عشنا هذه الظاهرة وتمكنا من التعرف إليها، ما لم نكن قد درسنا هذا الجانب منها ووقفنا عليه.

أما الباب الثاني فقد جاء -أيضاً- في فصلين، تناول الفصل الأول دراسة مضامين شعر المجالس وتحليلها، حيث جاء ذلك الشعر متعدد الموضوعات متنوع الأغراض، وكان المديح في مقدمتها، إلا أن هذا الغرض بدا متشعباً ومتداخلاً في كثير من الأغراض التي تناولها الشعراء في المجالس، فلم يفرد بدراسة مستقلة، بل جاء في إطار الوصف الذي جعل إطاراً عاماً لكل القضايا التي تعبر عن الحياة السياسية وأبرزها ما يلي:

- تخليد المناسبات الاجتماعية والأحداث السياسية

- الطبيعة والخمرة

- الأدوات الحضارية والمظاهر العمرانية

- مجالس الغناء والطرب ووصف ما يجري فيها

أما الفصل الثاني من هذا الباب فقد اشتمل على الدراسة الفنية والنقدية التي تناولت قضايا في التشكيل البنائي، وقضايا أخرى نقدية. فمن حيث التشكيل البنائي تناولت الدراسة قضيتين ذاتي علاقة بالمجالس الشعرية، هما: فن الرسالة الشعرية، وفن الإجازة.

أما من حيث القضايا النقدية، فقد تناولت الدراسة عدداً من هذه القضايا التي كانت تثار داخل المجالس الشعرية، وتم التركيز فيها على:

- اللفظ والمعنى

- السرقات الشعرية

- المعارضات

- البديهة والإرتجال (معيّاراً نقدياً)

وقد سلكت هذه الدراسة في معالجة الموضوعات والقضايا التي اشتملت عليها مسلك المنهج العلمي القائم على البحث والدرس والموازنة والتحليل والتعليل، والمستفيد من معطيات المناهج الأدبية والنقدية الحديثة، مثل المنهج الفني والتاريخي والنفسي وغيرها، مما يجعل المنهج المتبع في هذه الدراسة أقرب ما يكون إلى المنهج التكاملي.

وقد أفادت هذه الدراسة من مصادر ومراجع كثيرة، يأتي كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام وكتاب نفح الطيب للمقري وكتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد في مقدمة تلك المصادر، حيث تم استقاء المادة التاريخية والاستثناس بكثير من الملاحظات والآراء والتحليلات والإشارات التاريخية والملاحظات

التقديرة التي وردت فيها، ويأتي كتاب البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر ملوك الطوائف للدكتور سعد إسماعيل شلبي، وكتاب الشعر الأندلسي في عصر الطوائف لهنري بيريس في مقدمة تلك المراجع، حيث أفادت الدراسة منهما كثيراً، ومن خلالهما تفتحت لهذه الدراسة آفاق كثيرة، انطلقت منها، وقد تم التنويه بهذين الكتاين دون سواهما من باب الاعتراف بالفضل لأصحابه، وفي آخر هذه الدراسة أوردت قوائم بالمصادر والمراجع المستخدمة في هذه الدراسة مرتبة ترتيباً ألف بائياً على حسب عنوان الكتاب.

وبعد:

فإني أرجو أن أكون قد أسهمت في هذا الجهد المتواضع بشيء فيه خدمة لثراث أمتنا العربية والإسلامية، وإني لأرجو -أيضاً- ممن اطلع على هذا الجهد الذي لا يخلو من هنات وزلات أن يصفح عما فيه من قصور، ويلاحظه بعين الرضا الكليّة، وهو، وإن لم يوف بكل الغرض، فلا يخلو من فائدة، وقد يستدل على الجوهر بالغرض، فإن أدبت المفترض، وذاك المرام الذي أرتضيه.

وإلا فحسبي أن بذلت به جهدي وأنفقت من وجدي على قدر ما عندي

والله أسأل التوفيق والسداد في الفكر والقول والعمل.

الباحث

حسن أحمد علي حيدر

التعليق

الإطار السياسي

انتهت فتنة قرطبة، التي تزعمها أول الأمر محمد بن هشام بن عبد الجبار سنة ٣٩٩هـ، بسقوط الدولة العامرية، وخلع الخليفة هشام المؤيد^(١). وكان ذلك نذيراً بانهيار دعائم النظام والأمن اللذين تمتعت بهما الأندلس في ظل الدولة الأموية، ودفع المجتمع الأندلسي إلى معترك مروع من الفتن المتلاحقة والفوضى الشاملة التي سادت البلاد إثر انهيار الحكومة المركزية، وتمزيق وحدتها، ومواجهتها لأخطر مصير عرفته منذ قيامها في شبه الجزيرة الأندلسية^(٢).

لقد تركت تلك الثورة في نفوس القرطبيين حالة من التذمر والكراهية والسخط،

(١) انظر: ذلك في: جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس / الحميدي: أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي (ت ٤٨٨هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، ص ١٧، وانظر أحداث الثورة في: الحلة السرياء / ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ)، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٥م، ج ٢، ص ٥ وما بعدها، وأعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام / لسان الدين بن الخطيب: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق وتعليق أ. ليثي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ط ٢، ١٩٥٦م، ص ١٠٩-١١٠، وتاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبدالرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، ضبط المتن ووضع الحواشي خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨م، ج ٤، ص ٣٢٣-٣٢٥، وفي تلك الفتنة يقول المقرئ: «ومن عجب لما يروى أنه في نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء فتحت قرطبة، وهدمت الزهراء، وخلع خليفة، وهو المؤيد، وولي خليفة وهو المهدي، وزالت دولة بني عامر العظيمة، وقتل وزيرهم محمد بن عسقلاجة، وأقيمت جيوش من العامة، ونكب خلق من الوزراء، وولي الوزارة آخرون، وكان ذلك كله على يد عشرة رجال فحامين، وجزارين وزبالين، وهم جند المهدي هذا». (نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب / المقرئ: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، شرح وضبط وتعليق مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م، ج ٢، ص ١١٢).

(٢) انظر: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز القيسي، دار البشير، عمان، ط ١، ١٩٨٩م، ص ١٥.

فلازمهم إصرار علي رد الأمر لبني أمية، فانتهزوا مغادرة علي بن حمود^(١) قرطبة، في المحرم سنة ٤١٧هـ، فثاروا وفتكوا بالحامية البربرية، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور^(٢).

وفي ظل هذه التحولات استدعى القرطبيون هشاماً بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الناصر^(٣)، من منفاه في البونيت^(٤)، وبايعوه بالخلافة في أواخر ٤٢٠هـ، ولم يستمر في الحكم أكثر من عامين، حيث ساءت الأحوال في عهده، فقرقر القرطبيون خلعه، ففر من قرطبة سنة ٤٢٢هـ؛ لتطوى بذلك آخر صفحة من صفحات الحكم المركزي الأموي في الأندلس^(٥).

(١) علي بن حمود: تسمى بالخلافة، وتلقب بالناصر، ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه، وقدموا عبدالرحمن بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر، وسموه المرتضى، وزحفوا إلى غرناطة من البلاد التي تغلب عليها البربر، ثم ندموا على إقامته لما رأوا من صرامته، وخافوا من عواقب تمكنه وقدرته، فانهزموا عنه، ودسوا عليه من قتله غيلة، وخفي أمره، وبقي علي ابن حمود بقرطبة مستمر الأمر، عامين غير شهرين، إلى أن قتله صقالبة له في الحمام سنة ثمان وأربع مائة. وكان له من الولد يحيى وإدريس. (انظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب/ المراكشي. عبدالواحد بن علي التميمي (ت ٦٤٧هـ)، تحقيق محمد علي العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٩٨، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب/ ابن عذارى: أبو عبدالله أحمد بن محمد المراكشي (ت ٦٩٥هـ) تحقيق أ: ليثي بروفنسال، دار المكشوف، ط ٢، ١٩٥٦م، ج ٣، ص ١١٩-١٢٤.

(٢) انظر: الجذوة: ص ٢٧، ودول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، محمد عبدالله عنان، ط ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٢٠.

(٣) هو عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله الملقب بالناصر لدين الله، أول خليفة أموي في الأندلس تسمى بأمير المؤمنين، وكان شجاعاً محنكاً مهاباً، عمل على استرضائه ملوك الروم والخضوع لحكمه. (انظر: المعجب: ص ٥٤-٥٥، والمغرب في حلى المغرب/ ابن سعيد: علي بن موسى بن عبدالملك (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م، ج ١، ص ١٨١).

(٤) مدينة من أعمال بلنسية، استقل فيها بعد الفتنة البربرية عبدالله بن قاسم الفهري (ت ٤٢١هـ)، ثم تعاقب عليها أبناؤه من بعده. (انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار/ الحميري: أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤م، ص ١١٥).

(٥) انظر: الجذوة: ص ٢٧، والفتح: ج ١، ص ٤١٩، ودول الطوائف: ص ٢٠.

ونتيجة لذلك دخلت البلاد مرحلة جديدة على الصعيد السياسي والاجتماعي، فقد انتشر سلك الخلافة وانحل عقد الجماعة، وانقطعت الدولة الأموية في الأندلس، وقام أصحاب الأطراف والأمراء من العرب والبربر والصقالبة والمولدين واقتسموا خطتها، وأنشأوا في كل مدينة دويلة، حتى بلغ عددها ثلاثاً وعشرين دولة عرفت بدول الطوائف^(١). وعلى الرغم من أن تلك الطوائف توزعت الخارطة الأندلسية، وكانت من سلالات وأعراق شتى، إلا أن معظمها انتظم ضمن حزينين كبيرين هما:

١- الحزب الأندلسي: ويمثله محمد بن جهور في قرطبة والمعتضد بن عبّاد صاحب إشبيلية، وسليمان بن هود الجذامي صاحب سرقسطة، ومقاتل الصقلبي صاحب طرطوشة، وعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، ومعن بن صمادح صاحب المرية، وسعيد بن رفيفيل صاحب شقورة، وأبو نور بن أبي قرّة صاحب رندة وتاكرنا، وإسحق ابن محمد البرزالي صاحب قرمونه، وابن نوح صاحب مورون، وابن جزرون صاحب أركوش.

٢- الحزب البربري: ويتألف من: إدريس بن يحيى صاحب مالقة، وباديس بن حبوش الصنهاجي صاحب غرناطة.

وثمة أمراء آخرون التزموا جانب الخذر والفطنة، وهم أبو محمد عبدالله بن الأفطس صاحب بطليوس، ومجاهد العامري صاحب دانية، ويحيى بن ذي النون صاحب طليطلة^(٢).

تلك هي الطوائف والأسر الحاكمة التي بسطت نفوذها على رقعة الأندلس بعد زوال الخلافة، ورسمت للبلاد خارطة سياسية جديدة، وإن كانت تلك القائمة التي

(١) انظر: مقدمة البديع في وصف الربيع/ أبو الوليد الحميري: إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الإشبيلي (ت ٤٤٠هـ)، تحقيق عبدالله عبدالرحيم عسيلان، دار المدني، جدة، ط ١، ١٩٨٧م، ص ١، والنفع: ج ١، ص ٤١٩.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: البيان المغرب: ج ٣، ص ٢١٩-٢٢٠، والشعر الأندلسي في عصر الطوائف، هنري بيريس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٨٨م، ص ١٧، وفي تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، بيروت، ص ٢٥٥.

ذكرت لا تعطينا صورة كاملة عن ملوك الطوائف وصغار الأمراء، ولكن أهمية تلك القائمة تكمن في إعطائنا تصوراً عن الحال التي آلت إليها تلك البلاد نتيجة ظروف ومتغيرات أملت فيها الصراعات السياسية والدينية والنفوذ الإقليمي^(١).

ولأمر ما اختزلت تلك الطوائف، ودخلت الطائفة الصغيرة في أحضان الكبيرة^(٢)، وظهر للأندلس تقسيم آخر كان يخضع للمد والجزر، انجلى عن بني عباد في إشبيلية، وبني الأفطس في بطليوس، وبني صمادح في المرية، وبني ذي النون في طليطلة، وبني هود في سرقسطة، وبني زيري في غرناطة، وبني عامر في بلنسية، وبني القاسم في البونت^(٣)، وغير ذلك^(٤). عندئذ راح كل ملك من أولئك الملوك يوطد ملكه ويسيطر نفوذه، ويخلع على نفسه الألقاب السلطانية^(٥) «من معتمد، ومعتمد، ومرتضى، وموفق، ومستكف، ومستظهر، ومستعين، ومنصور، وناصر، ومتوكل»^(٦)، وفي ذلك يقول ابن رشيق متذكراً: البسيط

عما يزهديني في أرض أندلس أسماء معتمد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهـر يحكي انتفاخاً هيئة الأسد^(٧)

-
- (١) انظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ص ١٧.
(٢) تاريخ الفكر الأندلسي: جثالث بالنشأ، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، ١٩٥٥ م، ص ١٠٩.
(٣) تاريخ الأندلس / ابن الكردبوس: عبد الملك بن قاسم بن الكردبوس التوزري (ت بعد ٥٧٥ هـ)، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١ م، ص ٦٧، وانظر: الشعر الأندلسي، في عصر الطوائف، ص ٤٣.
(٤) انظر: المعتمد بن عباد، الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزا، عبد الوهاب عزام، دار المعارف، بمصر، ١٩٥٩ م، ص ٧.
(٥) انظر: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الأمير شبيب أرسلان، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٣٦ م، ج ١، ص ٢٤٨.
(٦) أعمال الأعلام: ص ١٤٤.
(٧) ديوان ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ): عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩ م، ص ٥٩-٦٠.

ولم يقف الحال عند ذلك الحد بل طمع كل أمير فيما عند الآخر، فكان اختلافهم على أنفسهم شديداً، وبأسهم بينهم أشد^(١)، حيث «تنافسوا على الدنيا، وطمع كل واحد في الآخر، وكذلك لا يصح أمر بين نفسين، فكيف بسلاطين كثيرة، وأهواء مختلفة»^(٢).

ولا شك أن هذا الوضع الذي آلت إليه دولة الإسلام في الأندلس، من تفكك وانقسام وتقاتل أدى إلى إغراء أعدائهم من أمراء دول إسبانيا النصرانية، الذين وجدوا في ذلك فرصة للاستيلاء على الأندلس وإعادتها إلى حظيرة الروم، فقد «خلص الملك للفنش»^(٣) ابن فرذلند، واستبد به، واستفحل أمره، واستحكم في المسلمين طمعه، فبدلوا له ما يحبه من الأموال ليعينهم بإنجاد الرجال، واللعين في أثناء ذلك، لما بينهم من الفتنة، مسرور، وهم مع ذلك مشغولون بشرب الخمر، واقتناء القيان، وركوب المعاصي، وسماع العيدان، وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرأت من المشرق، كي يوجهها إلى الفنش هدية ليتقرب بها إليه.... وصار للفنش عمالاً يجوبون له الأموال، لا يخالف أمره أحد»^(٤).

وقد كان ملوك الطوائف مضطرين إلى ممالة عدوهم - بعد أن ضعفت شوكتهم واستبدت بهم الفرقة - لتحقيق غايات شخصية يرضون بها نزواتهم الفردية وسياساتهم

(١) انظر: «مقدمة الديوان»، ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق علي عبدالعظيم، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م، ص ١١.

(٢) مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بن زيري بغرناطة (ت ٤٨٣هـ)، نشر وتحقيق أ. ليفي بروفسال، دار المعارف بمصر، ١٩٥٥م، ص ١٨.

(٣) يتردد اسم الفونس (Alphonso) في المصادر العربية القديمة مرة باسم أدفونس، وثانية باسم أدفونس، وثالثة باسم الفونس. (انظر: حاشية المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية: ذو النسيين أبو الخطاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣هـ)، تحقيق إبراهيم الإيباري وآخرين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٥م، ص ٢٦.

(٤) تاريخ ابن الكردبوس، ص ٧٦-٧٧، وفي النص تلخيص كامل للوضع السياسي والاجتماعي اللذين كانا سائدين في هذه الفترة.

التوسعية»^(١) ضد بعضهم بعضاً، دون إدراك منهم بأن ما يفعلونه سيكون وبالاً عليهم في المستقبل القريب، ومن هؤلاء بنو عباد، فقد «استطاعوا أن يدفعوا حدود دولتهم بعيداً، بالحرب بديرونها بمهارة، وبالخيانة عندما تبدو لهم الحزب قاصرة، أو الوصول عن طريقها بطول كثيراً، باستخدام لعبة التحالف مع أمراء آخرين، ويدعمونها بالهدايا والزريعات»^(٢).

وتحقق لبني عباد دون سواهم شيء مما أرادوا، على الرغم من أن ما حققوه كان دون طموحهم، حيث خضعت لهم كثير من الولايات، فقد علت يد المعتمد على عبدالله بن بلقين، والمتوكل بن الأفتس، والمعتصم بن ضماخ، وكانوا جميعاً يخطبون سلّمه، ويهابونه، ومع ذلك كان يؤدي الأتاوة إلى الأذفونش، ملك الفرنجة، كل سنة، وذهب مذهبه في تأدية الأتاوة سائر ملوك الطوائف^(٣).

وأداء الجزية من لدن ملوك الطوائف لعدوهم يدل على مدى ما وصل إليه حال هؤلاء الملوك من الضعف، ففي الوقت الذي كانوا فيه يتراجعون، كان ملك الأذفونش يقوى على حساب الأندلس الإسلامية ويتوسع، فقد شهد عهده نقاقاً كبيراً بين هؤلاء الملوك، واختلافاً عظيماً في صفوفهم، فأخذ يغد العدة ويجند الجنود ويحشد القوات

(١) انظر: الأسر الحاكمة في الإسلام، كليفورد بوزورث، ترجمة حسين علي اللبودي، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط ١، ١٩٩٤م، ص ٣٦.

(٢) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ص ١٧-١٨، ولزيد من التفصيل انظر: دول الطوائف: ص ٣١ وما بعدها، وقد كان ملوك الطوائف يقوون مراكزهم ونفوذهم بالإصهار إلى بعضهم البعض، حيث أصهر المعتضد بن عباد إلى مجاهد العامري وكذلك فعل المعتصم، لما كان يتمتع به مجاهد من نفوذ عسكري، بري وبحري. (انظر: ديوان ابن زيدون: ص ٤٣٨، والذخيرة: في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام: أبو الحسن علي الشتريني (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م، ق ١ م ٢، ص ٦٧٠، والمغرب: ج ٢، ص ٤٠١).

(٣) انظر: مذكرات الأمير عبدالله: ص ٦٩، والكامل في التاريخ / ابن الأثير: أبو الحسن علي ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزيري (ت ٦٣٠هـ)، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م، ج ٨، ص ١٠٩، ٤٤٦. ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج ٢٥، ص ٢٧-٢٨، وتاريخ ابن خلدون: ج ٤، ص ٢٠٣، والنفع: ج ١، ص ٤٢٠.

ويغير على الأطراف ويؤلب ملوك الطوائف على بعضهم بعضاً، لإضعافهم عسكرياً واقتصادياً، ليظفر بالبلاد كلها، ويحقق بذلك أحلام آبائه وأجداده في إعادة الأندلس إلى حظيرة النصرانية^(١).

وعندما ساحت الفرصة قرر الأذقونش مهاجمة المسلمين، فعمد إلى تحريك جيوشه من الأفرنج والجلالقة والبشكنس عام ٤٧٥هـ^(٢) «فشق بلاد الأندلس شقاً، يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبي، ثم يرحل إلى غيرها، ونزل إشبيلية، فأقام عليها ثلاثة أيام فأفسد وخرب، وكذلك فعل في شذونة وأحوازها وخرب بشرق الأندلس قرى كثيرة»^(٣).

ثم توجهت أنظاره إلى طليطلة، في مسعى منه إلى قنصم ظهر ملوك الطوائف وتوجيه ضربة حاسمة إليهم، فاجتاحها تمهيداً لغيرها من المدن الأخرى، وفي هذه الحادثة المروعة التي هزّت بلاد الأندلس، يقول ابن بسام: «وَتُعْجَلَتِ البلية، بحصول مدينة طليطلة في أيدي النصارى، وذلك في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وهي من الجزيرة كنقطة السدائرة وواسطة القلادة، تدرکها من جميع جوانبها»^(٤).

الأمر الذي استنفز بعض الشعراء، وجعلهم يتوجهون إلى أبناء

(١) انظر: مذكرات الأمير عبدالله: ص ٧٣-٧٥، وتاريخ ابن الكردبوس: ص ٧٧، وفي تاريخ المغرب و الأندلس: ص ٢٦٢-٢٦٣، وأدب الرسائل: ص ٢١.

(٢) انظر: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط ٧، ١٩٦٢م، ص ٢٥.

(٣) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى/ الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد بن حماد الناصري الدرعي السلاوي (ت ١٣١٥هـ)، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري (ولدا المؤلف) مطبعة دار الكتب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج ٢، ص ٣٢.

(٤) الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٤٩، ووفيات الأعيان: ج ٥، ص ٢٧.

الأندلس، يمثل هذه السخرية اللاذعة التي نلمسها في قول ابن العسال^(١)
(ت ٤٨٧هـ): البسيط

يا أهل أندلسٍ حثوا مطيكمُ فما المَقامُ بها إلا من الغلطِ
الثوب ينسلُّ من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط^(٢)

وبعد الاستيلاء على طليطلة، ازداد طمع الفونس في المسلمين، فقام يتحرش بملك
إشبيلية المعتمد بن عباد، فأرسل إليه برسالة مع ابن شالب اليهودي القشتالي^(٣)، يطالبه
فيها بتسليم أعماله، ويحذره من مثل ما وقع في طليطلة ومحتتها، وقد صيغت الرسالة
بأسلوب استفزازي للمعتمد، كتبها - كما يبدو - أحد النصارى المعاهدين أو اليهود الذين
كانوا يخدمون في بلاط قشتالة^(٤).

وعندما حضر السفير القشتالي بين يدي المعتمد أساء التصرف وأغلظ في الخطاب،
فما دفع المعتمد إلى قتله^(٥)، وأسر بقية من كان معه^(٦). عند ذلك رأى المعتمد أن
الاستعانة بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين أمر لا مفر منه^(٧)، بعد أن تأكد أن ملك

(١) هو أبو محمد عبدالله بن العسال، من أهل طليطلة، رحل عنها عندما سقطت بيد الصليبيين
سنة ٤٨٧هـ، وكان شاعراً مقلقاً، توفي ٤٨٧هـ. (انظر ترجمته في: الصلة/ ابن بشكوال: أبو
القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة،
١٩٦٦م، ج ١، ص ٢٨٥-٢٨٦، والمغرب: ج ٢، ص ٢١).

(٢) المغرب: ج ٢، ص ٢١، وانظر: النفح: ج ٤، ص ٣٥٢، وعصر الطوائف والمرابطين:
ص ١٨٣.

(٣) انظر: أعمال الأعلام: ص ٢٤٤، ومقالة بعنوان: «كيف ساعد الفقهاء الأندلسيون يوسف
ابن تاشفين على خلع ملوك الطوائف»، محمد بن عبد الجليل، في أعمال الملتقى الرابع
الإسباني التونسي، تأليف بالمادي ميورقة، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٣م،
ص ١٢.

(٤) انظر: النفح: ج ١، ص ٤٢٠، ج ٤، ص ٢٤٦، ودول الطوائف، ص ٧٥-٧٦.

(٥) انظر: النفح: ج ١، ص ٤٢٠.

(٦) انظر: أدب الرسائل: ص ٢٣.

(٧) انظر: الأسر الحاكمة في الإسلام: ص ٣٧.

قتالة لن يسكت عنه^(١). فتشاور مع فقهاء الدولة ووجهائها، وقال قولته المشهورة:
«رعي الجمال خير من رعي الخنازير»^(٢).

فلبى ملك المغرب الدعوة، وجاز إلى الجزيرة الخضراء، عام ٤٧٩هـ، وتلقاه
المعتمد بالترحيب^(٣).

واجتمعت الجيوش المتحدة في الزلاقة^(٤)، من إقليم بطليوس، والتقاهم الفونس
بجيوش كثيرة من الجلالة والأفرنجية، ودارت المعركة بين الفريقين، وكان للصحراويين
فيها بلاء حسن، وتميز فيها المعتمد، وكثرت جراحه، وعقرت تحته الأفراس، وكلما هلك
فرس قدم إليه آخر، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين بعد خسارات كبيرة، ثم عاد
يوسف إلى بلده والمعتمد إلى إشبيلية^(٥).

لكن الأمر لم ينته، فالمسلمون لم يعملوا على حسم الموقف مع النصاري في
الشمال عسكرياً^(٦)، فعادت غاراتهم على ملوك الطوائف من جديد، وتكررت
المواجهات معهم، وعندما تيقن ابن تاشفين من عدم جدية هؤلاء الملوك في حماية البلاد
من هجمات الروم، وبتشجيع من فقهاء الأندلس، قرر خلعهم^(٧)، وضم الأندلس إلى

(١) انظر: «كيف ساعد الفقهاء الأندلسيون يوسف بن تاشفين على خلع ملوك الطوائف»، محمد
عبد الجليل، في أعمال الملتقى الرابع الأسباني التونسي، تأليف بالمادي ميورقة، المعهد الأسباني
العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٣م، ص ١٣.

(٢) انظر: الروض المعطار: ص ٢٨٧ - ٢٩٢.

(٣) انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ٢٦-٢٧.

(٤) كانت غزوة الزلاقة في يوم الجمعة الثاني عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة. (انظر:
البيان المغرب: ج ٤، ص ١٣٠).

(٥) انظر: فلائد العقيان/ ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي
الإشبيلي (ت ٥٢٩هـ)، تحقيق حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط ١،
١٩٨٩م، ص ٧١-٧٢، والكامل في التاريخ: ج ٨، ص ٤٤٥-٤٤٨، والنفع: ج ٤، ص ٤٦،
وعصر الطوائف والمرابطين: ص ٢٧.

(٦) انظر: المرجع نفسه: ص ٢٧.

(٧) انظر: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس/ ابن أبي
زرع: على بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي (ت ٧٢٦هـ)، دار المنصور للطباعة، الرباط،
١٩٧٢، ص ١٥٣، وأعمال الأعلام: ص ١٧٣، ٢٠٤، ٢٣٥، ١٤٦-١٤٧، ١٩١، ٢٣٥،
والنفع: ج ١، ص ٤١٩، ج ٢، ص ٣٥٦-٣٥٧.

المغرب وتكفل بحمايتها إلى حين^(١)، لتدخل الأندلس عصراً جديداً عرف بـ «عصر المرابطين»^(٢)، (من سنة ٤٨٤-٥٣٩هـ).

(١) انظر : عصر الطوائف والمرابطين، ص ٢٩-٣١ .

(٢) هناك من الباحثين من يذهب إلى أن عصر الطوائف بدأ فعلياً منذ سنة ٤٠٣هـ، حين استقل بنو رزين في غرناطة بالحكم عن العاصمة قرطبة، وانتهى فعلياً في سنة ٥٠٣هـ، حيث ظلت سرقسطة مستقلة عن الحكم المرابطي في يد بني هود حتى ذلك التاريخ، ليشغل العصر الطائفي بذلك مساحة زمنية قدرها مائة عام . (انظر: في الأدب الأندلسي : جيوة الركابي، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٦م، ص ٢٣، ٢٥، والأدب العربي في الأندلس، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦م، ص ٩٣، و«الحالة السياسية في الأندلس في عهد دويلات الطوائف»، عبد الجليل الراشد، مجلة المورد العراقية، م ١، ج ٣، العدد ٤، ١٩٧٤م ص ٥٥-٦٦، والأسر الحاكمة: ص ٣٧) .

الإطار الأدبي

لقد شهد الأندلس في القرن الخامس الهجري أعظم إشراق أدبي على امتداد تاريخه^(١)، على الرغم من الانحلال السياسي الذي لحق بهذه الفترة، كما عرفنا، والذي لم يحل دون ازدهار الأدب، ولعل في ذلك ما يؤكد أن الحالة الفكرية لا تتبع الحالة السياسية ضعفاً وقوة^(٢).

بل أدى ذلك التفكك والانقسام بين ملوك الطوائف إلى التنافس فيما بينهم على استقدام العلماء والأدباء، إلى عواصم دويلاتهم وتشجيعهم على ذلك بالاصطفاء لهم، والإغراء^(٣)، وإلى ذلك يشير الشقندي (ت ٦٢٩هـ) بقوله: «ولما ثار بعد انتشار هذا النظام ملوك الطوائف وتفرقوا في البلاد، وكان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد، إذ نفقوا سوق العلوم، وتباروا في المثوبة على المشور والمنظوم، فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول: «العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني، وليس منهم إلا من بذل وسعه في المكارم، ونبهت الأمداح من مآثره ما ليس طول الدهر بنائمه»^(٤).

(١) انظر : سلسلة محاضرات عامة في الأدب الأندلسي وتاريخه، أ. ليثي بروفسال، ترجمة محمد عبدالهادي شعيرة، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥١م، ص ١٤، والبيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف، سعد إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٢٢٢، وابن بسام وكتابه الذخيرة، حسين خيربوش، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٤م، ص ١٢٥، والأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧هـ)، منجد مصطفى بهجت، جامعة الموصل، ١٩٨٧م، ص ١١٧، والأدب العربي في الأندلس، عبدالعزيز عتيق : ص ١٠٠ .

(٢) انظر: ظهر الإسلام، أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، ١٩٥٣م، ج ١، ص ٩٦، والشعر الأندلسي في عصر الطوائف : ص ٦٠ .

(٣) انظر: الشعر الأندلسي: بحث في نظوره وخصائصه، إميليو غوسيه غومس، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٩م، ص ٤٥، وعصر الطوائف والمرابطين، ص ٧١-٧٧ .

(٤) النفع : ج ٤، ص ١٦٦ .

ونتيجة لذلك الصنيع تحولت عواصمهم إلى بغدادات صغيرة كثيرة^(١)، يتردد عليها الشعراء ويظفرون فيها بحاجاتهم^(٢).

وقد اعتنى هؤلاء الملوك بجوانب كثيرة من المعارف والآداب، فاختص كل منهم بميزة دون غيره، فقد امتاز المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس بالعلم الغزير، وامتاز المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة أنداده في الموسيقى، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم، وبذ ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع، أما الشعر فكان أمراً مشتركاً بينهم جميعاً، يلقي منهم كل رعاية ولكن عناية بني عباد أصحاب إشبيلية به كانت أعظم وأشمل^(٣).

وقد كان هؤلاء الملوك يراعون الأدب والشعر بدرجات متفاوتة، ويأتي بنو عباد في مقدمة هؤلاء جميعاً، عناية بالأدب ورعاية لأهله^(٤).

وسوف نعرض بشيء من الذكر لبلاطات أولئك الملوك لتعرف على طبيعة تلك الرعاية، وإلى أي مدى نما الشعر وازدهر في بعضها، بينما ضعف واختفى في بعضها الآخر.

بلاط بني عباد في إشبيلية:

ازدهر الأدب في بلاط بني عباد وغصت مجالسهم بالشعراء، فقد كان «لهم من الحنو على الأدب ما لم يقم به بنو حمدان في حلب، وكانوا هم وبنوهم ووزرائهم صدوراً في بلاغتي النظم والنثر»^(٥)، فقد كان المعتضد بن عباد ضالعا بالعلم

(١) الشعر الأندلسي : ص ٤٤ .

(٢) النفع : ج ٤، ص ١٦٦، انظر: بقية خبر الشقندي هناك .

(٣) الشعر الأندلسي : ص ٤٥ .

(٤) انظر : عصر الطوائف والمرابطين : ص ٧٦ .

(٥) النفع : ج ٤، ص ١٦٦ .

بارعاً في الأدب، يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر، وحوك البلاغة والرسائل^(١).

أما ابنه المعتمد فقد كانت «حضرتة ملقى الرجال، وموسم الشعراء، وقبلة الآمال، حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك من أعيان الشعراء، وأفاضل الأدباء، ما كان يجتمع ببابه»^(٢)، وغدت تلك الحضرة «ميداناً لرهان الأذهان، وغاية لرمي هدف البيان»^(٣).

ومن حول المعتضد وابن المعتمد تجمع أعظم شعراء العصر، من أمثال ابن زيدون (ت ٤٦٣هـ)، وابن عمار^(٤)، وابن اللبانة^(٥)، وابن حمديس الصُّقْلِي (ت ٥٢٧هـ)،

(١) انظر: جذوة المقتبس: ص ٨٠.

(٢) النفع: ج ٦: ص ١٤١.

(٣) القلائد: م ١، ٥١٠-٥٢٠.

(٤) هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار، كان أديباً شاعراً وسياسياً بارعاً، وصديقاً للمعتمد ابن عباد، خانت صداقتهما الأيام، وحدث منه ما يغضب أميره عليه فقتله بيده، سنة ٤٧٧هـ، (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٣٦٨، وخريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء المغرب والأندلس/العماد الأصفهاني: أبو محمد صفي الدين عبدالله بن محمد بن محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ): تحقيق آذرتاش وآذرنوش، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطيري والجيلاني ابن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧١م، ج ٢، ص ٧١، وبغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس/الضبي: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ)، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ١١٣، والحلة السَّيْرَاء: ج ٢، ص ١٣١، ووفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٢٥، والمغرب: ج ١، ص ٣٨٩، والنفع: ج ١، ص ٦٥٢).

(٥) هو أبو بكر محمد بن عيسى بن اللبانة الداني، من جلة الأدباء، وفحول الشعراء في الأندلس، عرف بالوفاء لبني عباد بعد ذهاب دولتهم، وزار المعتمد في منفاه بأغمات وله عدة مؤلفات (ت ٥٠٧هـ). (انظر ترجمته في: الخريدة: ج ٢، ص ١٠٧، والتكملة لكتاب الصلة/ ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي (ت ٦٥٨هـ)، عني بنشره وصححه ووقف على طبعه عزت العطار الحسيني، القاهرة، ١٩٥٦م، ح ١، ص ٤١٠، والمغرب: ج ٢، ص ٤٠٩).

وعبادة القزاز^(١)، وابن عبد الصمد^(٢)، وعبد الجليل بن وهب (ت ٤٨٠هـ)^(٣)،
وعشرات غير هؤلاء^(٤).

وقد قيل: إن الدولة العبادية بالأندلس أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد، سعة
مكارم، وجمع فضائل^(٥)؛ لذلك سوف نعرض كثيراً على هذا البلاط العامر بالشعر
ومجالسه الأدبية، لتزود منه بما نحتاج إليه في حديثنا عن المجالس الشعرية.
بلاط بني صمّادح^(٦) في المرية:

يأتي بنو صمادح في الدرجة الثانية -تقريباً- بعد بني عباد في رعايتهم للأدب،
فقد نعتهم ابن دحية بقوله: «وبنو صمادح بيت العلوم الفائقة والآداب الرائقة»^(٧)، وقد
اشتهر من بين بني صمادح المعتصم الذي «أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع
انتظامها في مجالسها واتساقها، وأوضح رسمها، وأثبت في جبين أوانه وسمها، ولم
تخل أيامه من مناظرة، ولا عُمُرت إلا بمذاكرة أو محاضرة وكانت دولته مشرعاً
للكرم، ومطلعاً للهمم، فلاحت بها شمس، وارتاحت فيها نفوس، وقفت فيها أقدار
الأعلام، وتدفقت فيها بحار الكلام»^(٨).

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز، اتصل ببعض ملوك الطوائف وكان شاعر
بني صمادح (ت ٤٨٨هـ) (انظر: ترجمته في: الذخيرة: ق ٢م ١، ٨٠١٢، والمغرب: ج ٢،
ص ١٣٤، وأزهار الرياض في أخبار عياض/ المقرئ: شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني
(ت ١٠٤١هـ)، طبعه لجنة التأليف والترجمة، ج ٢، ص ٥٢، ومقدمة ابن خلدون: ج ٣،
ص ٣٩١).

(٢) هو أبو محمد عبد الجليل بن وهب المرسى، شاعر مشهور، كان حسن الشعر لطيف المأخذ،
حسن التوصل إلى دقيق المعاني. (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢م ١، ص ٤٧٣، والخريدة:
ج ٢، ص ٩٥، والمعجب: ١٥٩، والنفع: ج ١، ص ٦٥٦).

(٣) هو أبو بحر يوسف بن عبد الصمد، شاعر المعتمد بن عباد، وصاحب المراثية الشهيرة فيه، (انظر
ترجمته في: القلائد: م ١، ص ١٠٦، والذخيرة: ق ٣م ٢، ص ٨٠٩، والمغرب: ج ٢،
ص ٢٠٣، وأعمال الأعلام: ص ١٦٥-١٧٠، والنفع: ج ٤، ص ٢٥٩).

(٤) انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ٧٦-٧٧.

(٥) النفع: ج ٦، ص ٣٢.

(٦) صمادح: بضم الصاد المهملة وفتح الميم ودال مكسورة، تعني في اللغة الشديد، انظر: لسان
العرب، مادة: صمدح.

(٧) المطرب: ص ٣٤.

(٨) القلائد: م ١، ص ١٤٧ والمغرب: ج ٢، ص ١٩٥.

وفي أيامه بلغت الحركة الأدبية في المرية شأواً عظيماً، حيث تدفق على بلاطه كثير من الشعراء، كأبي عبدالله بن الحداد (ت ٤٨٠هـ) وابن عبادة القزاز، وابن الشهيد^(١) وغيرهم^(٢) ممن وهبوا ملكه وبلاطه عزاً ومنجداً أثيلين^(٣).

بلاط بني الأفطس في مملكة بطليوس:

لقد كان هذا البلاط حافلاً بالشعراء والأدباء، بسبب رعاية أصحابه لهم، فقد كان المظفر^(٤) بن الأفطس ملك بطليوس شاعراً، وكان يتخرج من قول الشعر، لعدم قدرته على الإتيان بالشعر الرفيع، الذي يرقى به إلى مستوى الشعراء الكبار، وكان يقول: «والله ما يمتنعني من إظهار الشعر إلا كوني لا أقول مثل قول أبي العشائر بن حمدان: البسيط

أقرأت منه ما تخط يد الوغى والبيض تُشكل والأسنة تنقُط^(٥)

(١) هو أبو حفص عمر بن الشهيد التجيبي، شاعر وأديب، معدود من الشعراء الكبار في الأندلس، (ت ٤٤٠هـ). (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٣٠٢، والذخيرة: ق ١، م ١، ص ٦٧٠، والبغية: ص ٤٠٧، والمغرب: ج ٢، ص ٢٠٩، والبيان المغرب: ج ٣، ص ١٧٥، وأعمال الأعلام، ص ١٩٠، والنفع: ج ٣، ص ٤١٣.)
والتجيبي: نسبة إلى «تجيب» امرأة عُرِفَ بنو صمادح بها فنسبوا إليها، وهي تجيب بنت ثوبان من ملهح. (انظر: جمهرة أنساب العرب/ ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط ٥، ١٩٨٢م، والمطرب: ص ٣٤، ووفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٣١.)

(٢) انظر: أعمال الأعلام: ص ١٩٠.

(٣) انظر: مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح، مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م، ص ١٠٥.

(٤) هو أبو بكر المظفر محمد بن عبدالله بن مسلمة بن الأفطس، تولى حكم بطليوس بعد والده سنة ٤٣٧، وكان من أعلم ملوك الأندلس بالنسب وأيام العرب وأجمعهم لغرائب الأخبار ومحاسن الأشعار، توفي ٤٦٠هـ، (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢، م ٢، ٦٤٠، والمطرب: ص ٢٢، والمغرب: ج ١، ص ٣٦٤، والبيان المغرب: ج ٣، ص ٢٣٦، وأعمال الأعلام: ص ١٨٤، والنفع: ج ٣، ص ٣٨٠.)

(٥) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر/ الثعالبي: أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣م، ج ١، ص ١١٥.

وقول أبي فراس ابن عمه: الوافر

وجرّنا العوالي في مقام تُحدّثُ عنه ربّاتُ الحجال

كأن الخيل تعرف من عليها ففي بعض على بعض تعالي^(١)

فأين هذا من قولي: الوافر

أنفت من المدام لأنّ عقلي أعزّ عليّ من أنس المدام

ولم أرتح إلى روض وزهر ولكن للحمائل والحسام

إذا لم أملك الشهوات قهراً فلم أبغي الشُّفوفَ على الأنام^(٢)

وقد عرف عنه حرصه الشديد على جمع علوم الأدب خاصة، من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التواريخ^(٣)، وله مؤلف كبير، يعرف بـ: «المظفري»^(٤)، بلغ نحو الخمسين مجلداً^(٥)، وكان يتشدد في سماع الشعر ولا يقبل منه إلا ما كان في مستوى شعر المتنبي وغيره من كبار الشعراء، حيث يقول: «من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعري فليسكت، لا يرضى بدون ذلك»^(٦).

وهذا المنحى الذي سلكه المظفر مع الشعراء لا شك أنه سوف يضيق من دائرة الشعراء في بلاطه، ويقلص منهم أعداداً كبيرة، لكنه في حد ذاته، سيدفع الشعراء إلى تجويد شعرهم وتحسينه وصقله، وذلك يعد مكسباً كبيراً للرقى بمستوى الشعر، كي

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ١٩٨٣، ص ١٢٩.

(٢) النفع: ج ٦، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٣) المعجب: ص ١٢٨.

(٤) المصدر نفسه والمكان ذاته.

(٥) انظر: النفع: ج ١، ص ٤٤٢.

(٦) الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٤٦١، وأعمال الأعلام: ص ١٨٤.

فلا عجب أن نرى في هذا البلاط شاعراً مثل عبدالمجيد بن عبدون، الذي تحكي الغرائب عن كثرة حفظه، حتى قال في شأنه أبو مروان عبدالمملك بن زهر^(١): «هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها في علم الآداب، هذا أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون، أيسر محفوظاته كتاب الأغاني، وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته»^(٢).

وقد كان المتوكل^(٣) بن المظفر «كالمعتمد بن عباد بإشبيلة، قد أناخت الآمال بحضرتيهما، وشدت رحال الآداب إلى ساحتهما، يتردد أهل الفضائل بينهما كتردد النواسم بين جنتين، وينظر الأدب منهما عن مقلتين، والمعتمد أشعر، والمتوكل أكتب»^(٤).

ومن أبرز شعراء بني الأفطس: ابن البين^(٥)، وابن قزمان^(٦)، وابن

(١) هو عبدالمملك بن زهر بن عبدالمملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادي، أبو مروان، طبيب أندلسي من أهل إشبيلة، لم يكن في عصره من يماثله في صناعته، خدم «الملثمين» مدة. (انظر ترجمته في: معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب/ ياقوت الحموي: أبو عبدالله بن عبدالله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٣م، ج ٦، ص ٢٥٥١، والأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٨، ١٩٨٩م، ج ٤، ص ١٥٨).

(٢) المعجب: ص ١٤٤.

(٣) هو عمر بن المظفر محمد بن عبدالله بن مسلمة بن الأفطس، حاصره المرابطون، وقتل هو وأبناؤه سنة ٤٨٧هـ. (انظر ترجمته في: القلائد: م ١، ص ١٢٠، والذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٤٦، والحلة السيرة: ج ٢، ص ٩٢، والمغرب: ج ١، ص ٣٦٤، وأعمال الأعلام، ص ١٨٥).

(٤) النفع: ج ٦، ص ٢٢٤.

(٥) هو أبو عبدالله محمد بن البين، أحد الشعراء المجيدين، كان بحضرة بطليوس مستظرف الألفاظ والمعاني، مطبوعاً على قول الشعر، (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٩٩، والمغرب: ج ١، ص ٣٧٠، والنفع: ج ٣، ص ٤٥٣).

(٦) هو أبو بكر محمد بن عبدالله بن قزمان، من أهل البلاغة والبيان، كان كاتباً للمتوكل بن الأفطس، توفي ٥٠٨هـ، (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٧٤، والصلة: ج ٢، ص ٥٤٠، والمغرب: ج ١، ص ٩٩).

بلاط بني هود في سرقسطة:

ازدهر الأدب في سرقسطة في عهد بني هود، خاصة عهد المقتدر (ت ٤٧٤هـ) أشهر ملوك بني هود^(٢)، وكان عالماً وشاعراً^(٣)، ومن شعره مفتخراً بمبائيه: الكامل

قصر السرور ومجلس الذهب بكما بلغت نهاية الأرب

لو لم يحز ملكي خلا فكما كانت لدي كفاية الطلب^(٤)

إلا أن اهتمام أصحاب هذه المملكة بالشعراء كان ضعيفاً، ولم يكن في درجة اهتمام أمراء الممالك السابقة، ويتضح ذلك من خلال ذم الشعراء لهم وهجرهم إياهم، يقول ابن بسام في حديثه عن ابن الدباغ^(٥): «وكان استوحش من أمير بلده، ومقيم أوده

(١) هو أبو بكر عبدالعزيز بن سعيد البطلوسي، أحد فرسان الكلام، وحملة السيوف والأقلام، كان كاتباً مترسلاً، كتب للمتوكل بن الأفسس، ثم ليوسف بن تاشفين من بعده، توفي ٥٢٠هـ، (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٥٣، والمطرب: ص ١٦٨، والمغرب: ج ١، ص ٣٦٧، والإحاطة في أخبار غرناطة/ لسان الدين بن الخطيب: أبو عبدالله محمد بن سعيد (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٣م، ج ١، ص ٥٢٨).

(٢) انظر: النفع: ج ١، ص ٤٤١، والمقتدر بن هود: هو المقتدر أحمد بن سليمان بن هود، أمير سرقسطة، كان بينه وبين النصارى حروب عظيمة استرد فيها بريشتر سنة ٤٥٧هـ، واستولى على دانية من يد إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري، توفي ٤٧٥هـ (انظر ترجمته في: المغرب: ج ٢، ص ٤٣٦، وأعمال الأعلام: ص ١٧١، والنفع: ج ١، ص ٤٤١).

(٣) انظر: الملوك الشعراء: جبرائيل سليمان جبور، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨١م، ص ٢٥٢.

(٤) النفع: ج ١، ص ٤٢٢.

(٥) هو أبو المطرف عبدالرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ، كان كاتباً للمقتدر بن هود، ثم فر عنه إلى المعتمد بن عباد، (انظر ترجمته في: القلائد: م ١، ص ٣١٤، والذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥١، والمغرب: ج ٢، ص ٤٤٠).

ابن هود المقتدر، فخرج عنه وفر^(١)، وكذلك حكايته مع الجزار السرقطي^(٢)، الذي
آثر القصابة على البقاء في بلاطه، بعد أن ظهر منه ما يغضبه^(٣)، وتلك المواقف تدل
على قلة اهتمام أصحاب هذه المملكة بالشعراء وضعف رعايتهم لهم، وعلى الرغم من
ذلك فقد كانت الشعراء تمدحهم^(٤)، وكان الأديب والوزير الفضل بن حسداي^(٥) من
كبار رجال بلاطهم ومقدميهم.

بلاط مملكة دانية والجزائر الشرقية:

ازدهر الأدب في هذه المملكة على يد مجاهد العامري وابنه عليّ ازدهاراً ملحوظاً،
فقد كان مجاهد «من الكرماء على العلماء، باذلاً للرغائب في استمالة الأدباء»^(٦)، وقد
أشاد ابن بسام بمكانة مجاهد العلمية والأدبية واحتفاله بأهل العلم والأدب، إلا أنه يأخذ
عليه أنه كان أزهد الناس في الشعر، «وأحرمهم لأهله» وأنكرهم على منشد^(٧)، مما
جعل الشعراء يقصرون عن مدحه، والشعر يخلو من ذكره^(٨). ووُصِفَ الشعرُ بأنه كان

(١) الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥١.

(٢) هو أبو بكر يحيى الجزار السرقطي، كان في دكان يبيع اللحم فتعلقت نفسه بقول الشعر فبرع
فيه، وله أشعار مدح بها ملوك بني هود ووزراءهم، ثم ترك الأدب والشعر واعتكف على
القصابة (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٩٠٥، والمغرب: ج ٢، ص ٤٤٤-٤٤٥،
والنفح: ج ٣، ص ٦٠٩).

(٣) انظر الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٩٠٥-٩٠٦، والنفح: ج ٥، ص ٢٩١.

(٤) انظر: النفح، ج ٣، ص ١٢٠.

(٥) هو أبو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي الإسرائيلي، كان هضبة علاء وجدوة ذكاء،
وله باع في الأدب، وذكر أنه عني التعاليم وأسلم، (انظر ترجمته في: القلائد: م ١، ص ٥٤٥،
والذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٥٧، والمغرب: ج ٢، ص ٤٤١).

(٦) الجدوة: ص ٣٥٤.

(٧) الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٣.

(٨) انظر: المصدر نفسه والمكان ذاته.

باهتاً في بلاطه^(١)، مزدهراً في عهد خلفه، إقبال الدولة ومن بعده مبشر بن سليمان^(٢).

والحق أن بلاط مجاهد كان عامراً بالأدب كما كان عامراً بالعلم، فقد وفد عليه كثير من الشعراء وجلة من العلماء^(٣) اكتظ بهم بلاطه وغص بهم مجلسه، كما سنرى، فممن وفد عليه من الشعراء ابن برد الأصغر^(٤)، الذي رحل من قرطبة إلى المرية، فاستوزره المعتصم بن صمادح، ثم رحل إلى مجاهد صاحب دانية^(٥)، ومنهم أبو بكر محمد بن قاسم أشكهاط^(٦)، الذي قال في مجاهد بعد رجوعه إلى الأندلس: الطويل

وكم قد لقيتُ الجَهْدَ قبلَ مجاهدٍ وكم أبصرتُ عيني وكم سمعتُ أذني

ولا قيتُ من دِهري وصرفِ خطوبه كما جرتِ النكباءُ في معطفِ الغُصنِ

(١) انظر «الحياة الفكرية والأدبية بالجزائر الشرقية، في القرنين الخامس والسادس»، أعمال اللقي: ص ٦٥.

(٢) المرجع السابق: ص ٦٥.

(٣) انظر: المغرب: ج ٢، ص ٤٠١، وديوان ابن زيدون: ص ٤٣٨.

(٤) هو أحمد بن أحمد بن برد مولى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن شهيد، أبو حفص الكاتب، مليح الشعر، بليغ الكتابة، من أهل بيت أدب ورياسة، له رسالة السيف والقلم، يقول عنه الحميدي: إنه رآه بالمرية بعد ٤٤٠ هـ، (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١١٥، والذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٨، ومطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس/ ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله القيسي الإشبيلي (ت ٥٢٩ هـ)، دراسة وتحقيق محمد علي الشوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣ م، ص ٢٠٧، ومعجم الأدباء/ ياقوت الحموي: أبو عبدالله بن عبدالله الرومي الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، تحقيق أحمد فريد الرفاعي، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٦ م، ج ٥، ص ٤١-٤٣، ورايات المبرزين وغايات المميزين/ ابن سعيد: علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك (ت ٦٨٥ هـ)، تحقيق النعمان عبدالمتعال القاضي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣ م، ص ٧٠).

(٥) المغرب: ج ١، ص ٩١.

(٦) انظر: فاشكهاط، ارتحل إلى المشرق لما نبت به حضرة قرطبة عند تقلب دولتها، وجاءه من العراق وحلب ودمشق، ثم رجع إلى الأندلس وحل بحضرة دانية لدى صاحبها، فاستوزره من بلوغ الآمال ما ليس عليه مزيد، (انظر ترجمته في: المغرب: ج ٢، ص ٣١، والنفع: ج ٢، ص ٣٠٩).

فلا تسألوني عن فراق جهنم ولكن سلوني عن دخولي إلى عدن^(١)

ومنهم ابن دراج القسطلبي (ت ٤٢١هـ)، الذي رحل إلى مجاهد في أخريات أيامه بعدما سمع «بما ذاع وشاع عن مجاهد أمير دانية والجزائر الشرقية وإسباغه العطايا الجزيلة على الشعراء والعلماء، وفد عليه مادحاً بقصيدة بدیعة استهلها بقوله: الطويل

إلى أي ذكرٍ غير ذكرك أرتاح - ومن أي بحرٍ غير بحرٍ بحرك أمتاح^(٢)

واحتفل مجاهد بقدومه عليه وأجزل له في العطايا مما جعله يؤثر المقام عنده^(٣). كما ضم بلاطه الشاعر ابن مقانا الأشبوني^(٤)، وله فيه مدائح كثيرة^(٥)، ووفد عليه غير أولئك كثير، كابن زيدون^(٦)، وإدريس بن اليمان (ت ٤٥٠هـ)^(٧) وغيرهما^(٨).

ولم يكن قول الشعر في هذا البلاط مقصوراً على الأدباء، بل تعداه إلى العلماء،

(١) المغرب: ج ٢، ص ٣٢، والنفع: ج ٢، ص ٣٣٠، ديوان ابن دراج القسطلبي، تحقيق محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦١م، ص ١٣٤.

(٢) ديوان ابن دراج القسطلبي، تحقيق محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦١م، ص ١٣٤.

(٣) تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات (الأندلس)، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٨٩م، ص ١٩٣.

(٤) هو أبو زيد عبدالرحمن القبذاق، أديب وشاعر، اتصل بمجاهد الغامري ومدحه في دانية (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٢٧٩، والذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٩٦، والمعجب: ١١٧-١٢١، والمطرب: ص ٤٣، والمغرب: ج ١، ص ٤١٣، والنفع: ج ١، ص ٤٢٣).

(٥) انظر: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٩٦، والمغرب: ج ١، ص ٤١٣.

(٦) انظر: ديوانه: ص ٢٣٦.

(٧) هو أبو علي إدريس بن اليمان أو اليماني، شاعر جليل، يتتبع الملوك، فينفق عليهم، وله شعر كثير، ولم يكن بعد ابن دراج من يجري عندهم مجراه، وكان لا يمدح إلا بجائزة، وكان يقول: أشعاري مشهورة، وبنات صدري كريمة، فمن أراد أن ينكح بكرها فقد عرف مهرها، وكانت جائزته مائة دينار (توفي سنة ٤٥٠ أو ٤٧٠هـ). (انظر ترجمته في: الجذوة: ١٧٠، والمغرب: ج ١، ص ٤٠٠، والوافي بالوفيات/صلاح الدين الصفدي: خليل بن أيك (ت ٧٦٤هـ)، باعتناء محمد يوسف نجم، دار النشر فرانز شتاي، ط ٢، ١٩٨٢م، ج ٨، ص ٣٢٧).

(٨) انظر: الذخيرة: ق ٣، م ١، ص ٣٤٠، والمغرب: ج ٢، ص ٤٠١.

فقد رويت لهم مشاركات في تلك المجالس الأدبية التي كان مجاهد يعقدها لهم في بلاطه، إلى جانب المجالس العلمية والفكرية التي كان يعقدها، ومن أولئك العلماء صاعد البغدادي^(١)، الذي استدعاه مجاهد إلى بلاطه واستماله بخريطة مال ومركب أهدهما إليه، فقال فيه قصيدة أولها: المتقارب

اتتني الخريطة والمركبُ كما اقترن السعدُ والكواكبُ

فقل واحتكم لي فسمع الزمان مصيخُ إليك بما ترغب^(٢)

وله حوار أدبي مع بشار الأعمى^(٣)، في بلاط مجاهد^(٤)، مما يؤكد مشاركته الأدبية في مجلسه.

ومجمل القول فيه أنه «إليه كانت هجرة أولي البقية وذوي الحرية من هذه الطبقة الأدبية القرطبية، للين جانبه وذكاء شهابه»^(٥)، الأمر الذي يجعل حكم ابن بسام عليه السابق حكماً فيه نظر

(١) هو صاعد بن الحسن الربيعي اللخوي أبو العلاء، ورد من المشرق إلى الأندلس في أيام هشام ابن الحكم في صدر الثمانين وثلاثمائة، كان عالماً باللغة والأدب، سريع الجواب، حسن الشعر، فكه المجالس، مات في حدود ٤١٠هـ، وقيل: ٤١٧ وقيل: غير ذلك، (انظر ترجمته في: الجذوة: من ٢٤٠-٢٤٤، والذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٨، والمعجب: ص ٧٥-٨٣).

(٢) الجذوة: ص ٣٥٤.

(٣) يقول عنه الحميدي: «ذهب عني نسبه كان نحوياً، استاذاً في العربية، شيخاً من شيوخ الأدب، وكان من ناحية الموفق مجاهد بن عبدالله العامري، ومنقطعاً إليه». (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٨١-١٨٢، والبغية: ص ٢٥٠، والتكملة: ج ١، ص ٢٣٠-٢٣١، ووفيات الأعيان: ج ٢، ص ٤٣٣).

(٤) انظر: الجذوة: ص ١٨١-١٨٢.

(٥) الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٢.

بلاط بني ذي النون في طليطلة:

لم يقدر للحركة الأدبية في هذا البلاط أن تنشط فيه كما نشطت في بلاطات الملوك السابقين، ومرد ذلك -تقريباً- إلى عاملين:

أولاهما: عدم تذوق أمراء هذه المملكة للأدب.

ثانيهما: بخل بعض أمرائها وتقتيرهم على الشعراء، فقد كان إسماعيل بن ذي النون «شديد البخل، لم يرغب في صنعة ولا سارع إلى حسن، فما أعملت إليه مطية، ولا عرج عليه أديب ولا شاعر، ولا استخرج من يده درهم في حق ولا باطل»^(١). وجاء من بعده المأمون ثم حفيده يحيى الذي «لم يكن له ولسلفه قبله باع في الطلب ولا حظ في الأدب»^(٢).

لكن ذلك لا يعني أن مملكة بني ذي النون قد خلت من أدباء وشعراء حلوا في بلاط أمرائها وأحيوا مجالس السهم، وسجلوا مآلهم من مآثر ومنافع، فقد كان لهم شعراء ثابتون، كما شهدت مملكتهم شعراء طارئین وجوالين، انتجعوا بلاطهم ما بين الحين والآخر.

ففي عهد المأمون حل عليه الأديب أبو الفضل البغدادي^(٣)، وأجرى له «ستين مثقالاً في الشهر»^(٤). ومن الشعراء الذين كانوا من خواصه الشاعر ابن أرفع

(١) الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ق ٤ م ١، ص ١٥٠.

(٣) هو محمد بن عبد الواحد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الليث، أبو الفضل، بغدادي، من بيت علم وأدب، خرج إلى القيروان ومنها إلى الأندلس، واستقر بطليطلة، فكانت وفاته بها سنة ٤٥٤هـ، (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٧٣، والذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٨٧، والصلة: ج ٣، ص ٨٦٦-٨٦٥، والنفع: ج ٣، ص ١١١).

(٤) الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٨٩، والمغرب: ج ٢، ص ١٢.

رأسه^(١)، الذي قصر عليه مدائحـه واشتـهر في بلاطه^(٢)، ومن ذلك قوله

فيه: البسيط

دعوا الملوك وأبناء الملوك فمن أضحى على البحر لم يشق إلى نهر

يا واحداً ما على عليه مختلف مذ جاد كفك لم تحتج إلى المطر

ومذ طلعت لنا شمساً فما نظرت عيني إلى كوكب يهدي ولا قمر

وقد بدوت لنا وسطى ملوكهم فلم نعرج على شذر ولا ذر^(٣)

ومن تردد على بلاطه ابن شرف حسنة القيروان^(٤)، وعبدالله بن خليفة

المصري^(٥).

(١) هو أبو بكر محمد بن أرفع رأسه، شاعر ووشاح، عاش في طليطلة، اتصل بالمأمون بن ذي النون ومدحه، وكانت موشحاته مشهورة يغنى بها في بلاد المغرب (انظر ترجمته في : المغرب: ج ٢، ص ١٨، وجيش التوشيح/ لسان الدين الخطيب: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق وتقديم هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس، ١٩٦٧م، ص ٧٣-٨٥، والنفع: ج ٤، ص ١٣٤-١٣٥).

(٢) انظر: المغرب: ج ٢، ص ١٨.

(٣) المغرب: ج ٢، ص ١٨، والنفع: ج ٥، ص ٢٧٦.

(٤) هو أبو عبدالله محمد بن أبي سعيد بن شرف، عربي الأصل، قدم الأندلس بعد فتنة القيروان، تردد على ملوك الطوائف، واستقر أخيراً عند المأمون بن ذي النون، توفي سنة ٤٦٠هـ، (انظر ترجمته في : الذخيرة، ق ٤، ص ١٦٩-١٧٠، والمغرب: ج ٢، ص ١٢، ٢٣٠).

(٥) هو أبو محمد عبدالله بن خليفة القرطبي، يعرف بالمصري لطول إقامته بمصر، اشتهر بالطب، وكان كثير النادرة، حاضر الجواب، مكث عند المأمون حيناً من الدهر، ثم رحل إلى المعتمد بن عباد، فأنس بمكانه وجعل له حظاً عنده، (انظر ترجمته في الذخيرة: ق ٤، ص ٣٤٢، والمغرب: ج ١، ص ١٢٨-١٢٩، والنفع: ج ٦، ص ٥٦-٥٧، ج ٢، ص ٦٩).

شهد الأدب في هذا البلاط اهتماماً إلى حد ما، حيث حاولت هذه الأسرة البربرية أن تجعل من العربية لغة لها، وأن ترتفع بنسبها عن طريق أدارسة المغرب إلى ذرية علي بن أبي طالب^(١).

ولم تحل تلك البربرية والعجمة وعدم القدرة على نظم الشعر من قبل هذه الأسرة دون أن تستمع إلى الأدب وتبدي سعادتها الغامرة بالاستماع إليه^(٢)، فقد كان «الناصر علي بن حمود، على عجمته وبعده عن الفضائل، يصغي إلى الأمداح ويشب عليها»^(٣).

ويروى أن هذه الأسرة كانت تأخذ نفسها بما يأخذها خلفاء بني العباس^(٤)، فقد كانوا «إذا حضرهم منشد لمُدح، أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم تكلم من وراء حجاب»^(٥)، فقد أنشد ابن مقان الأشبوني قصيدته النونية في مجلس إدريس بن حمود، ولما وصل إلى قوله: الرمل

انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين

رفع الخليفة الستر بنفسه، وقال: انظر كيف شئت، وانبسط مع الشاعر، وأحسن إليه»^(٦). وإدريس بن يحيى هذا عرف عنه بأنه كان: «أديب اللقاء حسن المجالس، يقول من الشعر الأبيات الحسان»^(٧).

(١) انظر: الأسر الحاكمة في الإسلام: ص ٣٦.

(٢) انظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ص ٦٢.

(٣) النفح: ج ١، ص ٤٨٣.

(٤) انظر: التاج في أخبار الملوك / الجاحظ: عمير بن بحر (ت ٢٥٥هـ) دار الفكر، بيروت، ١٩٥٥م، ص ٧٨ وما بعدها.

(٥) انظر: النفح: ج ١، ص ٢٠٦، ٤١٤-٤١٦.

(٦) انظر: الذخير: ق ٣ م ٢، ص ٩٠٥-٩٠٦، والنفح: ج ١، ص ٢٠٦، ٤١٤-٤١٦.

(٧) المعجب: ص ١١٧.

بلاط مملكة السهلة:

كان بلاط أميرها حسام الدولة ابن رزين^(١)، يشهد شيئاً من النشاط الأدبي لما عرف عن أميرها من قرض للشعر وحب له^(٢)، وقد وردت في وصفه روايات متضاربة، فهناك رواية تصفه بأنه: «كان غيثاً في الندى»^(٣)، ورواية أخرى تصفه بأنه كان «ضيق الفناء جهم اللقاء، أحذق الناس بحرمان من قصده وأشدّهم احتمالاً لمن لأمه في البخل»^(٤). ولعل في الحكاية التي تتحدث عن سخرية ابن عمار حثه في مجلسه^(٥)، ما يؤكد الرواية الثانية.

ومتهما يكن من شيء، فقد كان ابن رزين هذا يقرض الشعر، ورويت له أشعار كثيرة^(٦). وفي مجلسه كان الشعر ينشد ويقرأ، ومن ذلك ما يروى عنه أنه كان يقرأ في مجلسه «ديوان محمد بن هانيء» (ت ٣٦٢هـ)، وكان القاريء بـلّه، فلما وصل إلى قوله:

«حرام حرام زمان الفقير» متقارب

اتفق أن عرض للملك ما اشتغل به، فقال للقارئ: أين وقفت؟ فقال: في حرام، فقام الملك وقال: هذا موضع لا أقف معك فيه، أدخل أنت وجدك، ثم دخل إلى قصره وانقلب المجلس ضحكاً^(٧).

(١) هو ذو الوزارتين أو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزين (ت ٤٩٦)، ملك السهلة، كان له طبع فيجييه، ويرمي ثغرة الصواب عن قوسه فيصبيه، يقرض الشعر ويصغي إليه ويثيب عليه. (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١١٢-١١٣، ص ٤٩، والمطرب: ص ٦١، والحلة السيرة، ج ٢، ص ١٠٨-١١٠، والمغرب: ج ٢، ص ٤٢٨، وأعمال الأعلام: ص ٢٠٥).

(٢) انظر: النفع: ج ٤، ص ٣٥٧.

(٣) المغرب: ج ٢، ص ٤٢٨.

(٤) الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٩، والحلة السيرة، ج ٢، ص ١٠٨-١١٠.

(٥) الذخيرة: ص ٥٠.

(٦) انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١١٤-١١٧، والمطرب: ص ٣٩، والمغرب: ج ٢، ص ٤٢٨، وأعمال الأعلام، ص ٢٠٧، والنفع: ج ٤، ص ٣٥٧.

(٧) النفع: ج ٤، ص ٣٦٤، (بلّه) هكذا وردت في النفع، وبلّه بـلهاً وبلاهة ضعف عقله. انظر: لسان العرب: مادة: بله.

فملك يقرأ بين يديه ديوان شاعر كبير مثل ابن هانيء للدليل واضح على اهتمام ذلك الملك بالأدب والشعر ورعايته لهما، ناهيك بكونه يقول الشعر ويثيب عليه.

بلاط بني جهور في قرطبة:

ظلت قرطبة -بعد انحلال الخلافة- تتجاذبها قوى مختلفة، وظلت خاضعة لبني جهور من الفترة ٤٢٢-٤٦١هـ^(١)، وقد انشغل حاكمها أبو الحزم بن جهور في بداية الأمر بتثبيت دعائم الحكم وترسيخ النظام والأمن فيها^(٢)، ونتيجة لما حل بهذه المدينة من فوضى واضطرابات هجرها كثير من العلماء والأدباء^(٣)؛ لذلك لم تحدثنا المصادر الأدبية عنها كثيراً^(٤).

ولم تكن الاضطرابات والفوضى وحدها هي السبب في الصورة الباهتة للأدب في هذه المملكة، فقد كان هناك سبب آخر، ربما يعود إلى ما كان يتصف به أبو الحزم بن جهور من قسوة وشدة بخل^(٥)، إلا أن ذلك لا يعني خلو بلاط بني جهور من أي نشاط أدبي، فقد كان أبو الحزم بن جهور يقول الشعر^(٦)، وكان من رجال بلاطه الأديب والمؤرخ الكبير أبو مروان بن حيان^(٧)، وابن

(١) انظر: الأسر الحاكمة في الإسلام: ٣٧.

(٢) انظر: دول الطوائف: ص ٢٣.

(٣) انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٢.

(٤) انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ٤٧.

(٥) انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ١١٦-١١٧.

(٦) انظر: المطمح: ص ١٥، والنفح: ج ٢، ص ٦٥.

(٧) هو أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، من أهل قرطبة، توفي سنة ٤٦٩هـ، وهو صاحب كتاب المقتبس في أخبار الأندلس. (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٢٠٠، والذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٧٣-٦١٤، والصلة: ج ١، ص ١٥٣-١٥٤، وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون/ حاجي خليفة: مصطفى بن عبدالله (ت ١٠٦٧هـ)، دار الفكر، ١٩٨٢م، م ٢، ص ١٧٩٢، ودول الطوائف: ص ٢٥).

برد^(١) وابن زيدون الذي يقول في بني جهور: البسيط

لولا بنو جهور ما أشرقت هممي غيد السوالف في أجسادها تلُع

قوم متى يحتفل في وصف سؤدهم لا يأخذ الوصف إلا بعض ما يدع^(٢)

ولابن زيدون وشعراء آخريين قصائد كثيرة في مدح بني جهور^(٣)، وظهرت في هذا العهد ولادة بنت المستكفي^(٤) يهوها الأدبي^(٥)، وكذلك الشاعر والأديب الكبير أبو عمر بن شهيد.

بلاط بني زيري في مملكة غرناطة:

لقد خضعت غرناطة لحكم بني زيري من الفترة ٤٠٣-٤٨٣^(٦)، وبقيت طوال فترتهم هذه خارج المهابط التي كان الشعراء يترددون عليها، ولم يفكر أي من الشعراء الكبار بالتوجه إليها، ليمدح أمراءها البربر ووزراءها اليهود^(٧).

فقد ولي أميرها باديس بن حبوس وزراء من غير المسلمين، ومنهم ابن النغيلة اليهودي^(٨) فأثار بذلك الشعراء والرأي العام ضده^(٩)، وبدلاً من مدح الشعراء لهذا

(١) انظر رسالة ابن برد التي كتبها إلى الوزير جهور مفضلاً فيها الورد على بقية الزهور، وهي رسالة رمزية مدح بها ابن جهور وفضله فيها على أقرانه. انظر: البديع في وصف الربيع: ص ٦١، وما بعدها.

(٢) الديوان: ص ٢٩٧-٢٩٨. التلع: طول العنق. انظر: لسان العرب: مادة تلع.

(٣) انظر: دراسات في الأدب الأندلسي، ص ٨٠.

(٤) هي ولادة بنت المستكفي محمد بن عبد الرحمن (ت ٤٨٤هـ)، (انظر ترجمتها في: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٢٩).

(٥) انظر: دول الطوائف: ص ٢٥.

(٦) انظر: الأسر الحاكمة في الإسلام: ص ٣٧.

(٧) مع شعراء الأندلس والنتبي: أميليو غرسه غومس، ترجمة الطاهر مكي، القاهرة، ١٩٧٨ م ص ٨٥.

(٨) ابن النغيلة: هو يوسف بن إسماعيل بن النغيلة. (انظر ترجمته في: ص ٧٦٦-٧٦٩، والمغرب: ج ٢، ص ١٣٢-١٣٣، والبيان المغرب: ج ٣، ص ٢٦٤-٢٦٥، والإحاطة: ج ١، ص ٤٣٩، والنفع: ج ٦، ص ٩٣-٩٤).

(٩) انظر: مع شعراء الأندلس والنتبي: ص ٨٥.

الملك، راحوا يهجون هجاء قاسياً^(١)، ومن هؤلاء الشعراء، خلف بن فرج المعروف بالسميسر^(٢).

وهناك شاعر آخر لمع نجمة في سماء هذه المملكة^(٣) هو أبو إسحاق الإلبيري الذي لم يتوجه بشعره إلى مديح أمراء هذه المملكة، بل توجه به نحو المعارضة والزهد والسياسة ومناهضة نفوذ اليهود^(٤).

وكان على الشعراء في هذه المملكة، والحالة هذه، إما أن يخضعوا ويمدحوا اليهود^(٥)، ويتعرضوا لمقتل المؤرخين^(٦)، وإما أن يرحلوا عن البلاد، كما فعل السميسر، الذي هجا أميرها بعد رحيله عنها هجاء مرأ^(٧).

(١) انظر: أخبار وتراجم أندلسية/السلفي: أبو طاهر أحمد بن محمد (ت ٥٧٦هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣م، ص ٨٣-٨٤.

(٢) هو خلف بن فرج الإلبيري عاصر ابن الحداد (ت ٤٨٠هـ). (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٨٢، والمطرب: ص ٩٣، والمغرب: ج ٢، ص ١٠٠، وأخبار وتراجم أندلسية: ص ٢٨).

(٣) انظر: مع شعراء الأندلس والمنتبي: ص ٨٥.

(٤) انظر: النفع: ج ٦، ص ٩٣، ومع شعراء الأندلس والمنتبي: ص ٨٥.

(٥) انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٦١-٧٦٥.

(٦) انظر: المصدر نفسه: حيث يعلق ابن بسام على مدح الشاعر أبي أحمد عبدالعزيز بن خيرة القرطبي، المشهور بالمتقتل، لليهودي ابن النغيلة، وينقده نقداً لاذعاً.

(انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٧٦٥-٧٦٥، وما بعدها، ومع شعراء الأندلس والمنتبي: ص ٨٥).

(٧) فقد روي أن باديس بن حبوس ولّى في وزارته نصرانياً، بعد مقتل وزيره اليهودي ابن النغيلة، مما دفع الشعراء إلى هجوه وذمه على ذلك الصنيع، وفي ذلك يقول السميسر: الخفيف

كلّ يوم إلى الورا بدل البول با.....

فزماناً تهوداً وزماناً تنصراً

وسيصبر إلى المجو س إن الشيخ عمرا (أخبار وتراجم أندلسية: ص ٨٣).

وقال بعد أن فر إلى المرية:

رايت آدم في نومي فقلست له: أبا البرية إن الناس قد حكموا

أن البرابر نسل منك، قال: إذن حواء طالقة إن كان ما زعموا (النفع: ج ٤، ص ٣٦٩).

وكان باديس بن حبوس في تعامله مع الشعراء قاسياً وشديداً^(١)، نلاحظ ذلك من هذه الحكاية التي يرويها غانم المخزومي^(٢)، حيث وجه إلى أحد أبنائه نصيحة بمغادرة غرناطة، قائلاً له فيها: «رئيس غرناطة غير مأمون على الدماء فكن أنت بالمرية، فإن قتلني بقيت أنت، وأنت في أول فتوتك»^(٣).

بقية الممالك:

في بلنسية ورث المنصور^(٤) حفيد المنصور بن أبي عامر عن أبيه رعاية الأدب، وقام بما قام به أبوه من عناية بالشعراء والإغداق عليهم بالعطايا^(٥). وله مجلس ورثه عن جده الذي تأنق في بنائه، وصدق بذكره الشعراء^(٦)، وأشاد بوصفه الكتاب^(٧) يقول علي بن أحمد^(٨)، أحد شعرائه، في وصف منيته: المنسرح التام

-
- (١) انظر: المغرب: ج ٢، ص ١٠٧، والشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٦١.
- (٢) هو غانم بن الوليد بن عمر بن غانم الأشبوني المالقي المخزومي، فقيه مقدم، وأستاذ في الآداب وفنونها، قد بذقته أهل ذلك الإقليم في أنواع التعاليم (ت ٤٧٠هـ). (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٣٥٢، والذخيرة، ق ١ م ٢، ص ٨٥٣، والمطرب: ص ٨٤، والمغرب: ج ١، ص ٣١٧، ومعجم الأدباء: ج ١٦، ص ١٦٧).
- (٣) بنية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة/ السيوطي: جلال الدين بن عبدالرحمن (ت ٩١١هـ): تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٧٩م، ج ١، ص ١١٧.
- (٤) هو المنصور عبدالعزيز بن الناصر عبدالرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر (ت ٤٥٢هـ). (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٤٩-٢٥١، والمغرب: ج ٢، ص ٣٠٠، والبيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٤، وأعلام الأعلام: ص ١٩٤-١٩٥، وتاريخ ابن خلدون: ج ٤، ص ١٦١).
- (٥) انظر: ابن شرف القيرواني، محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٩٩.
- (٦) المرجع السابق: ص ٩٩.
- (٧) انظر: القلائد: م ١، ص ٢٠٢.
- (٨) هو ابن أبي وهب أبو الحسن علي بن أحمد. (انظر ترجمته في: الخريدة: ج ٢، ص ١٩).

قم فاسقني والرياضُ لا بسهُ وشيأ من النور حاكه القَطْرُ^(١)

ولابن شرف القيرواني شعر قاله في مجلسه، منه: الرمل

زمن المنصور قوَى متّي وسرى همي واحيا جذلي

فاستطيب العيشُ في بلدته فكان الناس في قُطْرُبلي^(٢)

ولم تحدثنا المصادر عن الحركة الأدبية في البوئت حاضرة بني القاسم بشيء كبير
إزاء تشجيع هذه الأسرة للأدب^(٣)، غير أن أبا محمد بن حزم يذكر، في رسالته في
«فضل الأندلس وذكر رجالها»، أنه حضر مجلس أبي عبدالله بن القاسم^(٤)، «الحافل
باصناف الآداب، والمشهد الأمل بأنواع العلوم»^(٥).

كذلك لم تحفل مرسية في عهد ابن طاهر^(٦) بنشاط أدبي كبير، في مجال الشعر،
فقد كان أميرها مولعاً بالبشر دون الشعر^(٧)، ناهيك عن انشغاله بحماية هذا الثغر،
ومواجهة الاضطرابات فيه، الأمر الذي نأى بهذا الأمير عن انصرافه إلى الاهتمام
بالأدب^(٨).

(١) القلائد: م ١، ص ٢٠٢.

(٢) الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٢١٨، قُطْرُبُل: مدينة على ضفة نهر دجلة بالعراق. (انظر: معجم
البلدان: ج ٤، ص ٤٢١).

(٣) انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ٧٤.

(٤) هو أبو عبدالله بن عبدالله بن القاسم الفهري، تلقب بيمين الدولة، واستمر إلى سنة ٤٣٤هـ،
تولى بعده ولده أحمد الملقب بعز الدولة. (انظر ترجمته في: المغرب: ج ٢، ص ٣٩٦، وأعمال
الأعلام: ص ٢٠٨، والنفع: ج ٤، ص ١٤١).

(٥) النفع: ج ٤، ص ١٤١.

(٦) هو أبو عبدالرحمن محمد بن أحمد بن إسحاق بن طاهر، أمير وكاتب مشهور، له رسائل تدل
على نبيله وبلاغته (ت ٥٠٨هـ)، (انظر ترجمته في: القلائد: م ١، ص ١٧٠، والذخيرة: ق ٣
م ١، ص ٢٤-٩٢، والحلة السيرة: ج ٢، ص ١١٦، والمغرب: ج ٢، ص ٢٤٧، وأعمال
الأعلام: ص ٢٠١-٢٠٢، والنفع: ج ١، ص ٦٧٠).

(٧) انظر: تاريخ الفكر الأندلسي: ص ٧٨.

(٨) انظر: ابن شرف القيرواني: ص ١٠١.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان هناك شعراء يرتادون مجلسه، ويمدحونه، ومنهم:
أبو عامر بن الفرج^(١)، حيث يقول: الخفيف

قد رأينا منك الذي قد سمعنا فغدا الخبرُ عاصدَ الأخبارِ
إذ وردنا إليك بحرأ غميراً وارتقينا: حيثُ النجومُ الدارِي
ولكم مجلسٌ لديك انصرفنا عنه مثل الصبَا عن الأزهارِ^(٢)

وهناك دويلات أخرى صغيرة قامت في ذلك الحين، في الجزيرة الخضراء وقرمونة
وإسبجة والمدور ورندة وأركش ومورور وشرش، لم ينفق للأدب فيها سوق، وقد
انتهى بها الأمر إلى الدخول في حوزة إشبيلية^(٣).

تلك كانت صورة مصغرة عن النشاط الأدبي في بلاطات الأمراء، وعن مدى
رعاية كل أمير من أمراء الطوائف لطائفة الشعراء والأدباء، وقد استطعنا من خلال
الصورة السابقة التعرف على مدى تشجيع ملوك الطوائف للأدب، وعرفنا كيف ارتقى
إلى الذروة لدى بعض هؤلاء الملوك، بينما ضعف وهبط إلى الدركات السفلى لدى
البعض الآخر.

وقد كان الشعر -عموما- في الأندلس ينشد في كل مكان، على المستوى الشعبي،
«فلا يكاد بلد يخلو من كاتب ماهر وشاعر قاهر»^(٤)، حتى الأماكن النائية جداً منها،

(١) هو أبو عامر بن الفرج، كان صاحب أدب ونبل وحسب، تقلب على ملوك الطوائف
وانتجعهم، (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٠٣-١٠٤، والحلة السيرة: ج ٢،
ص ١٧١، والمغرب: ج ١، ص ٣٠٣، والنقح: ج ٣، ص ٤٠٨، ٥٤٢-٥٤٣).

(٢) المغرب: ج ٢، ص ٣٠٤.

(٣) انظر: تاريخ الفكر الأندلسي: ص ١٣، ص ١٠٩.

(٤) الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٣٣.

ظلت العناية بالشعر موجودة، والاهتمام به قائماً، مثل مدينة شلب^(١).

وكان الفلاحون ينشدون الشعر ويتطارحونه فيما بينهم وهم يفلحون أراضيهم
وأثناء استراحاتهم، لكن بُعدهم عن دائرة الضوء ومراكز الثقافة والنفوذ السياسي
والأدبي، جعل الرواة يسكتون عن رواية أشعارهم وتدوينها إلا اليسير النادر منها^(٢).

(١) فقد روى القزويني عن أهل شلب بأنه «قل أن يرى من أهلها من لا يقول شعراً، ولا يعاني
أدباً، ولو مررت بالحراث خلف فدانه، وسألته الشعر، لقرض في ساعته أي معنى اقترحت
عليه، وأي معنى طلبت منه صحيحاً». (انظر: آثار البلاد وأخبار العباد/ القزويني: زكريا بن
محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ)، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص ٥٤١).

وعن أهل شلب يقول الرصافي:

وأرض شلب وما شلب وإن ولدت غمار ناس فناس غير أعمار
عرف التحاور من تلقاء السنهم كأنما نشؤوا في غير أمصار
يلقون بالقول موزوناً وما قصدوا كان ذلك منهم غير إضمار

(ديوان الرصافي البلنسي/ أبو عبدالله محمد بن غالب (ت ٥٧٢هـ)، جمعه وقدم له إحسان
عباس، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٦٠م، ص ٦٢-٦٣. وانظر: زاد المسافر وغرة محيا
الأدب السافر/ أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسى (ت ٥٩٨هـ): عده وعلق عليه
عبدالقادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م، ص ١٣٢).

(٢) انظر: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، حسن أحمد النوش، دار الجيل،
بيروت، ط ١، ١٩٩٢م، ص ٧٤.

الباب الأول

المجالس الشعرية دراسة عامة

الفصل الأول

مدخل تاريخي

مفهوم المجالس الشعرية :

اشتق لفظ « مجلس » من المادة اللغوية (جَلَسَ)، التي تدل على معان حسية كثيرة، أفاضت أمهات المعاجم العربية القديمة والحديثة بالحديث عنها، حيث نجد أول معجم عربي أشار إليها هو كتاب «العَيْن» للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) بقوله : «الجَلْسُ»: ما ارتفع عن الغور من أرض نجد، وتقول : أغاروا واجلسوا، وغاروا وجلسوا»^(١).

وهي بهذا المفهوم تعني المكان المرتفع ثم تطور مفهومها الحسي، فأطلقت على الجماعة من الناس، يقول الأصمعي (ت ٢١٥هـ): « المجلس»: الناس، وأنشد بيت مهلهل بن ربيعة: الكامل

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستبَّ بعدك يا كليب المجلس^(٢)

وفي هذا إشارة إلى أن لفظ مجلس كانت، في بادئ أمرها، تطلق على الجماعة من الناس.

ومعظم المعاجم القديمة التي جاءت بعد «العَيْن» أشارت إلى أن المراد بلفظة «مجلس» المكان والناس معاً، فالجوهري (ت ٣٩٣هـ) يذكر اللفظة بوجوها الاشتقاقية المختلفة، ويورد دلالتها معاً، فيقول: جلس جلوساً، وأجلسه غيره، وقوم جلوس، والمجلس: موضع الجلوس، وجالسته فهو جَلَسَ وجليس، وتجالسوا في المجالس»^(٣).

ويضيف صاحب «أساس البلاغة» إلى كلمة معاني «مجلس»، معنى دالاً على الهيئة، وهو أن يكون المقصود منها هيئة القوم أثناء اجتماعهم، حيث يقول: «ويقال:

(١) كتاب العين/ الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ)، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ٢، ١٩٨٦م، مادة: جلس.

(٢) الأمايلي/ القالي: أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي (ت ٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ١، ص ٩٥.

(٣) الصحاح/ الجوهري: إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، مادة: جلس.

رأيتهم مجلساً؛ أي جالسين»^(١).

ويورد صاحب اللسان مادة كبيرة في معاني «جَلَسَ» نقلها عن الكتب التي سبقته، ونجّزيء منها ما فيه إشارة إلى موضوعنا، وسنرى أنها لا تخرج عن الدالتين اللتين ذكرناهما، فهو يقول: تطلق كلمة «مجلس» ويراد بها موضع الجلوس، وقرئ: «يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس»^(٢)، قيل: يعني به مجلس النبي (ص)، وقرئ: «في المجالس»، وقال اللحياني: هو المجلس والمجلسة، يقال: ارزن في مجلسك أو مجلستك، والمجلس: جماعة الجلوس، أنشد ثعلب: الطويل

لهم مجلسٌ صُهب السبال أذلةً سواسيةً أحرارها وعبيدها»^(٣)

وهذا المعنى الثاني للكلمة سوف نلقاه في بقية المعاجم المتأخرة أيضاً.

أما المعاجم الحديثة فإنها تورد الكلمة بمعانيها الاشتقاقية القديمة، وتضيف إليها شيئاً من معانيها الوظيفية والأصطلاحية، حيث يعرفها أصحاب المعجم الوسيط بقولهم: «والمجلس يقصد به مكان الجلوس، والطائفة من الناس تخصص للنظر فيما يناط بها من أعمال، ومنه مجلس الشعب، ومجلس العموم، ومجلس الأعيان، والمجلس الحسبي»^(٤).

أما صاحب المعجم المفصل فيقول: «المجالس: هي في الأدب العربي تسجيل كامل لما كان يلقيه الشيخ على طلابه من غير إعداد سابق، ومنها «مجالس ثعلب» (ت ٣٥٣هـ)^(٥).

(١) أساس البلاغة/الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ) تحقيق عبدالرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، مادة: جلس.

(٢) سورة المجادلة: آية ١١.

(٣) لسان العرب/ ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، مادة: جلس.

(٤) المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، استانبول، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٢م، مادة: جلس.

(٥) المعجم المفصل في اللغة والأدب، ميشال عاصي، دار العلم للملايين، بيروت، مادة: جلس.

أما معجم لغة العرب، فيورد المعاني القديمة للكلمة، ويضيف إليها ما ورد في المعجم الوسيط السابق الذكر، ويشير إلى المعنى المجازي للكلمة، فيقول: «... والمجلس موضع الجأوس، والجالس والقوم الجلوس، مجاز مرسل من باب تسمية الحال باسم المحل، فيقال: قضى المجلس بكذا، ويقال: مجلس النواب، ومجلس الشعب»^(١).

فهو يعد كلمة «مجلس» بمشتقاتها كلها لا تخرج عن دائرة الدلالة المكانية، وإطلاق الكلمة على الأشخاص يعد من قبيل المجاز، وهو بهذا يخالف من سبقه، فقد لاحظنا إجماع القدماء على ثنائية الدلالة للكلمة، وأنها تدل دلالة حقيقية على المكان والأشخاص معاً.

ونخلص من ذلك كله إلى أن المكان من الممكن أن يسمى مجلساً إذا اعتاد الناس الجلوس فيه، وذلك الاسم يعد وصفاً له، على اعتبار أنه موضع ثابت للجلوس الناس فيه، ومن الممكن أن يكون المجلس وصفاً لجماعة من الناس، لا يتعقد المجلس ولا يحصل إلا بهم، إذ من الممكن أن يجتمع أشخاص في أي مكان يتشاورون فيه أو يتسامرون أو يريحون أنفسهم من عباء سفر أو قضاء نزهة أو غير ذلك، فنقول: إنهم قد عقدوا لذلك مجلساً أو عملوا مجلساً، أي كان موضع ذلك المجلس.

الفرق بين كلمتي «مجلس» و«ناد»:

وقفنا فيما سبق على الفضاء الدلالي لكلمة مجلس، ونود هنا أن نتناول الحديث عن كلمة «ناد» أو «منتدى» أو «ندي»، لننظر إلى أي مدى تقترب هذه اللفظة أو تباعد عن أختها لفظ «مجلس» دلالياً، فقد لاحظنا دوران هذه اللفظة بمشتقاتها كثيراً في المصادر القديمة، وسترد معنا في هذه الدراسة في مواطن مختلفة.

لا نجد في المعاجم القديمة فرقاً كبيراً بين لفظتي مجلس وناد، مما يجعلهما لفظتين مترادفتين، يقول ابن فارس: والنادي والندي: المجلس يندو القوم حواله، وإذا تفرقا

(١) لغة العرب: معجم مطول للغة العربية ومصطلحاتها الحديثة، جورج ميتري عبدالمسيح، مكتبة لبنان، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م، مادة: مجلس.

ويقول صاحب اللسان: «والنادي كالندي، ولا يسمى نادياً حتى يكون فيه أهله، وإذا تفرقوا لم يكن نادياً، وهو مجتمع القوم وأهل المجلس، ليقع على المجلس وأهله، وفي حديث الدعاء: «لأن جار النادي يتحول»، أي جار المجلس، وقال بشر بن حازم: الوافر وما يندوهم النادي، ولكن بكل محلة منهم فنام أي ما يسعهم المجلس من كثرتهم، وندوت القوم أندوهم إذا جمعتهم في النادي، وبه سميت دار الندوة بمكة، وقيل الندوة الجماعة^(٢). أما المعاجم الحديثة فإنها تورد ما قاله السابقون عن معاني الكلمة، وتتوسع قليلاً في مفهومها الضيق، حيث جاء في المعجم الوسيط «والنادي أو المنتدى مكان مهياً لجلوس القوم فيه، والغالب أن يتفقوا في صناعة أو طبقة»^(٣).

فقد يكون أصحاب هذه الطبقة أو الصناعة شعراء أو علماء أو قادة أو حكاماً... الخ. وقد

وزدت الكلمتان في الأشعار القديمة، ويراد بهما معنى واحداً، يقول زهير^(٤): الطويل

وفيهـم مقامات حسان وجوههم وأندية يتنابها القول والفعل

ويقول الأسود بن يعفر: الطويل

أحقاً بني أبناء سلمى بن جندل وعيدكم إياي وسط المجالس^(٥)

ووردتا معاً في قول حسان: مخلع البسيط

لا أخدش الخدش بالجلس ولا يخشى نديمي إذا انتشيت يدي^(٦)

(١) معجم مقاييس اللغة/ ابن فارس: أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٦٩م، مادة: ندى.

(٢) لسان العرب: مادة: ندى.

(٣) المعجم الوسيط: مادة: ندى.

(٤) ديوان زهير: تحقيق علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٨م، ص ٨٧.

(٥) ديوان الأسود بن يعفر: صنفه نوري حمودي القيسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٦٨م، ص ٤٢.

(٦) ديوان حسان بن ثابت: تحقيق سيدي حنفي حسنين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١٥٠.

ووردت كلمة «ندي» في القرآن بمعنى مجلس^(١)، قال تعالى: «وإذا ثلّى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا: أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً»^(٢)، وفي مصادر الأدب الأندلسي، ترددت الكلمتان كثيراً في النثر والشعر، يقول الكتبي: «وكان مجلس ولادة بقرطبة منتدى لأحرار العصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر»^(٣).

ويقول أبو العرب الصقلي^(٤): البسيط

يا ليت شعري ماذا يرتضيه لمن ناداه، يا موثلي، في جحفل النادي^(٥)

ويقول ابن زيدون: الطويل

ولا قبل عبّاد حوى البحر مجلس ولا حمل الطود المعظم رفرف^(٦)

من خلال ما سبق يتبين لنا أن مصطلحي «مجلس» و«ناد» دارا في المعاجم اللغوية وفي كلام العرب، مسور ومنظومه، وأريد من دالتيهما الاصطلاحية التعبير عما يدور فيهما من أوجه النشاطات السياسية أو الاجتماعية أو الأدبية وغيرها، وكلا المصطلحين يمكن أن يكون كل منهما مكان الآخر، والفرق بينهما يكمن في أن كلمة «مجلس» تطلق على المكان وعلى الجماعة من الناس، بينما كلمة «ناد» لا تطلق على المكان إلا إذا كان الناس مجتمعين فيه.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٦م، ج ١١، ص ١٤٢.

(٢) سورة مريم: آية ٧٣.

(٣) فوات الوفيات/ الكتبي: محمد بن شاعر (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، ٤م، ص ٢٥٢.

(٤) هو مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي العبدري، ولد بصقلي ٤٢٣هـ، وخرج عنها ١١ تغلب الروم عليها، قاصداً المعتمد، توفي ٥٠٦هـ، ص ٣٠١، والأعلام: ج ٣، ص ٧٣٤.

(٥) النفع: ج ٥، ص ١١٢.

(٦) ديوان ابن زيدون: ص ٤٨٦.

لذلك كان لفظ «مجلس» أعم وأشمل في دلالاته من لفظ «ندي»، ولستطيع من خلال هذه الشمولية أن نتوسع في استخدامه، ونحن ندرس شعر المجالس، فندخل فيها اللقاءات كلها التي تمت بين الأمراء والشعراء أو بين الشعراء أنفسهم، فقد يكون المجلس في قصر الأمير أو في حديقته أو أثناء تنزهاته ورحلاته، وأماكن نزوله وقدمه، وقد يكون في منزل وزير أو أديب أو في متنزهه وحائره، أو في رحلة صيد أو ركوب بحر، وبمعنى آخر : كل لقاء جرى فيه شعر بين اثنين فصاعداً سيكون، بالنسبة لهذه الدراسة، مجلساً شعرياً، وهذا، في رأي الباحث، لن يتأتى لمصطلح «ناد» أو «منتدى» على وجه الدقة.

وبعد هذا الإيضاح الذي مهدنا به لمصطلح «مجلس»، ومصطلح «منتدى»، وعرفنا أنهما لفظتان مترادفتان إلى حد بعيد، فلا ضير أن نستخدم كلا المصطلحين، إذا لزمته الضرورة، وإن كنا قد أثرنّا مصطلح مجلس كثيراً في هذه الدراسة، للأسباب التي ذكرناها آنفاً.

عرفنا أن لفظة مجلس تدار حول معان تدل على مجموعة من النشاطات التي يقوم بها جماعة من الناس في مكان ما، علمية أو سياسية أو اجتماعية أو أدبية، وما يعيننا من تلك المجالس هو المجالس ذات الطابع الأدبي فقط.

فهناك المجالس التي تنعقد للتشاور في مهام الدولة وقراراتها المصيرية، مثل تشاور الأمير مع رجال الدولة، في أي شأن من شئونها^(١). وهناك المجالس العلمية، وهي نوعان : مجالس تعقد حلقاتها في المساجد للتدريس، ومجالس تعقد للمناظرة والمناقشة في المسائل العلمية والفكرية^(٢).

(١) انظر : أعمال الأعلام : ص ٢٤٥، والمعتمد بن عباد، عبدالرهاب عزام، ص ٣٦.

(٢) انظر : أدب الرسائل في الأندلس : ص ٦١.

وهناك المجالس الأدبية، وهي التي يتم فيها قرض الشعر^(١)، ويطلق عليها مجالس الأنس، وهي «مجالس لقاء متميزة، فيها يحظى الشعراء بمكانة مرموقة، وفيها يقبل الحاضرون إقبالاً متحرراً على مواطن اللذة مما تطرب له النفوس في خلواتها مع الأصفياء من غناء وخمر وحضور غلام وامرأة»^(٢).

ويطلق عليها - أيضاً - مجالس الطرب، وهي التي كانت تنعقد في قصور الأمراء والأعيان، وعوام الناس، وقد كانت في الأندلس واسعة الانتشار، يقول التجيبي: «وكننت إذا جن الليل اشتد سهري، وخفقت حولي أوتار العيدان والطناير والمعازف من كل ناحية»^(٣).

وفي الذخيرة والنفح وغيرهما حكايات كثيرة عن هذه المجالس مما سنعرض له في حينه من هذه الدراسة، ومن ذلك ما يرويه ابن بسام عن الحكيم النديم أبي بكر الإشتبيلي من أنه قال: «تخضرت مجلس أنس مع أبي بكر بن عمار بقصر الرشيد بن المعتمد، فلما دارت الكأس وتمكن الأنس وغنيته أصواتاً وذهب به الطرب كل مذهب قال ابن عمار مرتجلاً: البسيط

ماضر إن قيل: إسحاق وموصله ها أنت أنت وذو حمص وإسحاق»^(٤)

ومن يتبع هذه المجالس الأدبية تاريخياً منذ بداياتها الأولى سيلحظ أنها كانت في

(١) انظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٥م، ص ١٨.

(٢) "مسالك الشعر في الغرب الإسلامي فيما بين القرن الثاني الهجري والقرن الخامس"، إبراهيم النجار، مقالة في كتاب في محراب المعرفة، تحرير إبراهيم السعافين، مطابع دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م، ص ٥١.

(٣) المختار من شعر بشار / التجيبي: إهداء إلى... وتخرّيج محمد بدر الدين العلوي، مطبعة الأعفان، بيروت، ط ١، ١٩٣٤م، ص ١٥.

(٤) الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٩٥.

العصور الأولى غاية في ذاتها يعقدها الشعراء بهدف التنافس والارتقاء بمستوى الأدب عبر محافل وأسواق أدبية، ومنها سوق عكاظ، والتي كانت «معرضاً بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم لدينا-نحن أبناء هذا العصر- فهي مجتمّع أدبي، لغوي، رسمي، له محكمون، تضرب عليهم القباب، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم، فما استجادوه فهو الجيد، وما بهرجوه فهو الزائف، وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية»^(١).

وفي العصر الأموي والعباسي كان لها روتق خاص وطابع متميز، وثرأ حي، واهتمام بالغ من قبل الملوك والشعراء^(٢).

أما في الأندلس فقد كانت «من أكبر مسارح الأفكار، وأفخم مظاهر الجمال، وأجمع أنواع اللهو والجد والهزل، ومظهر الحياة العقلية والاجتماعية، والشعراء فرسان هذا الميدان، والكلام وحده آلة التعبير عن ذلك بأشكال مختلفة البليغة... كذلك كانت روعة تلك المجالس في الشعر وبلاغة الكلام،... وكانت مجالسهم لذينة ومحاضرتهم فكهة، والشعراء كثيراً ما تحملهم هذه المجتمعات وما فيها على الارتجال والابتكار»^(٣).

والمتتبع - أيضاً - للمجالس الأدبية منذ بداياتها سيجد أن ثمة تطوراً قد طرأ عليها عبر مراحل عصورها المختلفة، فقد كانت تنعقد في الأسواق الأدبية، وتنشد في كثير من المحافل، ولا يرجى من ورائها مكسب مادي أو منصب سياسي، وشابها شيء

(١) أسواق العرب: سعيد الأفغاني، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٦٠م، ص ٢٧٧.

(٢) انظر على سبيل المثال: المجالس الأدبية في صدر الإسلام، وعصر بني أمية، أحمد عبد المنعم الخلو، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة دمشق، ١٩٨٢م، والأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري، على محمد هاشم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، والحياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين حتى نهاية القرن الثالث الهجري، رسالة ماجستير مخطوطة، مصطفى البشير، جامعة الجزائر، ١٩٩٣م.

(٣) بلاغة العرب في الأندلس: أحمد ضيف، مطبعة مصر، ط١، ١٩٢٤م، ص ٢٣.

من ذلك في العصر الأموي، حتى إذا كان العصر العباسي مالت المجالس الأدبية إلى القصور العباسية كل الميل، وكذلك كان الحال في الأندلس، وإن كان النشاط الأدبي قد شق طريقه خارج البلاط، وكان له حضور فعال في الحياة الأدبية العامة.

أنواع المجالس الشعرية:

١- المجالس الخاصة: التي يعقدها الأمراء مع الشعراء، وهي قسمان:

أ- مجالس خاصة رسمية، يعقدها الأمير مع الشعراء في يوم محدد من كل أسبوع، أو في مناسبات مختلفة.

ب- مجالس خاصة غير رسمية، يعقدها الأمير مع خواصه من الوزراء والأعيان والشعراء.

٢- المجالس العامة: التي يعقدها الشعراء فيما بينهم بمختلف مراتبهم الاجتماعية وفئاتهم، سواء أكان ذلك في بيوتهم أم خارجها.

٣- المجالس الشعرية المتخيلة: وهي المجالس التي يتخيلها الشعراء، ويجرونها مجرى المجالس الشعرية الواقعية، وغالباً ما تكون ذات أبعاد سياسية أو اجتماعية أو أدبية. وبعد أن عرفنا ذلك فلنشرع الآن في الحديث عن أنواع تلك المجالس بشيء من التفصيل.

١- المجالس الخاصة:

أ- المجالس الخاصة الرسمية:

نستطيع أن نطلق على هذه المجالس هذه الصفة انطلاقاً من طبيعتها وطريقة إجرائها ومراسم انعقادها، فقد لوحظ أن الأمراء كانوا يخصصون يوماً من كل أسبوع للشعراء يجلسون معهم فيه^(١)، ويستدعون إلى ما يقدمونه بين أيديهم من أشعار في ديوان يسمى «ديوان الشعراء»^(٢)، وقد يعين الأمير رئيساً عليه من الشعراء^(٣) بعد أن يرى أحقيته بتلك الرئاسة^(٤).

(١) انظر: الحلة السراء: ج ٢، ص ٨٢، والنفح: ج ٦، ص ٢٠-٢١.

(٢) انظر: الجدوة: ص ١١١.

(٣) انظر: النفح: ج ٦، ص ٢١.

(٤) المصدر نفسه والمكان ذاته.

ويتصل بهذا النوع من المجالس تلك التي كان يعقدها الأمير احتفاءً بمناسبة عودته من سفر أو انتصاره أو شفائه من علة وما إلى ذلك، حيث كان يفد عليه الشعراء ليهنئوه بهذه المناسبات، كما سنرى ذلك عند حديثنا عن هذه المناسبات.

ب- المجالس الخاصة غير الرسمية:

وهي مجالس يُدعى إليها الشعراء من قبل الأمراء إلى قصورهم أو أثناء تنزهاتهم، بغية الترويح عن الأمير والتسلية وإزجاء اللهو. ويؤي أن المعتمد بن عباد كان يعقد جلسات خاصة مع من أحب من الشعراء، يجدهم في راحتهم، وينطلق معهم فيها على سجع من دون حرج، كما فعل مع سفراء المعتصم بن صمادح، حين حلوا ضيوفاً في قصره، واستأذنوه بالانضمام إلى مجلسه الخاص، وقضوا فيه معه سهرة ممتعة^(١)، وكما فعل مع الشاعر ابن حمديس^(٢)، والشاعر النحلي^(٣)، وغيرهما^(٤).

وكان يصحطب الشعراء في هذه المجالس بطارحهم الأشعار ويطلب منهم أن يجيزوا شعره^(٥)، أو يستحثهم على القول في موضوع معين^(٦).

وكان المعتصم بن صمادح يضع مع شعرائه الشيء نفسه^(٧)، وكذلك المتوكل بن المظفر^(٨).

(١) انظر: النفح: ج ٤، ص ٣٦٣.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ج ٥، ص ١٥٣-١٥٤.

(٣) هو أبو الوليد البطليوسي المعروف بالنحلي، كان شاعراً جوالاً ممتعاً فكهاً بشعره، صاحب فكاهات ونوادر، استقر به المقام بعد طول تقلب وأسفار عند المعتصم، ثم رحل وندم على مفارقتها (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢، ص ٨٠٩، والنفح: ج ٤، ص ٢٠٥).

(٤) انظر: الذخيرة: ق ٢م ٢، ص ٨١٠-٨١١.

(٥) انظر: بدائع البداهة/ ابن ظافر: جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي (٦١٣هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٧٣-٨٤.

(٦) المصدر نفسه: ص ٣٩٩، والنفح: ج ٦، ص ٣٧.

(٧) انظر: القلائد: م ١، ص ٢٥٩، والذخيرة: ق ١م ٢، ص ٤٠٢-٤٠٣.

(٨) المصدر نفسه: ق ١م ٢، ص ٤٦٥-٤٦٦.

٢- مجالس الشعراء العامة :

لقد كان للشعراء مجالس كثيرة يعقدونها لمطارحة الشعر ومذاكرته في بيوتهم^(١)، أو في الأماكن العامة مثل باب السمّارين^(٢)، أو وسط الرياض والمتنزهات^(٣)، يقول ابن شرف القيرواني متندراً في وصف بيت لأحد أصدقائه، مستمداً وصفه من البيئة حوله : الكامل

لك منزلٌ كملتُ ستارتهُ لنا للهو لكن تحتَ ذاكَ حديثُ

غنى الذبابُ وظل يزمرُ حوله فيه البعوضُ ويرقصُ البرغوثُ^(٤)

ولعل في المجلس التالي ما يؤكد عناية بعض الشعراء بالمجالس الشعرية وارتياحها، فقد حضر أبو إسحاق بن خفاجة مجلساً بمرسية مع أبي محمد بن عنق الفضة^(٥)، وتذكرا فاستطال ابن عنق الفضة، ولعب بأطراف الكلام، ولم يكن ابن خفاجة يعرفه، فقال له يا هذا، لم تترك لأحد حظاً في هذا المجلس، صيب شعري من تكون؟ فقال أنا القائل : الرمل

الهوى حلّمني سهدَ الليالِ ونظامُ الشعر في هذي اللالِ

كلما هبتُ شمالٌ منهم لعبتُ بي عن يمينِ وشِمالِ

وأرقتُ فكرتي أوراها فأتتُ منهمُ بالسّحر الحلالِ

كان كالملح أجاجاً خاطري وسحابُ الحبِّ أبدته زلالِ

(١) انظر : المطمح : ص ١٩١ .

(٢) انظر : النفح : ج ٤ ، ص ٢٨٦-٢٨٧ .

(٣) انظر : البداهة : ص ١٩٦ .

(٤) الذخيرة : ق ١٤ ، ص ٢٢٧ .

(٥) هو أبو محمد بن عنق الفضة الفقيه السالمي . (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق ٢٤ ، ص ٩٠٢ ، والمغرب : ج ٢ ، ص ٤٦٢) .

فاهتز ابن خفاجة، وقال: من يكون هذا قوله لا ينبغي أن يجهل، ولك المعلقة في جهلك، فإنك لم تعرفنا بنفسك، فبالله من تكون؟ فقال: أنا فلان لغرفة، وقضى حقه^(١).

فهذا المجلس يدل على أن ابن خفاجة كان له مجلس يرتاده الشعراء فيكرمهم، وهناك مجالس كثيرة كان الشعراء يعقدونها فيما بينهم في حلهم وترحالهم^(٢).

٣- المجالس الشعرية المتخيلة:

لقد كان من شدة ولع الأندلسيين بالشعر أن راح بعضهم يعقد مجالس أدبية متخيلة يحكاها على السنة الإنسان والحيوان والنبات، ويشكل الشعر جزءاً هاماً منها، ويهدف من وراء ذلك إلى إيصال فكرة أو رأي معين ذي دلالات سياسية أو اجتماعية أو أدبية، كما فعل ابن برد الأصغر حين ناظر بين الورود والأزهار وجعل الحديث على لسانها^(٣)، وسنعرف ذلك في حينه عند حديثنا عن الطبيعة^(٤) وكما فعل ابن شهيد (ت ٤٢٦هـ) في رسالة "التوابع والزوابع"^(٥) التي يغلب عليها الطابع الأدبي، حيث قام ابن شهيد فيها برحلة خيالية والتقى فيها عدداً من توابع الشعراء القدماء، وأجرى معهم حوارات ومطارحات أدبية ومناظرات شعرية، وهي تحمل كثيراً من الدلالات الأدبية والسياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في عصره، وفي الرسالة تصوير دقيق لكل ذلك، ونقل بارع لكل ما أراد ابن شهيد أن يطلعنا عليه، وهو الواقع القرطبي في تبدله وتغيره^(٦).

(١) النفح: ج ٤، ص ٣٦٢-٣٦٣.

(٢) انظر: الذخيرة: ق ٢٣، ص ٦٤٨-٦٤٩، وديوان ابن خفاجة: أبو إسحاق بن خفاجة الأندلسي (ت ٤٥١-٣٣٠هـ)، تحقيق سيد غازي، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط ٢، ١٩٧٩م، ص ١٣٦.

(٣) انظر: البديع: ص ٦١-٦٢، ٦٩-٧٠.

(٤) انظر ص ١٥٥ من هذا البحث.

(٥) انظر: الذخيرة: ق ١١، ص ١٩١، وما بعدها.

(٦) انظر: النفح: ج ١، ص ٥٧٦، ورسالة "التوابع والزوابع"، ابن شهيد الأندلسي، دراسة في الرؤية الأدبية وفلسفة الإبداع، حسين خربوش، إربد، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٦.

والذي يهمنا من هذه الرسالة هو تلك المجالس الشعرية التي اشتملت عليها، وراح ابن شهيد يعقدها مع كبار الشعراء، وأراد أن يبرز - من خلالها - قدرته الأدبية، في محاكاة الشعراء القدماء وانتزاع شهادات الإعجاب منهم، وفي الرسالة إشارات إلى آراء ابن شهيد النقدية التي عززها بالنماذج التطبيقية، كما سنلاحظ من خلال المجلس التالي:

حيث يقول: «وحضرت أنا - أيضاً - وزهير مجلساً من مجالس الجن، فتذاكرنا ما تعاورته الشعراء من المعاني، ومن زاد فأحسن الأخذ، ومن قصر، فأنشد قول الأفوه بعض من حضر: الرمل

وترى الطير على آثارنا رأي عين ثقة أن ستمار

وأنشد آخر قول النابغة: الطويل

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصاب طير تهدي بعصب

جوانح قد أيقس أن قبيله إذا ما التقى الجيشان أول غالب

وأنشد آخر قول صريع الغواني: البسيط

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل

وأنشد آخر قول أبي تمام: الرمل

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى بعقان طير في الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

فقال شمر دل السحابي: كلهم قصر عن النابغة، لأنه زاد في المعنى، ودل على أن الطير إنما

أكلت أعداء المدوح، وكلامهم كلهم مشترك يحتمل أن يكون ضد ما نواه الشاعر، وإن كان أبو تمام زاد

في المعنى، وإنما المحسن المتخلص المتنبى حيث يقول: الطويل

له عسكرا خيل وطير إذا رمى بها عسكراً لم تبق إلا جماجمه

وكان بالحضرة فتى حسن البزة، فاحتد لقول الشمردل، فقال: الأمر على ما ذكرت يا شمردل، ولكن ما تسأل الطير إذا شبت أي القبيلين الغالب؟ وأما الطير الأخرى فلا أدري لأي معنى عافت الطير الجماجم دون عظام السوق والأذرع والفقارات والعصاعص؟ ولكن الذي خلاص هذا المعنى كله وزاد فيه، وأحسن التركيب، ودل بلفظة واحدة على ما دل عليه شعر النابغة وبيت المتنبي، من أن القتلى التي أكلتها الطير أعداء المدوح، فاتك بن الصقّب في قوله: الطويل

وتدري سباع الطير أن كماته إذا لقيت صيد الكُماة سباع

لهن ألعاب في الهواء وهزّة إذا جد بين الدارعين قراع

تطير جياعاً فروقه وتردها ظباه إلى الأوكار وهي شباع

تملك بالإحسان ربقة رقها فهن رقيق يشتري ويباع

والحم من أفراخها فهي طوعة لدى كل حرب والملوك تطاع

تُماصع جرحاها فيجهز نقرها عليهم وللطير العتاق مصاع

فاهتز المجلس لقوله: وعلموا صدقه، فقلت لزهير. من فاتك بن الصقّب؟ قال: يعني نفسه، قلت له: فهلا عرفتني شأنه منذ حين؟ إني لأرى نزعات كريمة، وقمت فجلست إليه جلسة المعظم له، فاستدار نحوي، مكرماً لمكاني^(١).

فنحن أمام مجلس أدبي ضم كوكبة من توابع الشعراء من عالم الجن، اجتمعوا في مجلس واحد وكل منهم تابع لأحد شعراء الإنس المشهورين، وكل قد تَقَمَّصه شخص من الجن، واختار ابن شهيد لتابعه اسماً ذا إيحاء، وهو فاتك بن الصقّب، للدلالة على القوة والمقدرة والخفة والسرعة، وابن شهيد حين راح يناظر ويطارح الشعراء القدماء كان

(١) الذخيرة: ق ١م، ص ٢٨٣-٢٨٦.

بذلك يؤسس لرأي نقدي إيماناً منه بأن «النماذج القديمة هي أساس فكرة المحاكاة والاحتذاء، وأن التجديد والإبداع يكمنان في طرائق الصياغة، إيماناً منه، بأن الشاعر يمكن أن يتناول هذه المعاني بطرائق مختلفة تلائم العصر وتحمل سماته الفنية»^(١).

(١) رسالة التواضع والزواجع: حسين خريوش، ص ٢٢.

ديوان الشعراء :

إن ارتباط الأدباء والشعراء بالخلفاء وذوي السلطان وغيرهم من ذوي الشأن أمر قديم في تاريخ أدبنا العربي، ولقاءات الشعراء- في محافل رسمية وعامة- لمطارحات الشعر، وقرضه والتنافس فيه، سواء أمام الملوك أو لجان محكمة، ذائعة مستفيضة في تاريخ أدبنا العربي، أيضاً، بيد أن الأمر في هذه الظاهرة الأدبية اتخذ في بعض أنشطته منحى إدارياً وأسلوباً منظماً، موجهاً لخدمة جهات بعينها، مثل الملوك والأمراء ثم ما دون ذلك من الوزراء والقواد، فقد أدرك الحكام لما لهؤلاء الشعراء من خطر، فتوجهت اهتماماتهم إليهم، منذ أمد بعيد.

أما في الأندلس فلا نكاد نصل إلى أواخر القرن الرابع الهجري حتى نلمس تلك العناية وذلك الاهتمام البالغ من قبل المنصور بن أبي عامر بطبقة الشعراء، وكيف أدخل على جهاز دولته ديواناً سُمي بـ«ديوان الشعراء»^(١)، وأراد بذلك الصنيع أن يوجد نوعاً من النهج المؤسسي في التعامل مع هذه الفئة الرفيعة في المجتمع^(٢).

فالشعراء الملتحقون بهذا الديوان لهم مخصصات مالية ضمن ميزانية الدولة^(٣)، ويتقاضون رواتب بحسب درجاتهم الأدبية^(٤)، ويخضعون لشروط قبولهم في هذه المؤسسة الأدبية، فتعقد لهم الامتحانات لذلك^(٥)، وقد كان بعض الأمراء يتشدد في شروطه، ويكفي لطرده الشاعر من ديوانه ثبوت سرقة لبيت من الشعر وادعائه

(١) انظر : الجذوة : ص ١١١.

(٢) انظر : في محراب المعرفة : ص ٥٠.

(٣) انظر : الجذوة : ص ١١١.

(٤) انظر : النفع : ج ١، ص ٢١٢.

(٥) لمزيد من التفصيل انظر : «مجالس المنصور بن أبي عامر وأثرها في الشعر بقرطبة»، حلمي إبراهيم عبدالفتاح الكيلاني، مجلة أدب الرفادين، جامعة الموصل، عدد ٢٣، ١٩٩٢م، ص ١٧٣-٢٠٣، ص ١٧٦.

لنفسه^(١)، ويتم كشف ذلك الشاعر المتحل من قبل نقدة متمرسين أوكلت إليهم هذه المهمة الإشرافية، ويدهم صلات الشعراء ورسومهم^(٢).

وإذا ما تجاوزنا عهد المنصور إلى عهد ملوك الطوائف فإننا نجد تلك التقاليد مرعية، وذلك الموروث متبعاً لدى بعضهم^(٣)، فقد كان لشعرائهم ديوان يرتزقون منه ولهم فيه قوائم بأسمائهم ومرتباتهم^(٤).

وكان يحصل في بعض الدواوين شيء من التكايد بين الشعراء، ومحاولة قصر هذه الدواوين عليهم دون سواهم، ونتيجة لذلك الأسلوب المآكر من قبل الشعراء، لجأ الشعراء الوافدون الجدد إلى التحايل وأسلوب الخداع معهم، ومن ذلك ما يروى عن ابن جاج^(٥) الشاعر من أنه ورد على حضرة المعتمد بن عباد، فدخل الدار المخصصة بالشعراء فسأله، فقال إني شاعر، فقالوا: أنشدنا من شعرك، فقال : الكامل

إني قصدت إليك يا عبادي قصد الصيق بالجري للوادي

فضحكوا منه وازدروه، فقال بعض عقلائهم : دعوه فإن هذا شاعر، وما يبعد أن يدخل مع الشعراء ويندرج في سلكهم، فلم يبالوا بكلام الرجل، وتنادروا على المذكور، فبقي معهم^(٦).

فلما كان يوم اجتماع الملك بهم، قدموه على أنفسهم، إمعاناً منهم في السخرية عليه، واعتقدوا أنه سيلقي شعراً أشبه بذلك المطلع بين يدي الملك، وسيتم طرده بعد

(١) انظر : الجذوة : ص ١١١ .

(٢) انظر : الذخيرة : ق ٤ م ١، ص ١٩، وتاريخ الفكر الأندلسي : ص ٦٥، و«مجالس المنصور بن أبي عامر» ، ص ١٧٤-١٧٥ .

(٣) انظر : عصر الطوائف والمرابطين : ص ٨٢ .

(٤) انظر : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف : ص ٧٧ .

(٥) ابن جاج البطليوسي الأمي، شاعر مشهور متجع، يقصد الملوك بالمدايح ويظيل . (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ٤٠٥) .

(٦) انظر : النفع : ج ٦، ص ٢٠ .

لكن الشاعر خيب آمالهم، وأحبط كيدهم، وصعد على الكرسي المخصص
للإنشاد، وقال :

قَطَّعْتَ يَا يَوْمَ النُّوَى أَكْبَادِي	وَحَرَمْتَ عَنْ عَيْنِي لَذِيذَ رِقَادِي
وَتَرَكْتَنِي أَرعى النجوم مسهداً	وَالنَّارُ تَضْرُمُ فِي صَمِيمِ فُؤَادِي
فَكَأَنَّمَا آلَ الظَّالِمِ أَلِيَّةٌ	لَا يَنْجِلِي إِلَّا إِلَى مِيعَادِ
وَلَرُبَّ خَرَقٍ قَدْ قَعَطْتَ نِيَّاطَهُ	وَاللَّيْلُ يَرْفُلُ فِي ثِيَابِ حَدَادِ
يُسْمِلُهُ خَرَفٌ كَانَ ذَمِيلَهَا	سَرَحُ الرِّيحِ وَكُلُّ بَرْقِ غَادِي
وَالنَّجْمُ يَحْدُوهَا وَقَدْ نَادَيْتُهَا	يَا نَاقَتِي عَوْجِي عَلَى عِبَادِ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُؤْمَلُ وَالسَّذِي	قَدُمَا سَمَا شَرْفًا عَلَى الْأُنْدَادِ
إِنَّ الْقَرِيضَ لَكَاسِدٌ فِي أَرْضِنَا	وَلَهُ هُنَا سَوْقٌ بِغَيْرِ كَسَادِ
فَجَلَبْتَ مِنْ شِعْرِي إِلَيْكَ قَوَافِيَا	يَفْنَى الزَّمَانُ وَذَكَرُهَا مَتَمَادِ
مَنْ شَاعَرَ لَمْ يَضْطَلِعْ أَدْبَاً وَلَا	خَطَأً يَدَاهُ صَحِيفَةً بِمَدَادِ

فقال الملك : أنت ابن جاح؟ فقال : نعم، فقال : اجلس، فقد وليتك رئاسة
الشعراء، وأحسن إليه، ولم يأذن في الكلام في ذلك اليوم لأحد بعده^(٢).

ويبدو أن المعتضد بن عباد كان يدير الجلسات في ديوان الشعراء بنفسه، فقد
تكررت حادثة أخرى للمعتضد مع ابن عمار، فحين أنشده قصيدته الرائية : الكامل

(١) انظر : المصدر السابق والمكان ذاته .

(٢) النفع : ج ٦، ص ٢٠-٢١ .

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

استحسنها منه، وأمر له ببال وثياب ومركب، وأمر أن يكتب في «ديوان

الشعر»^(١)

وقد كان رئيس الشعراء أو القيم عليهم مسؤولاً عن تنظيم الجلسات وصرف المستحقات المالية ومتابعتها، يقول أبو عباد بن القزاز مخاطباً المعتصم بن صمادح، وقد تأخرت عن الشعراء صلاتهم : الكامل

يا أيها الملك الذي حاز العلا معن أبوه وخاله المنصور

بفناء قصرك عصبة أديبة لا زال وهو بشملهم معمور

زفوا إليك بنات أفكار لهم واستبطوك فهم لهن قصور^(٢)

وتشير هذه الأبيات إلى أن الأمير كان لا يحضر الديوان حتى يلتئم جمع الشعراء، ويعلم بذلك، ليشرف مكان اجتماعهم.

إذن فنحن أمام ظاهرة حضارية اتسمت بالطابع الإداري المنظم، القائم على النهج المؤسسي في احتواء الشعراء وجعلهم جزءاً لا يتجزأ من الهيكل العام للدولة، حيث أصبح الشاعر يتمتع بما يتمتع به رجال الدولة من مرتبات وترقيات وحوافز مالية ومعنوية، بل إن بعضهم كان يجمع بين أكثر من ديوان، ويحظى بأكثر من مرتب، وإلى ذلك يشير ابن بسام عند ترجمته للشاعر الجوال الأسعد بن بليطة^(٣)، حيث يقول: «وكان بعيد الهمم، بليغاً بالسيف والقلم، تردد على ملوك الطوائف بالأندلس، فارس

(١) المعجب : ١٧٦ .

(٢) أزهار الرياض : ج ٢، ص ٢٥٥ .

(٣) هو الأسعد بن إبراهيم بن بليطة، من أهل قرطبة، شاعر نادر، تردد على ملوك الطوائف، وخاصة على المعتصم بن صمادح، كان حياً سنة ٤٤٠هـ، (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٩٠، والخريدة : ج ٢، ص ٧٩، والمطرب : ص ١٢٦، والمغرب : ج ٢، ص ١٧) .

جحفل، وشاعر مخفل، فجرى في الميدانين، وارتزق في الديوانين^(١).

إنَّ هذا النص يدل دلالة واضحة على أن الشاعر كان يرتزق من ديوان الشعراء وديوان الجند معاً.

وقبل أن يحظى الشعراء بلقاء الأمراء كانت هناك سلسلة من الإجراءات التي كان عليهم القيام بها أو الخضوع لها، فقد كان عليهم أن يقيموا في التزل التي أعدها الأمراء لايوائهم فيها ريثما يتفرغ الأمير لهم وينظر في شئونهم، وقد أوكلت هذه المهمة إلى شخص يسمى «صاحب الإنزال»، فقد أورد المقرئ في نفحة أن ابن عبدون قدم قصر أمير بطليوس المتوكل بن الألفطس، فعين له صاحب إنزال الدور داراً واهية البناء، وسقفها قديم، فهطل عليه المطر منه^(٢)، فلم يتوان ابن عبدون في أن يحمل شكواه إلى الأمير مباشرة^(٣)، في أبيات من الشعر، وهي تشطير لامية امرئ القيس: الطويل

أيا سامياً من جانيه إلى العُلا	«سَمُو حَبَابِ الْمَاءِ خَالاً عَلَى خَالٍ»
لعبدك دار حل فيها كأنها	«ديار لسلمي عافياتٌ بذِي الخَالِ»
يقول لها لما رأى من دثورها	«ألَاعِمُ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي»
فقلت ولم تعباً برد جوابه	«وَهَلْ يَعْمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي»
فمر صاحب الإنزال فيها بفاضل	«فَمَنْ الْفَتَى يَهْذِي وَلَيْسَ بِفَوَالٍ» ^(٤)

وقد كانت عادة إيواء الوافدين من الشعراء على الأمراء تقليداً متبعاً في الأندلس منذ العهد الأموي لكنها أصبحت في عهد ملوك الطوائف تتمتع بقوة القانون^(٥).

(١) الذخيرة : ق ١ م ٢، ص ٧٩١.

(٢) انظر: النفح : ج ٤، ص ٢٦١.

(٣) انظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف : ص ٧٢.

(٤) القلائد : م ١، ص ٤٢٣، والمطرب : ص ١٨٢، والنفح : ج ٤، ص ٢٦١.

(٥) انظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف : ص ٧١-٧٢.

ولم يكن هذا التقليد في إمارة دون إمارة بل شمل أكثر الإمارات، فقد أورد ابن خاقان في ترجمته للشاعر الفقيه أبي بكر بن أبي الدوس (ت ٥١١هـ) أن بغض الناس «دخل عليه بالمرية فرآه في غاية الإملاق، وهو في ثياب أخلاق، وقد تواري في منزله تواري المذنب، وقعد عن الناس قعود مجتنب، فلما علم ما هو فيه، وترفعه عمن يجتديه، عاتبه في ذلك الاعتزال، وآخذه حتى استترله بفيض الاستتزال، وقال له : هلا كتبت إلي المعتصم فما في ذلك ما يصم، فكتب إليه : الكامل

إليك أبا يحيى مددت يد المنى وقدماً غدت عن جود غيرك تُقبضُ

وكانت كنور العين يلمع في الدجى فلما دعاه الصبح لباه ينهض^(١)

وقد يطول انتظار الشاعر لا يلتفت إليه ولا يعاب به^(٢)، ثم يأتيه الفرج بعد ذلك^(٣)، وقد يكون ذلك الإهمال اختباراً للشاعر أو يكون غير مقصود من قبل الأُمير^(٤)، لكن السنة الشعراء لا تراحم^(٥)، ومن هنا ترى الشاعر أبا الحسن جعفر بن إبراهيم اللورقي^(٦) لم يستطع السكوت وقد تعرض لهذا الموقف في ظل المعتمد بن عباد أكثر الملوك رعاية للأدب وجوداً مع الشعراء، فقال : الطويل

تعز عن الدنيا ومعروف أهلها إذا عدم المعروف في آل عباد

أقمت بهم ضيفاً ثلاثة أشهر بنير قرى ثم انصرف بلا زاد^(٧)

(١) المطمح : ص ٣٠١-٣٠٢، والنفع : ج ٥، ص ١٧٨.

(٢) انظر : المصدر نفسه : ج ٥، ص ١٥٣-١٥٤.

(٣) انظر : المصدر نفسه : ج ٤، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٤) انظر : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف : ص ٧٣.

(٥) انظر : النفع : ج ٦، ص ٤.

(٦) أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي من مدينة لُرقة، تنقل بين أمراء الطوائف، عاش بعد الخمسمائة طويلاً، وعمر كثيراً، (انظر ترجمته في : الخريدة : ج ٢، ص ١٣٩، والمغرب : ج ٢، ص ٢٧٧).

(٧) المطرب : ص ١٧٧، والنفع : ج ٦، ص ٤.

فندموا على تفریطهم فيه، وإهمالهم إياه، فقد « ألبسهم من العار ما عراهم من حلل الأيادي السابقة من نوالهم »^(١).

وقد كان الشعراء يرون في ذلك الراتب أو في تلك العطايا التي يحصلون عليها من قبل الأمراء حقاً مشروعاً، لقاء خدماتهم؛ لذلك نراهم يشعرون في وجوه الأمراء حين يحسون بالضميم، مسوغين لأنفسهم ذلك العطاء، فها هو ذا عبد الجليل بن وهبون يرفع عقيرته صارخاً في وجه المعتمد، وقد توقف راتبه عند العامل: البسيط

ألستم معشر الأملاك طائفة	تقضي بتخليدها هذي الأناشيد
فإن نقصتم أناساً من نوالكم	فحق منكم لأهل الشعر تزيد
لكم خلقنا ولم نُخلق لأنفسنا	فإنما نحن تمهيد وتمجيد
يا صاحب المجد إن المجد سائمة	تضل إن لم يكن بالشعر تقسيد
خذني بما شئت من غراء شاردة	يصغي الأصم إليها وهو مفؤود
واعذر بتقصيره من لا يزال له	في ساق الرزق إرقال وتوخيد
لا يدرك القوت مما أنت واهبه	حتى يطول من العمال تنكيد
وليس للشعر إلا خاطر يقظ	يهزه منك ترفيه وتأيد
وما المدائح إلا بالملوك وهل	ييدي سنا العقد إلا النحر والجيد ^(٢)

ففي الأبيات السابقة إشارة إلى عدة أشياء، أولاها: ثقة الشاعر بما يقدمه للأمراء من روائع يروحون يدلون بها على من سواهم أمد الدهر، وثانيها: استياء الشاعر من جراء انقطاع راتبه، وثالثها: التأكيد على وجود ذلك القيم المسؤول عن أرزاق الشعراء، ورابعها: استقلال الشاعر لما يوهب له، وأنه لا يكفي لمواجهة

(١) المصدر السابق: ص ١٧٧.

(٢) الذخيرة: ق ٢، ص ٥٠٢-٥٠٣.

ولم تكن تلك المخصصات التي كانت تعطى للشعراء بشكل منتظم هي كل شيء، فقد كانوا يحصلون على مكافآت وهبات وجوائز عقب كل قصيدة أعجب بها الأمير أو مناسبة معينة، كالأعياد وعودة الأمير منتصراً في معركة، أو استقبال سفارة أجنبية، أو حفل إعدار، أو غيرها من المناسبات الاجتماعية الأخرى^(١)، التي سنذكرها في حينها من هذه الدراسة.

وقد كان لإنشاء هذه الدواوين التي كان الشعراء يحرضون على الانضمام إليها «أثر بالغ الأهمية من الناحيتين الفنية والعملية: أما من الناحية الفنية: فكان يضطر الشعراء إلى التجويد وإطالة النظر ويثير بينهم المنافسة، وأما من الناحية العملية: فقد كفل للشعراء المقيدين فيه رزقاً مستديماً، وذلك خير من ترقب الفرص والتعرض للخيبة والحرمان»^(٢).

(١) انظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ص ٧٨.

(٢) «النقد الأدبي في الأندلس»: إحسان عباس، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة ١٢، ج ٤، ١٩٥٩م، ص ٥٠٩-٥٢٨، ص ٥١٣.

تقاليد عقد المجالس الشعرية والمشاركة فيها:

إن المتبع للمجالس الشعرية في عصر ملوك الطوائف يجد نفسه أمام ظاهرة أدبية وثقافية تحفل بعدة نشاطات وصور وتقاليد متبعة ومرعية، تكاد يكون لها قوة التقاليد والأعراف، والدارس يستطيع الوقوف على ذلك من خلال ما توافر من شواهد ونماذج جادت بها كتب الأدب والتاريخ الأندلسية.

ويمكن أن نستهل الحديث عن هذه التقاليد بنص أورده ابن خاقان في ترجمته للمعتصم بن صمادح فيه بعض الإشارات إلى وصف مجالسه وشدة اعتناؤه بها، حيث يقول: «ملك أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع في انتظام مجالسها واتساقها، وأوضح رسالتها، وأثبت في جبين أوانه وسمها، ولم تخل أيامه من مناظرة، ولا عُمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة...»^(١).

فالتريجة تحمل في ثناياها شيئاً من تقاليد مجالس المعتصم في شكلها الرسمي، كما تتحدث عن عدد من النشاطات الفكرية والعلمية والأدبية التي شهدتها هذه المجالس، فهو مقيم لسوق المعارف، ومجالسها لديه منتظمة، ومراسمها بيّنة واضحة، ذات صفات وخصائص متميزة، وأيامه حافلة بالمذاكرة والمناظرة والمحاضرة.

فانتظام المجالس وفق رسوم معينة جزء من تقاليد المجالس الشعرية، فقد كان للمعتصم يوم من كل أسبوع يخصصه للاجتماع بأهل الرأي والعلم والأدب هو يوم الجمعة^(٢)، وكذلك كان للمعتضد بن عباد مجلس للأدباء ينعقد في يوم الإثنين من كل أسبوع، وله تقاليده المرعية والمتبعة^(٣)، وكذلك كان لغيرهما من الملوك الآخرين^(٤)، ومن تلك التقاليد:

(١) القلائد: م ١، ص ١٤٦.

(٢) انظر: الحلة السبراء: ج ٢، ص ٨٢.

(٣) انظر: النسخ: ج ٦، ص ٢٠-٢١.

(٤) انظر: الإحاطة: ج ٢، ص ١٢٢.

دخول الشعراء على الأمير :

لغله من المنيد الإشارة إلى أنه كان لكل أمير حاجب، وهو : «موظف كبير يشبه كبير الأمناء في أيامنا، وكان يشغل منصباً سياسياً في القصر ، ومهنته إدخال الناس على (الأمير)، مراعيًا في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم»^(١).

وكان يلقب بهذا اللقب بعض الوزراء لدى ملوك الطوائف، فقد ورد على لسان الشاعر الجزار السرقطي^(٢) ذكر الحجابة التي كان يتقلدها الوزير أبو الفضل بن حسداي، مفضلاً مهنة القصابة عليها، حين شجرت خصومة بينه وبين الوزير المذكور، حيث يذكر أن هذا الشاعر كان في بلاط سليمان بن هود صاحب سرقطة، لكنه لم يطب له العيش فيه، فقرر ترك البلاط والعودة إلى مهنته، فوبخه الوزير أبو الفضل على هذا الصنيع بقوله: **الوافر** »

تركت الشعر من ضعف الإصابة وعدت إلى الدناءة والقصابة

فأجابه يخبي الجزار بقوله :

تعيبُ عليّ مألوفَ القصابة ومن لم يدر قدرَ الشيء عابه

ولو أحكمتَ منها بعضَ فن لما استبدلتَ منها بالحجابة^(٣)

ويفهم من وصف المقرئ لهذا الوزير بأنه «كان مدير تلك الآراء ومدبرها، ومنشئ مخاطباتها ومحبرها»^(٤) ، فقد كان يقوم بتحرير رقع الدعوة، ويوجهها إلى أعيان

(١) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: حسن إبراهيم حسن، دار الأندلس، بيروت، (د.ت) ج ٢، ص ٢٦٤، وتاريخ التمدن الإسلامي: ج ٥، ص ١٣٤.

(٢) هو أبو بكر الجزار السرقطي: كان له دكان يبيع فيه اللحم، فتعلقت نفسه بقول الشعر فبرع فيه، وله أشعار مدح بها ملوك بني هود ووزراءهم ثم ترك الأدب والشعر واعتكف على القصابة. (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ١٣، ص ٩٠٥، والمغرب: ج ٢، ص ٤٤٤-٤٤٥، وجيش التوشيح: ص ١٤٧، والنفع: ج ٣، ص ٦٠٩).

(٣) الذخيرة: ق ٢٣، ص ٩٠٥، والنفع: ج ٥، ص ٢٩١.

(٤) المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٧٣.

الأندلس من الأبطال والشجعان والكتاب والفضلاء والحجاب والأمراء^(١).

ويظهر أن الحاجب كان يقوم بدور مدير مكتب الأمير، حيث يمر به الناس قبل وصولهم إلى الأمير، فيطلب لهم الإذن بالدخول عليه، فقد ذكر المقرئ أن المعتمد بن عباد «أمر أبا بكر بن القبطرنة مع الوزير أبي الحسن بن سراج ببقاء ذي الوزارتين أبي الحسن بن اليسع القائد، المشي إليه والنزول عليه، تنوياً بمقدمه، وتنبيهاً على خطوته لديه وتقدمه، فصاروا إلى بابه، فوجداه مقفراً من حجاب»^(٢).

وكان الشعراء إذا قدموا على الأمير يرسلون عبر حاجبة طلبات دخولهم عليه، يقول يحيى بن مطروح، حين قدم على ربيع الدولة أبي زكريا يحيى بن المعتصم: الرمل

ها أنا بالباب أبغي إذنكم والظما قد مدَّ للكأس يدي^(٣)

وكان هذا اللقب في الدولة الأموية والعباسية مخصوصاً بمن يحجب السلطان عن العامة، ويغلق بابه دونهم، أو يفتح لهم على قدره في مواقيته^(٤).

فقد روي أن العباسيين كانوا يحتجبون عن ندمائهم خوفاً من انكشاف بعض تصرفاتهم مما قد يتسبب في استخفاف الندماء لهم، فإذا سرهم أو أعجبهم شيء مما يشدُّ أمروا الحاجب أن يرفع الحجاب عنهم^(٥)، واقتفاهم في هذا التقليد بنو حمود في الأندلس حين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة المرورية فقد «كانوا إذا حضرهم منشد ملوح، أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم تكلم من وراء حجاب، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة، ولما حضر ابن مقان الأشبوني أمام حاجب

(١) انظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ص ٢٦٤.

(٢) النفع: ج ٢، ص ١٧١-١٧٢.

(٣) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٣٣١.

(٤) مقدمة ابن خلدون: دار الرائد العربي، بيروت، ط ٥، ١٩٨٢م، ص ٢٤٠.

(٥) انظر: التاج في أخبار الملوك: ٧٨ وما بعدها، وذيل الأمالي والنوادر للقيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٤١.

إدريس بن يحيى الحمودي الذي خُطب له بالخلافة في مالقة، وأنشد قصيدته المشهورة
النونية التي منها قوله: الرمل

وكان الشمس لما أشرقَتْ فانشت عنها عيون الناظرين^١

وجه إدريس بن يحيى بن علي ابن حمود أمير المؤمنين^٢

وبلغ فيها إلى قوله:

انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين^٣

رفع الخليفة الستر بنفسه، وقال: انظر كيف شئت، وانبسط مع الشاعر وأحسن
إليه»^(١).

ويظهر أن تلك العادة اختفت عند معظم ملوك الطوائف في الأندلس إلا لأغراض
سياسية أو إدارية، فقد «صاروا ينبسطون للخاصة وكثير من العامة، ويظهرون بدانة
الجند وعوام البلاد، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والأدباء، ويجب أن يشهر عنه ذلك
عند مباديه في الرياسة»^(٢).

والحجابه بمعناها السياسي كان لها مكان مرموق لدى خلفاء بني أمية في الأندلس؛
ولأنها كانت كذلك راح من بعدهم ملوك الطوائف يخلعون هذا اللقب على أنفسهم،
فقد كان يرى الملك منهم «أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به، وهي موجودة
في أمداح شعرائهم وتواريخهم»^(٣).

(١) انظر: الذخيرة: ق ٢٣، ص ٩٠٥-٩٠٦. والنفح: ج ١، ص ٢٠٦، ٤١٤-٤١٦.

(٢) المصدر نفسه: ج ١، ص ٢٠٦.

(٣) المصدر نفسه: ج ١، ص ٢٠٨.

الدعوات إلى المجالس الشعرية:

ومن تقاليد المجالس الشعرية تلك الدعوات التي كان الأمير يتبادلها مع الشعراء، ويتبادلها الشعراء مع أنفسهم لحضور المجلس الشعري.

ومن ذلك أن مجموعة من الوزراء والكتاب كانوا مجتمعين في الزهراء، فينماهم كذلك «إذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة فيها: الخفيف».

حَسَدَ القَصْرُ فيكم الزهراءَ ولعمري وعمرُكم ما أساء

قد طلعتُم بها شمساً صباحاً فاطلعوا عندنا بدوراً مساءً^(١)

وغالباً ما تصاغ تلك الدعوات الشعرية بأسلوب ظريف فيه ثناء على المدعو وفيه إثارة وتشويق للترغيب بالحضور، وفتح للشهية بما يتخلل ذلك المجلس من مغريات، تحمل المدعو على الحضور للاستمتاع بما يدور داخل المجلس من لذائذ ومتع كالخمرة والغناء ومقارضة الشعر، فضلاً عن الجوائز السنية التي يعود بها الشعراء^(٢).

ومن الأمثلة على ذلك ما يروى عن المعتمد بن عباد من أنه بعث بطاقة دعوة إلى الطبيب الأديب أبي محمد المصري، قال فيها: الخفيف

أيها الصاحبُ الذي فارقتُ عيـ ني ونفسي منه السنا والسناء

نحن في المجلس الذي يهبُ الرا حة والمسمعُ الغنى والغناء

نتعاطى التي تُنسي من الرُقـ قة واللذة الهوى والهواء

فاته تُلِف راحةٌ ومحـ قد أعدا لك الحيا والحياة

فوفاه وألقى مجلسه وقد أتلعت فيه الأباريق أجيادها، وأقامت فيه خيل السرور

(١) ديوان المعتمد بن عباد: تحقيق أحمد أحمد بدوي، وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥١م، ص ٤٩، والفلائد: م ١، ص ٦٦.

(٢) انظر: المختار من شعر شعراء الأندلس / ابن الصيرفي: علي بن منجب بن سليمان أبو القاسم (ت ٥٤٣هـ)، تحقيق عبدالرزاق حسين، دار البشير، عمان، ط ١، ١٩٨٥م، ص ٤٤.

طرادها، وأظهر المعتمد من إيناسه ما استرق به نفوس جلاسه، ثم دعا بكبير، فشربه

كما غربت الشمس في ثبير، وعندما تناولها، قام المصري ينشد أبياتاً تمثلها: البسيط

اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً بشاذ مهراً ودع غمدان لليمن

فانت أولى بتاج الملك تلبسه من هوذة ابن علي وابن ذي يزن^(١)

وقد أوردنا الحكاية كاملة للتدليل على مضمون الدعوة وأسلوبها وما تحمله في ثناياها، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

ومن الدعوات التي كان يبعث بها الأمراء إلى الوزراء والشعراء، وفيها من الثناء على المدعو، ما بعث

به المتوكل بن الأظفر إلى الوزير أبي طالب بن غانم أحد ندمائه: مخلع البسيط

أقبل أبا طالب إلينا وقع وقوع الندى علينا

فنحن عقدٌ بغير وسطي ما لم تكن حاضراً لدينا^(٢)

وقد تتجاوز الدعوة الثناء والإطراء على المدعو من قبل الأمراء إلى درجة التواضع

الذي يظهر الأمير مستعظفاً ودَّ المدعو ومستجدياً حبه، ومن ذلك ما نجده في دعوة ابن

رزين حسام الدولة، التي بعث بها إلى ابن عمار حيث يلتمس فيه حضور مجالسه

ويتودد إليه بقوله: الطويل

ضماناً على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت في ودي مسراً ومعلنأ

فلو تسأل الأيام من هو مفرد بوُد ابن عمار؟ لقلت لها: أنا

فإن حالت الأيام بيني وبينه فكيف يطيب العيش أو يحصل المنى^(٣)

وكان الشعراء يتبادلون فيما بينهم رقاع الدعوة لحضور المجالس الشعرية ومن

(١) الديوان: ص ٤٩، والنفع: ج ٦، ص ٥٧.

(٢) النفع: ج ٢، ص ١٩٨.

(٣) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٦٩٦.

ذلك، ما بعث به أبو علي الحسن بن الغليظ^(١)، إلى صاحبه أبي عبدالله بن السراج^(٢)،
وقد قدم من سفر، يقول فيها : البسيط

يا من أقلب طرفي في نحاسه فلا أرى مثله في الناس إنسانا

لو كنت تعلم ما لقيت بعدك ما شربت كأساً ولا استحسنت ريحانا^(٣)

وقد يشترك عدد من الشعراء في صياغة رقعة واحدة، ويضعون توقعاتهم تحتها،
والمصادر التي بين أيدينا لا تسعفنا بنموذج في العصر الطائفي، وقد رأينا نماذج لذلك في
القرن الرابع^(٤)، وفي القرن السادس، فقد «اجتمع بغرناطة محمد بن غالب الرصافي
الشاعر المشهور ومحمد بن عبدالرحمن الكتندي^(٥) الشاعر وغيرهما من الفضلاء
والرؤساء، وأخذوا يوماً في أن يخرجوا لنجد أو لحوز مؤمل، وهما متزهان من أشرف
وأظرف متزهات غرناطة، ليتفرجوا ويصقلوا الخواطر بالتطلع في ظاهر البلد، وكان
الرصافي قد أظهر الزهد وترك الخلاعة، فقالوا ما لنا غنى عن أبي جعفر بن سعيد،
اكتبوا له، فصنعوا هذا الشعر وكتبوا له، وجعلوا تحته أسماءهم : الطويل

بعثنا إلى ربّ السماحة والمجد ومن ماله في ملة الظرف من ند

ليُسعِدنا عند الصبيحة في غد لنسعى إلى الحور المؤمل أو نجد^(٦)

(١) من شعراء مالقة صاحب أبي عبيدالله بن السراج وأحد ندمائه، جرت بينهما مراسلات
ومخاطبات، (انظر ترجمته في : الذخيرة: ق ٢م ٢، ص ٨٧١، والمغرب: ج ١، ص ٤٣٥،
والنفح: ج ٤، ص ٣٥٧) .

(٢) من شعراء بني حمود في مالقة، (انظر ترجمته في : الجدوة: ص ٦١، والذخيرة: ق ٢م ٢،
ص ٨٧٠-٨٨٢، والمغرب: ج ١، ص ٤٣٤) .

(٣) المغرب: ج ١، ص ٤٣٦، والنفح: ج ٤، ص ٣٥٧.

(٤) انظر: الذخيرة: ق ١م ٢، ص ٨٧٦.

(٥) من نبهاء شعراء عصره، سكن غرناطة، وتوفي سنة ٥٧٣ هـ (انظر ترجمته في : زاد المسافر:
ص ٥٣، ورايات المبرزين، ص ٥٩، والمغرب: ج ٢، ص ٢٦٤) .

(٦) النفح: ج ٥، ص ٦٠-٦١ .

وفي مقابل تلك الدعوات، التي كما لاحظنا كانت تصاغ شعراً، كانت هناك ردود وأجوبة عليها، وكان بعض تلك الردود يقيد بضوابط التزامها أصحابها، بل ألزموا أنفسهم بها لإظهار مقدرتهم وبراعتهم في هذا الميدان.

فقد كتب المعتمد إلى ابن عمار يستدعيه، فقال: مخلع البسيط

قد زارنا النرجسُ الذكيُّ	وإن من يومنا العشيُّ
ونحن في مجلس أنيقٍ	وقد ظمنا وثمَّ ريُّ
ولي نديمٌ غدا سميي	يا ليته ساعد السمي ^(١)

فأجابه ابن عمار بقوله:

ليكَ ليكَ من منادٍ	له الندى الرَّحْبُ والندىُّ
ها أنا في البابِ عبدُ قنٍّ	فبَلَّتْهُ وجهُكَ السنيُّ
شرفُهُ والداه باسم	شرفته أنتَ والنبيُّ ^(٢)

فيلاحظ أن الدعوة صيغت من مخلع البسيط، وقافيتها الياء، وعدد أبياتها ثلاثة، وكذلك كان الرد عليها.

وعلى المدعو أن يحضر إلى المجلس مصطحباً معه الرد فور وصول الدعوة إليه، فحين بعث أبو علي الحسن بن الغليظ إلى صديقه أبي عبدالله بن السراج بدعوة « ورَدَّ عليه من حينه وقال: أردت مجاوبتك فخفت أن أبطيء وصنعت الجواب في الطريق: البسيط

يا من إذا ما سقتني الراحَ راحته	أهدت إليَّ بها رَوْحاً وريحاناً
من لم يكن في صباح السبت يأخذها	فليس عندي بحكم الظرف إنساناً
فكن على حُسنِ هذا اليوم مُصطحباً	مذاكراً حَسَناً فيه وإحساناً

(١) ديوان المعتمد بن عباد: ص ٦٤، والذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٤٦.

(٢) المطرب: ص ١٦-١٧، والنفح: ج ٦، ٨٦.

وفي البساتين إن ضاقَ المحلُّ بنا
مندوحةٌ لاَ عِدْمَا الدهرَ بستاناً»^(١)

وكان بعض الشعراء يجدون صعوبة في مضمار الردود السريعة، ويتخرجون من الحضور إلى المجلس غير مصطحبين معهم الرد على الدعوة، ويترثون حتى تسعفهم قرائحهم بما يرضي ذوقهم الفني ومزلتهم الأدبية، فحين كتب ابن رزین دعوة إلى ابن عمار، ووصلت الرقعة إليه «تأخر عن الوصول واعتذر بعذر مختل المعاني والفصول»، فقال أحد الحاضرين: إني لأعجب من قعود ابن عمار عن هذا المضمار، مع ميله إلى السماع، وكلفه بمثل هذا الاجتماع، فقال ذو الرياستين: إن الجواب تعذر، فلذا اعتذر لأنه يغاني قوله ويعلّله، ويرويه ولا يرتجله، ويقول في المدة، والساعات الممتدة، فرأى أن الوصول بلا جواب إجحال لأذبه، وإخلال لمنازله في الشعر وربّه، فلما كان من الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب وهو: الكامل

هَضَبَتْ لِي الْأَمَالَ طَيِّبَةَ الْجَنَنِ
وَسَوَّغَتْني الْأَحْوَالَ مَقْبَلَةَ الدُّنَى

وَأَلْبَسْتَنِي النِّعْمَا أَغْضًى مِنَ النَّدَى
وَأَجْمَلَ مِنْ وَشْيِ الرَّبِيعِ وَأَحْسَنَا

وَكَمْ لَيْلَةٌ أَحْظَيْتَنِي بِحُضُورِهَا
فَبِتْ سَمِيراً لِلْسَّيِّئِ وَلِلْسَّنَا

أَعْلَلْ نَفْسِي بِالْمَكْرَامِ وَالْعُلَا
وَأُذْنِي وَكَفِّي بِالْغِنَاءِ وَبِالْغِنَى»^(٢)

وإذا أعاقهم عائق وحجزهم مانع عن الحضور اعتذروا عن ذلك شعراً^(٣)، وبعثوا به إلى الداعي، فقد احتجب المعتمد يوماً عن ندمائه مع أم الربيع، فكتب إليه ابن عمار: الطويل

تَجْهَمُ وَجْهَ الْأَفْقِ وَاعْتَلَّتْ النَّفْسُ
لَأَنْ لَمْ تَكُنْ لِلْعَيْنِ أَنْتَ وَلَا شَمْسُ

فَإِنْ كَانَ هَذَا مِنْكُمْ مِنْ تَوَافَقٍ
وَضَمَكُكُمْ أَنْسٌ فَيَهْنِكُكُمْ الْأَنْسُ»^(٤)

(١) النفح: ج ٤، ص ٣٥٧.

(٢) انظر: المطرب: ص ٣٩، والنفح: ج ٢، ص ١٩٦-١٩٧، ويبدو أن ابن عمار كان يستهجن الشعر غير المروى.

(٣) انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٧١، ق ١ م ٢، ص ٤٧.

(٤) النفح: ج ٦، ص ٨٦-٨٧.

خليلي قولا هل علي ملامة إذا لم أغب إلا لتحضرني الشمس

وأهدي بأكواس المدام كواكباً إذا أبصرتها العين هشت لها النفس

سلام سلام أنتم الأنس كسله وإن غبتما أم الربيع هي الأنس^(١)

ويمكن أن نستنتج من هذه الدعوات والردود عليها-إجمالاً-شيئين:

١- أن هذه المجالس، التي كان الشعراء يغشونها ويدعو بعضهم بعضاً إليها، سواء كانوا أمراء أو من عامة الناس، ذات بعد نفسي وآخر اجتماعي، ففيها تعميق لأواصر المودة بين الندماء، وترويح عن نفوس ليس أمامها من سبيل إلى إشباع رغباتها ونزواتها وقتل فرغها وإزجائه سوى تلك اللقاءات، التي تضيء على أصحابها جواً من السعادة الملهمة والسود، وفي تلك اللقاءات تزول الكلفة وتتلاشى الفوارق الاجتماعية ويحدث اندماج وانصهار للنفوس؛ فتنتقل على سجيتها محلقة هائمة في أجواء رحبة من المتع واللذائذ المتاحة.

٢- أن الشعراء جعلوا من هذا الميدان وسيلة لاستعراض قدراتهم الذهنية وملكاتهم الفنية و مواهبهم الإبداعية.

وهناك أمور أخرى يمكن أن نعدّها من تقاليد المجالس الأدبية منها ما هو أدبي ومنها ما هو اجتماعي:

فالأدبي: يكمن فيما يجب أن يكون عليه رواد المجالس من صفات أدبية، تؤهلهم للدخول إليها والانضمام إلى أعضائها، لذلك رأينا الشعراء يخضعون لامتحانات يتقرر على ضوءها مناسبتهم وكفايتهم من عدمها للمشاركة في نوادي الشعر والأدب، التي كانت بمثابة لجان حكم واختبار، وكل أعضاء النادي هم الفاحصون النقدة الذين

(١) المصدر السابق والمكان ذاته.

يتصيدون الأخطاء لكل وافد جديد^(١)، فحرص الشعراء على تجهيد شعرهم وتهذيبه، ليكون إنتاجهم رفيعاً^(٢).

وربما كان تحديد الموضوعات التي يُطلب من الشعراء القول فيها داخل المجلس جزءاً من ذلك الاختبار؛ لروز كفاية الشعراء وتحديد مستواهم، ومن ذلك تلك الحكاية التي أوردها ابن بسام عن المتوكل بن الأفلح أنه جمع حوله الشعراء، وكان له فرس أدهم أغر محجل على كفله ست نقط بيض، فحثهم على وصفه، وقد حاز أبو الوليد النحلي قصب السبق في ذلك الوصف^(٣).

وكان تكليف الأمير للشاعر بمعارضة شعر ينشد أو يتمثل داخل المجلس تقليداً متبعاً درج عليه أصحاب المجالس وروادها^(٤).

أما الجانب الاجتماعي فيكمن في الالتزام بأداب المجلس والتخلي بهيئة جميلة ولباس مناسب^(٥)، فحينما وفد الشاعر النحلي على المعتصم بن صمادح في المرية هاله أن يكون عليه « أسمال لا تقتضيها الآداب، ولا يرتضيها إلا الانتحاب والانتداب، والناس قد لبسوا البياض، وتصرفوا من حضرته في مثل قطع الرياض^(٦)، ولم يجد الشاعر بداً من أن يكتب إلى الأمير شاكياً إليه حاله مزدرياً بسوء مظهره الأسود، وقد لبس الناس البياض فبدوا من روعته كالحمام: الكامل

أيا من لا يضاف إليه ثمان ومن ورث العُلا باباً فباباً
أيجمل أن تكون سواد عيني وأبصر دون ما أبغي حجاباً
ويمشي الناس كلهم حمّاماً وأمشي بينهم وخدي غراباً^(٧)

(١) الأدب العربي في جزر البليار: عبدالرزاق حسين، دار الجيل، عمان، ط ١، ٩٩٤م، ص ٣٧.

(٢) انظر: الشعر الأندلسي: ص ٤٥.

(٣) انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٤٦٥-٤٦٦، والنقح: ج ٤، ص ٢٩٨.

(٤) نظر: المصدر نفسه: ج ٤، ص ٢٤٩.

(٥) انظر: المصدر نفسه: ج ١، ص ١٨٩.

(٦) القلائد: م ١، ص ١٤٩.

(٧) المطرب: ص ٣٧.

وحين وفد أبو الفضل جعفر بن شرف من قرية بُرجَة على المعتصم بن صمّاح في
المرية وقد بدا بزّي عليه آثار البداوة والهيئة الرثة، وهو أمر يتناقض بشدة مع ما كانت
تنزيا به حاشية الأمير من ملابس جميلة، استنكر ذلك عليه أحد الحاضرين في المجلس،
وشنع عليه^(١).

-ومما يضاف إلى آداب المجالس إكرام المجلس والاحتفاء به والتأدب معه وعدم
الإساءة إليه^(٢)، ومما يضاف إلى ذلك -أيضاً- أن المجالس كانت تذكى بالروائح الجميلة،
وتنشر بين يدي روادها الورود والزهور وروائح البخور^(٣).

(١) انظر: النفح: ج ٤، ص ٣٥٣-٣٥٤، والشعر الأنثى: ج ١، ص ١٨٦.

(٢) انظر: المعجب: ص ١١٤، والنفح: ج ٤، ص ٢٩٩، ودول الطوائف: ٢٩٦.

(٣) انظر: الإحاطة، ج ١، ص ٤٣٣، والنفح: ج ١، ص ١٨٦.

دور المجالس الشعرية في تحفيز قرائح الشعراء وتجويدها:

تعدُّ المجالس الشعرية حلبة لفرسان الكلام، ومضماراً لأرباب البلاغة والبيان، ومحكاً حقيقياً للشاعر المتقدم والشاعر المتخلف، ومن ثم كان لا بد لأصحاب هذه المجالس وروادها، وللآخرين خاصة، من إعداد أنفسهم إعداداً جيداً، وهم في طريقهم إلى تلك المجالس.

ولا شك في أن ذلك الإعداد يتم عن طريق تنمية مدارك الشعراء وشحذ مواهبهم وصقل إنتاجهم، واكتساب خبرات الآخرين وتجاربهم، من محترفي هذا الفن، والعمل على هضمها ومزجها بعناصر تجاربهم الشخصية وخبراتهم الذاتية ومكتسباتهم الفطرية، والإكثار من التدريب والتمرن والتمرس على أساليب فحول هذه الحلبات وفرسان هذا الميدان، والانكباب على أشعارهم تنقيحاً وتنقيفاً وتجويداً.

لذلك رأينا كثيراً من الشعراء في الأندلس -وافذين ومواطنين أصليين- يمتحون من تجارب شعراء مشاركة، لهم باع طويل وقدم راسخة في مجال الشعر والأدب، لتكون لهم رافداً وعوناً، وهم يخوضون تلك المعارك الأدبية والمحافل الفكرية.

فهذا ابن شرف يعرض على المأمون بن ذي النون أن يشير عليه إلى أي قصيدة شاء من شعر المتنبي ليعارضها^(١)، ليدلل على قدرته على معارضة عظماء الشعراء المشاركة ومحاولة التفوق عليهم، ويمكن أن نأخذ مثلاً آخر لشاعر أندلسي كبير هو ابن زيدون، فشعره مليء بما كان يحاكي به الشعراء المشاركة، وخاصة البحتري^(٢)، حيث يورد ابن بسام له هذه الأبيات: الطويل

وما ولعي بالراح إلا توهّم	لظلم به كالراح لو يترشّف ^(٣)
وتذكرني العقد المرن جمائه	مرنات ورق في ذرا الأيك تهتفأ
ولما حضرنا الإذن والدهر خادماً	تشير فيمضى والقضاء مصرفاً

(١) انظر: الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٢٣-٢٤.

(٢) المصدر نفسه: ق ١ م ١، ص ٣٧٩.

(٣) الظلم: ماء الأسنان وبريقها. انظر: المعجم الوسيط، مادة: ظلم.

وصلنا فقبلنا الندى منك في يد بها يتلف المال الجسيم ويخلف^(١)

ثم يعلق عليها بقوله: «وما ولعي بالراح»... البيت، أراه قلب بيت أبي الطيب: الطويل

وما شرقي بالماء إلا تذكراً لماء به أهل الحبيب نزول^(٢)

وقوله: «ويذكرني العقد المرن»... البيت، نسخه من قول أبي تمام ونقص عليه:

وبالحلي إن قامت ترئم فوقها حماماً إذا لاقى حماماً ترغماً^(٣)

وقوله: «ولما حضرنا الإذن»... البيت، مع الذي بعده، أرى أبا الوليد احتذى فيه

حذو الوليد في أبيات أنشدتها لحسنها، وهي أحسن ما قيل في الهيئة^(٤):

ولما حضر ناسدة الإذن أخبرت رجال عن الباب الذي أنا داخله

فأفضيت من قرب إلى ذي مهابة أقابل بدر التّم حين أقبلته

دنوت فقبلت الندى من يد أمّريء كريم مُحياه سباطاً أناملته^(٥)

وقد كان ملوك الطوائف يسرون في الطريق نفسه، يل يدفعون الشعراء إلى ذلك

دفعاً، من خلال ما يظهر على أولئك الملوك من ولع واضح بالشعر المشرقي وانتشاء

بسماعه وازدهاء بمحاكاته في بعض الأحيان، ومن ذلك قول المعتمد: الطويل

ولكنها الأيام تُردّي بلا ظبي وتُصمي بلا نبل وترمي بلا يد^(٦)

(١) الديوان: ص ٤٨٥-٤٩٨.

(٢) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) المعروف به معجز أحمد: تحقيق عبد المجيد دياب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م، ج ٣، ص ٣٣٥.

(٣) شرح الصولي لديوان أبي تمام: دراسة وتحقيق خلف رشيد نعمان، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨م، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٤) ديوان البحتري: تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، م ٣، ص ١٦٠٩.

(٥) الذخيرة: ق ١م، ص ٣٧٧، ٣٧٨.

(٦) الديوان: ص ١٠.

فقد اقتفى فيه أثر المتنبي في قوله : الطويل

وما الموت إلا سارقٌ دَقَّ شخصه يصولُ بلا كفٍ ويسعى بلا رجلٍ^(١)

بل كان الدافع إلى الأخذ بمعاني المشاركة والإفادة من أساليبهم - إلى جانب الدوافع الذاتية عند الشعراء - توجهاً رسمياً لدى بعض ملوك الطوائف، فقد كان المظفر بن الأفطس يقول : « من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو شعر المعري فليسكت »^(٢)، والشعر - كما يقال - حيث يهوى الملوك^(٣).

ونتيجة لذلك رأينا الشعراء الأندلسيين يذلون قصارى جهودهم للحاق بركب المشاركة وإحراز التفوق عليهم، وإبداء رأيهم في سر ذلك التفوق الذي يرونه في شعرهم، فقد جرى حوار بين المعتمد بن عباد وأحد جلسائه حول بيت للمتنبي استبدعه المعتمد واستحسنه، وهو قوله : الطويل

إذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها معي المطي ورازمه^(٤)

فارتجل ابن وهبون : الطويل

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما تجود العطايا واللهم تفتح لها

تباً عجباً بالقريض ولو درى بأنك تروي شعرة لتألفها^(٥)

وهو بهذا الرأي يفتح أمامنا باباً آخر للخواطر التي تدفع الشعراء إلى الإجابة والإبداع، وسنعرض لهذا الخافز لاحقاً.

(١) الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٥٧-١٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ق ٢ م ٢، ص ٦٤١.

(٣) انظر: دراسات أدبية في الشعر الأندلسي: ص ١٩.

(٤) ديوان المتنبي: شرح أبي البقاء العكبري المسمى «التبيان في شرح الديوان»، دار المعرفة، بيروت، ج ٣، ص ٣٣١.

(٥) بدائع البداهة: ص ٣٦٨.

وكان المعتمد يعود جلساءه وشعرائه على النقاش والجدل والتحاور بما يثيره أمامهم من ملحوظات نقدية، ليحفزهم على أعمال الذهن والتفكير في قضايا نقدية وأدبية تنشط من مهاراتهم الفردية، وتعودهم على الشجاعة والجرأة في إصدار الأحكام النقدية، وتكسيهم الخبرة والوقوف على مواطن الإبداع، والقدرة على حسن التصرف وسلامة الأداء^(١).

وقد كان في تلك المفاضلة التي يقوم بها الأمراء بين الشعراء ضرب من التحفيز لهم، لتجويد الشعر وتحسينه، فقد رأينا كيف قدم المعتضد بن عباد الشاعر ابن جاح على سائر الشعراء وجعله رئيساً عليهم، لما رأى من حسن شعره^(٢).

وللسبب نفسه كان المعتصم بن صمادح يعقد جلسات انفرادية خاصة مع صفوة شعرائه يسألهم فيها عن الشعر المنشد لتحديد مستوى صاحبه^(٣).

ومما يتصل بذلك أن امتلاك أدوات الأدب والبراعة فيها كان وسيلة للوصول إلى المراتب العليا في الدولة وارتقائها، فقد كان المعتمد بن عباد « لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات »^(٤)، وقد كان سائر الملوك « يعظمون من عظمه علمه، ويرفعون من رفعه أدبه »^(٥).

ولا شك أن الشعر يزدهر في ظل مثل هذه المناخات التي تشجع على إنشاده وترفع من منزلة أصحابه، وترعى شؤونهم، لذلك رأينا أن وجود الراعي المشجع عليه من أقوى الدوافع لإنشاده وأدعى إلى الإجابة فيه^(٦).

(١) انظر: النفح: ج ٤، ص ٢٦١-٢٦٢.

(٢) انظر: النفح: ج ٦، ص ٢٠-٢١.

(٣) انظر: معجم الأدباء: ج ٤، ص ١٨٠٨.

(٤) المعجب: ص ٦٥.

(٥) النفح: ج ٣، ص ١٥٧.

(٦) انظر: دراسات أدبية في الشعر الأندلسي: ص ٥٨.

وعصر الطوائف اكتظ بوجود رعاة الشعر والأدب من ملوك الطوائف حتى غدت قصورهم أشبه بمجامع للعلوم والآداب والفنون يحج إليها كل طالب علم وراغب في الأدب^(١)، وخاصة بلاط المعتمد، فقد طلع « من سمائه كل نجم متقد، وكل ذي فهم منتقد فأصبحت حضرته ميداناً لرهان الأذهان ، وغاية رمي هدف البيان، ومضماراً لإحراز خصل في كل معنى وفصل »^(٢).

وقد كان الدور الأكبر في تلك الحوافز يعود إلى ذلك العطاء الفياض والكرم الجم الذي أسبغه الأمراء على الشعراء، وكان له أثر بالغ في إذكاء حماسهم وإلهاب جذوة نشاطهم^(٣)، ولذلك رأينا- فيما مضى- كيف علل ابن وهبون سر تفوق المتنبي في ذلك الشعر الذي أنشده المعتمد على جلسائه، وأرجع ذلك إلى أن « اللها تفتح للها ».

ويكفينا للتدليل على مدى كرم بعض أمراء الطوائف على الشعراء هذه الحكاية،

أنه فقد روي أن ابن عباد القزاز الوشاح أنشد المعتصم شعراً يقول فيه : الطويل

ولو لم أكن عبداً لآل صُمادح وفي أرضهم أصلي وعيشي ومولدي

لما كان لي إلا إليهم ترحل وفي ظلهم أمسي وأضحى وأغتدي

فارتاح المعتصم، وقال : يا ابن عباد ما أنصفناك، بل أنت الحر لا العبد، فاشرح

لنا في أملك، فقال : أنا عبدكم، كما قال ابن نباتة : البسيط

لم يبق جودك لي شيئاً أو مله تركتني أضحب الدنيا بلا أمل^(٤)

(١) انظر: مجاهد العامري: قائد الأسطول العربي في غربي البحر الأبيض المتوسط في القرن الخامس الهجري/كليبيا رنيللي تشركو، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٤٤.

(٢) فلائد العقيان: م ١، ص ٥٢.

(٣) انظر: ابن بسام. وكتابة الذخيرة، حسين يوسف خريوش، دار الفكر، عمان، ١٩٨٤م، ص ١١٥.

(٤) انظر البيت في: ديوان ابن نباتة السعدي: أبو نصر عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن أحمد (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق عبدالأمين مهدي حبيب الطائي، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٢٠٨.

فالتفت إلى ابنه الواصل يحيى ولي عهده وقال : إذا اصطفت الرجال فمثل هذا
فاصطنع ، ضمه إليك وافعل معه ما تقتضيه وصيتي به ، ونبهني إليه كل وقت ، فأقام
ندماً لولي العهد المذكور^(١).

فهذا الوفاء الذي قبول به الشاعر من قبل الأمير يعطي الشعراء حافزاً قوياً
للاطمئنان على مستقبلهم ، والتنافس فيما بينهم لنيل تلك الخطوة التي يلقونها عند
الأمراء.

وهناك أمر آخر ربما يكون ذا أهمية بالنسبة للشعراء وهو الشعر المنشد على البديهة
والارتجال ، والذي كانت تقتضيه مجالس الشعر والأدب ، ويطلب من الشعراء أن يتميز
فيه بعضهم على بعض^(٢) ، وسوف نتعرف على ذلك في حينه .

ولم يكن اقتصار الحافز على تجويد الشعر وإنشاده موقوفاً على بلاطات الأمراء ،
فقد كان لانتشار المجالس الشعرية في الأوساط الشعبية حافز آخر لشعراء ، يدفعهم إلى
تنقيح أشعارهم وتنقيتها ؛ لكي يتمتعوا رواد أنديتهم بكل جميل ومثير^(٣).

(١) النفح : ج ٤ ، ص ٣٦٨ .

(٢) انظر : دراسات أدبية في الشعر الأندلسي : ص ٣٤ .

(٣) انظر : النفح : ج ٤ ، ص ٢٨٦-٢٨٧ .

الفصل الثاني

حياة الشعراء وعلاقتها بالأمر

٨٩

سنوف نحاول في هذا الفصل أفراد الشعراء بدراسة مستقلة، للتعرف على حياة هذه الطائفة في المجتمع الأندلسي، وأدوارها التي قامت بها داخل البلاط وخارجة، والوقوف على أوضاعها المعيشية والاجتماعية والسياسية، ومردود ذلك وانعكاساته عليها، وتسلط الضوء على بعض الدقائق والتفاصيل الخاصة بها، وعلاقة هذه الطائفة ببلاط الأمراء، وسوف نطل على ذلك كله من خلال هاتين النافذتين:

١- حياة الشعراء خارج البلاط

٢- حياة الشعراء داخل البلاط

وقد لجأنا إلى هذا التقسيم؛ لكي نتعرف أولاً على حياة الشاعر قبل دخوله البلاط، ونتعرف كذلك على رحلة الصراع والكفاح اللتين عاشهما الشاعر وهو في طريقه إلى البلاط، سواء وصل إليه أم لم يصل. ثم بعد ذلك ستتعرف على حياة الشعراء داخل البلاط وعلى رحلة الصراع التي قضاها في البلاط من أجل البقاء، وما تخللها من مد وجزر ولمعان وخفوت وضعود وهبوط، وما يكتنف الأولى والثانية من مغامرات وإخفاقات وملابسات.

١- حياة الشعراء خارج البلاط:

- الهجرة إلى الأندلس:

انطلقت موجات من الرحلات للشعراء إلى الأندلس، وخاصة في عهد ملوك الطوائف، بعد أن عُرف عن هؤلاء الملوك بأنهم يحبون الشعر ويشيرون عليه، وكانت بلاطاتهم مراكز جذب للشعراء، تهوي إليها من كل حذب وصوب^(١).

(١) انظر: قول الشقندي في النفع: ج ٤، ص ١٦٦.

فسخاؤهم وكرمهم جعلهم قبلة للشعراء ومثابة للأدباء؛ لذلك سمعنا الشاعر المصري^(١)،

وهو من الوافدين على الأندلس، يقول في مدح المأمون بن ذي النون : الطويل

وقد كان لي في مصر دار كرامة . ولكن إلى المأمون كنت أشوق

خللت عليه والمكارم جمّة . وسحب العطايا برقها يتالق^(٢)

وفي هذا تفسير لتلك الهجرات التي نشطت إلى الأندلس^(٣)، وكان الهدف من

ورائها مادياً، وبخاصة هجرة الشعراء؛ حيث سرعان ما شقوا طريقهم، إثر

خط ركبهم في الأندلس، نحو قصور الأمراء والملوك^(٤)، يبحثون لهم فيها عن

موطنهم قدم .

ونحن لا نعلم شاعراً قديماً إلى الأندلس لغير هذا السبب، بل إن بعضهم بلغ به

الشرة والطمع في الكسب حداً مهيناً، وهو يستجدي، ومن أولئك الشاعر أبو الحسن

الحصري^(٥)، الذي رحل إلى الأندلس بعد خراب وطنه القيروان^(٦)، حيث يحدثنا عنه

ابن بسام بقوله: « ومن قبيح استجداء الحصري ما فعله بالمعتمد بن عباد، تصدى له في

طريقه بالعدوة على حالة من اعتقاله، ولم يلقه باكياً على خلعه من ملكه، ولا تأدب

معه في وصف ما انتثر من ملكه، بل بأشعار قديمة له، صدرها في الرباب وقرنتي ،

(١) مضت ترجمته .

(٢) الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٤١ .

(٣) انظر: الذخيرة: القسم الرابع، والفتح: ج ٤، ص ١٣٢-١٣٣ .

(٤) انظر على سبيل المثال: خير صاعد البغدادي مع المنصور بن أبي عامر في الجذوة: ص ٢٤٠،

والذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٩ .

(٥) هو علي بن عبد الغني الكفيف وفد على الأندلس بعد سنة ٤٥٠ هـ .

الجزء: ص ٣١٤، والذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٢٤٥، ووفيات الأعيان: ج ٣، ص ٣٣٢ .

(٦) المصدر نفسه والمكان ذاته .

وعجز في طلب اللهى، وعلى تلك الحال، وما يناجي بال المعتمد من البلبال، قاسمه فيما كان به زوده^(١).

وشاعر آخر، وهو ابن شرف القيرواني، رضي بالعيش في الأندلس على مضض، وفي شعره ما يدل على ذلك، فهو يقول: السريع

إن ترمك الغربية في معشر قد جبل الطبع على بغضهم

فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم^(٢)

فالبيتان، وإن كانا يدلان على حكمة تبلورت عن خلاصة تجربة ذاتية للشاعر^(٣)، إلا أنهما يعكسان حالة من التبرم والضيق لدى ابن شرف، وعدم ارتياح ممن كان يعاشر، وعلى الرغم من ذلك الإحساس القاتل بالغربة إلا أنه ظل ينتقل في الأندلس بين بلاطات ملوك الطوائف ويمر بحالة لا تعرف الاستقرار، إلى أن استقر به المقام أخيراً في طليطلة في ظل بني ذي النون حتى لفظ أنفاسه الأخيرة هناك^(٤).

ويظهر أن الشعراء كانوا لا يفرطون في بلد كالأندلس، لما حبا الله به تلك البلاد من خير عميم وفضل عظيم ولما عرف عن ملوكه من رعاية للأدب، فقد كان الشاعر منهم إذا أراد الرحيل عن بلاد الأندلس سرعان ما يكرّ راجعاً؛ لعلمه بأن تجارة الشعر ورعاية الشعراء في غيرها كاسدة وغير مضمونة، ومن هؤلاء الشاعر محمد بن القاسم المعروف باشكندادة، فقد ارتحل إلى المشرق « لما نبت به حضرة قرطبة عند قلب دولها، وتحول ملوكها وخولها، فحاول في العراق وقاس ألم الفراق، واجتاز بحلب، وأقام بها مقام غريب لم يصف له حلب، وقال: الرمل

(١) الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٢٧٢.

(٢) المصدر نفسه: ق ٤ م ١، ص ١٧٢.

(٣) انظر: النقد الأدبي في المغرب العربي، عبدالعزيز قلقيلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٨ م، ص ٢١٧.

(٤) انظر: ابن شرف القيرواني (حياته وأدبه): ص ٨٨.

أين أقصى الغرب من أرض حَلَبْ أملٌ في الغرب موصولُ التَّعبِ
حنٌّ من شوقٍ إلى أوطانِه مَنْ جفاه صبرُه لما اغتربَ
لهف نفسي أين هاتيك العلَا واضياعاهُ ويا غبنَ الحَسَبِ^(١)

وعندما رجع إلى الأندلس وحل بحضرة دانية لدى ملكها مجاهد، قال: الطويل

فلا تسألوني عن فراق جهنم ولكن سلوني عن دخولي إلى عَدْنِ^(٢)

- هجرة الشعراء داخل الأندلس :

- لقد كان الشعراء في الأندلس أشبه بخلايا نحل دائبة الحركة، يقطعونها طولاً وعرضاً^(٣)، والعالم الإسلامي لم يعرف مثل ذلك العدد من الرحالة في بلد كما عرف في الأندلس، يذهبون فيه من بلد إلى بلد^(٤).

ولم تشهد الأندلس عبر تاريخها الطويل قرناً كالقرن الخامس الهجري شكلت فيه هجرة الشعراء وارتجالهم ظاهرة ملفتة للنظر، حيث لم يتركوا مدينة إلا وحلو فيها، ولا جهة إلا ورحلوا إليها، نائية كانت أو قريبة، فابن الدباغ^(٥) مثلاً، عاش على التوالي في سرقسطة وإشبيلية وبطليوس، ثم رجع أخيراً إلى المدينة الأولى^(٦).

ويقدم الشاعر ابن ساره^(٧)، تفسيراً آخر لظاهرة كثرة انتقال الأدباء إلى جانب

(١) النفع: ج ٢، ص ٣٠٩.

(٢) المغرب: ج ٢، ص ٣٢، والنفع: ج ٢، ص ٣١٠.

(٣) انظر: الشعر الأندلسي: ص ٤٦.

(٤) انظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ص ٧٠.

(٥) هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر: كان كاتباً للمقتدر بن هود، ثم فرعه إلى المعتمد بن عباد. (انظر ترجمته في: القلائد: م ١، ص ٣١٤، والذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥١، والمغرب: ج ٢، ص ٤٤٠).

(٦) انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥١-٢٥٣، والشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ص ٧٠.

(٧) هو أبو محمد عبدالله بن سارة، ويقال ابن صارة الشنتريني، سكن إشبيلية، وتجهل في الأندلس مادحاً، توفي سنة ٥١٧ هـ. (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٨٣٤، والمغرب: ج ١، ص ٤١٩، وبغية الوعاة: ج ٢، ص ٥٧).

البحث عن الأرزاق، بين إمارات الأندلس، فهو يقول : مخْلَع البسيط

مَقَامُ حَرٍّ بَارِضٍ هُونٍ عَجَزَ لَعَمْرِي مِنَ الْمُقِيمِ

سَافِرٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ كَرِيماً فَمِنْ لَيْثٍ إِلَى لَيْثٍ^(١)

وكان على الشعراء أن يجدوا في الطلب ويواصلوا الليل مع النهار، وليبلغوا مراتب توهلهم للمنافسة وإحراز التفوق والشهرة والذیوع، وفي حكاية ابن حزم مع أبي الوليد الباجي^(٢) خير دليل على ذلك، فقد ناظر ابن حزم أبا الوليد فقال الباجي: «أنا أعظم منك همة في طلب العلم؛ لأنك طلبته وأنت معانٍ عليه، تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بآنت السوق، فقال ابن حزم: هذا الكلام عليك لا لك؛ لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرج به إلا عاء القدر العلمی في الدنيا والآخرة»^(٣).

والمناظرة، وإن كانت جرت للحديث عن طلب العلم، إلا أن فيها دلالة على ما كان سائداً بين الأوساط الفكرية والأدبية من تنافس فكري ومعرفي.

- وكان الشعراء قبل أن يلجوا إلى بيت العز والجاه يرسلون دلاءهم ويرمون شباكهم لعلها تعلق بما هو نفيس وثمين، وقد تُخَفِّقُ وتعود بخفي حنين، فشاعر مثل ابن حمديس الصقلي أقام باشيلية مدة لا يلتفت إليه ولا يعبا به حتى قنط وهم بالنكوص، لكن الحظ واتاه بعد محاولات مضنية، ودخل القصر^(٤).

وفي تلك الصور دلالات على ما كان يقوم به هؤلاء الشعراء من محاولات في

(١) النفح: ج ٥، ص ٢٣٧.

(٢) هو أبو الوليد بن خلف بن سعيد التجيبي القرطبي: من كبار أئمة المسلمين بالأندلس، وتوفي بالمرية سنة ٤٧٤هـ، (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢م، ص ٤٩٤، ووفيات الأعيان: ج ١، ص ٤٠٨، والنفح: ج ٢، ص ٧٥-٧٧).

(٣) النفح: ج ٢، ص ٢٩٢.

(٤) انظر: النفح: ج ٥، ص ١٥٣-١٥٤.

سعي دؤوب ومستمر، وكفاح مضمّن ومرير، ينجحون أحياناً ويخفقون في أحيان أخرى.

فهناك شعراء رأيتهم كباراً، يتربعون عروش القيادة والسيادة، ولم يكونوا قبل ذلك شيئاً يذكر^(١)، حيث بدأوا رحلتهم الحياتية من الأسواق ومحلات الباعة يتكسبون بشعرهم، ومن أولئك ابن عمار، فقد روي عنه أنه «ورد في بعض سفراته شلب، لا يملك إلا دابة لا يجد علفها، فكتب بشعره إلى رجل من وجوه أهل السوق، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المختلاة شعيراً ووجه بها إليه»^(٢).

وكان هؤلاء الشعراء حريصين في الماضي قدماً نحو أبواب الأمراء لعلمهم أن شهرتهم ومكاسبهم مرهونة بمدحهم، فقد عُرف أن «كل كاتب كتب للسلطين... وكل شاعر مدحهم رويت أشعاره ورسائله»^(٣).

وكان بين الشعراء ضرب من التكافل الاجتماعي، وخاصة قبل وصولهم إلى بلاط الأمراء، فإذا رأوا شاعراً ضعيفاً يتسول بشعره أعانوه للاستطعام بشعره والارتقاء به إلى وضع أليق، بدلاً من تخطب العامة والخاصة بسؤاله^(٤).

وبالطبع كان غير هؤلاء في هذه الفترة، شعراء جعلوا من الشعر رسالة تسخر في خدمة المجتمع، وتناهض الحكام إذا انحرفوا وزاغوا عن الجادة، بدلاً من اللهث وراء بريق الدنانير وحياة القصور، فأشهروا سلاح الشعر في وجوه الحكام، وألبوا الناس

(١) انظر: المعجب: ص ١١٤، والحلة السيرة: ج ٢، ص ١٢٠.

(٢) المعجب: ص ١١٤.

(٣) الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٤١.

(٤) «ملاحم من الحضارة الأندلسية في عهد ملوك الطوائف»: رياض المرزوقي، أعمال المتلقى الرابع الأسباني التونسي، ص ١٩٣.

عليهم^(١)، وأحسن الحكام بخطر هذه الطائفة من الشعراء فطاردوهم وشدوا عليهم الخناق، ومن ذلك ما رواه السلفي من أنه لما «استوزر باديس بن جبوس (أمير غرناطة) نصرانياً بعد مقتل وزيره اليهودي يوسف بن النغيلة، قال السميسر ثلاثة أبيات، وكتب بها نسخاً عدة، ورمأها في شوارع غرناطة وطرقاتها، وسار من ساعته إلى المربة معتصماً بملكها المعتصم بن صماديج، وطارأت الأبيات في مدن الأندلس (وكانت غاية في الهجاء المقذع)، ولما وقف باديس عليها أرسل وراءه أصحاب الخيل، فقاتهم، ولم يلحقوه»^(٢).

(١) انظر: النفح: ج ٦، ص ٩٣-٩٤.

(٢) انظر: اخبار وتراجم أندلسية: ص ٩٣.

التوسط للشعراء لدى الأمراء :

تعد الوساطة للشعراء لدى الأمراء وسيلة معينة لهم للوصول إلى البلاط، لذلك كان الشعراء يلجأون إليها كلما دعت الحاجة، فربما كانت من أفضل الطرق اختصاراً للوصول إلى بلاط الأمير، وقد تكون آخر المحاولات للشعراء حين تعييبهم السبل، وتسند في وجوههم الأبواب.

ومهما يكن من شيء، فقد كان هناك شعراء مقربون من الأمراء يقومون بهذا الدور التقليدي بدافع الشفقة والإحسان، كما فعل ابن عمار مع عبد الجليل بن وهب، الذي مكث فترة طويلة في قصر المعتمد لا يلتفت إليه، فأنشد له ابن عمار هذين البيتين، بين يدي المعتمد: البسيط

قلّ الوفاء فما تلقاه في أحدٍ ولا يُمِرُّ لمخلوق على بال
وصار عندهم عنقاء^(١) مغربةً أو مثل ماحدثوا عن ألف مثقال

فأعجب بهما المعتمد وقال: لمن هذان البيتان؟ فقالوا: هما لعبد الجليل بن وهب، أحد خدم مولانا، فاستدعاه المعتمد وأكرمه^(٢).

وقد تكون الشفاعة بدافع الرجاء والتوسل، كما فعل ابن زيدون مع ابن شرف

(١) العنقاء: طائر خرافي يسميه العرب «عنقاء مغرب» وتزعم الأساطير العربية: أنه يخطف الفيل في مخالفه ويفترسه، وأنه يبيض بيضاً كالجبال، ويروون عنه أساطير غريبة، ويضرب كثيرون به المثل فيما لا يمكن أن يقع، فيقولون: المستحيلات ثلاثة: الغول والعنقاء، والخل الوفي، ويقول الشاعر: البسيط

الجود والغول والعنقاء ثلاثة أسماء أشياء لم توجد ولم تكن

ومغرب من: أغرب أي صار غريباً، ووصف هذا الطائر بالمغرب أو المغرب لبعده عن الناس، ونقول: «مغرب» لأن العنقاء اسم يقع على المذكر والمؤنث، ومنه المثل: «خُلِّقَتْ به عنقاء مغرب»، بضرب لما يُشْر منه. (انظر: ديوان ابن زيدون: ص ٦٣١، ومجمع الأمثال/ الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت ٥١٨هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥م، ج ١، ص ٢٠١).

(٢) انظر: المعجب: ص ١٠٩.

التيرواني، الذي لم يستطع الحضور إلى بلاط المعتضد، فبعث مع ابن زيدون رسالة شعرية إليه، فرد عليه المعتضد برسالة ترحيبية، يستحثه فيها على الحضور إليه^(١)..

حياة الشعراء داخل البلاط :

كنا - فيما مضى - مع الشعراء خارج البلاط، وتعرفنا على شيء من حياتهم، وجانب من الظروف التي كانت تدفع بهم إلى بلاطات الأمراء، ووقفنا على جانب من سلوك تلك الطائفة، وهي تسعى جاهدة في رحلة من الصراع المرير والكفاح الشاق، كي تصل إلى بلاط الأمراء وتتسلق جدرانها العالية وأسواره الشاهقة.

ونحاول الآن التعرف على حياة الشعراء داخل البلاط، وعلاقة الحكام بها، ولا شك أن حياة الشعراء في بلاطات الأمراء حياة حافلة بظواهر كثيرة، وصور عدة، وأنشطة مختلفة، وحقوق وواجبات ومسئوليات، وغير ذلك، وسنبداً بأبرز تلك الظواهر، وأخطرها في تلك البلاطات وهي :

- التحاسد والتنافس بين الشعراء :

نستطيع إدراك مدى عمق هذه الظاهرة الاجتماعية واستفحالها في حياة ذلك المجتمع من خلال ما جاء على لسان رجل كان له خطره ومكانته في تلك الفترة التي نحن بصدد دراستها، وهو ابن حزم، حيث يشير في حديث طويل إلى ما كان يلاقيه المبدعون المبرزون في المجتمع الاندلسي، في عصر ملوك الطوائف، من حسد أهل الجهالة، واستقلالهم كثير ما جاء به هؤلاء المبدعون، واستهجانهم حسناتهم، وتبعهم سقطاتهم وعثراتهم، حتى غدا الواحد منهم غرضاً لأقوال الحسدة، وهدفاً لمطالب أصحاب النفوس المريضة، ونهياً لألسنة غير أصحاب الكفايات، وعرضة للغمز واللمز،

(١) انظر: ديوان ابن زيدون: ص ٥٤، ٤١٦.

وربما نُحل ما لم يقل، وألحق به ما لم يتعلق به^(١)، ومن ضمن ما قاله ابن حزم
«... وهكذا عندنا نصيب من ابتداء يحوك شعراً، أو يعمل رسالة، فإنه لا يفلت من
هذه الحبال، ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الضائن»^(٢).

ولذلك رأيناه يستنكر على مجتمعه هذا المنحى، ويذم عليهم هذه النظرة الجاء
تجاه الإنتاج الأندلسي من أدب ونحوه، حيث يقول: الطويل

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكرى النهب^(٣)

ويسوق ابن بسام هذه النظرة متحدثاً عنها بمرارة. في قوله: «إلا أن أهل
الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى
قتادة، حتى لو نطق بتلك الآفاق غراب، أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على
هذا صنما، وتلوا ذلك كتاباً محكماً... فغاظني منهم ذلك وأنفت بما هنالك، وأخذ
نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غي
لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة، مع كثرة أدباء
ووفور علمائه»^(٤).

وقد مهدنا لحديثنا عن التحاسد والتنافس بين الشعراء بما سبق؛ لأننا سوف نوا
هذه المشكلة أمامنا بين الشعراء، ولا سيما أنها كانت أحد أسباب النزاع والمواجهة بين
داخل بلاطات الأمراء، إلى جانب الأسباب الشخصية والسياسية والاجتماعية الأخرى

(١) انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس طيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب/ المقر
أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ) تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ٩٦٨
ج ٣، ص ١٦٦-١٦٧.

(٢) المصدر نفسه والمكان ذاته.

(٣) الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٧٣.

(٤) المصدر نفسه: ق ١ م ١، ص ١٢.

لقد تمتع ابن زيدون لدى بني عباد بحظوة، كانت سبباً في تأليب الخصوم عليه وإثارة حساده، غير أن ما كان يتميز به من دهاء ومكر أحبط كل مؤامرة وجهت ضده، فها هو ذا الشاعر أبو الحسن علي بن غالب بن حصن وزير المعتضد يرفع دعوى قضائية ضد ابن زيدون إلى المعتضد راجياً منه إنصافه، حيث تقدم إلى المعتضد بقصيدة يدعي تفوقه فيها على ابن زيدون، يقول فيها : الطويل

وينكل عنها شاعرُ المِصرِ كلُّه إلا فاضحكُن من شاعرِ المِصرِ وافخرِ
ودونك فاحكم بين نظمي ونظمه بذهنٍ ذكيٍّ ثم قَدِّمِ وأخرِ
وما أنت ممن يُحمدُ السيفُ عنده لجودةِ صقلٍ وهو غيرُ مذكَّرِ^(١)

لكن ابن زيدون استطاع بدهائه ومكره أن يثير حفيظة المعتضد عليه ويحمله على الفتك به^(٢).

وتكررت المحاولة من قبل خصومه إبان عهد المعتضد، وكانت هذه المرة من قبل مجموعة، استطاع المعتضد أن يستشف كيدها ودناءة قصدها من خلال رسالة بعثوا بها إليه، تضمنتها الأبيات التالية : الكامل

يا أيها الملكُ العليُّ الأعظمُ اقطعْ وريدي كلَّ باغٍ يُشتمُ
واحسِمْ بسيفِكَ داءَ كلِّ منافقٍ يُبدي الجميلَ وضدَّ ذلك يكتُمُ
لا تتركَنَّ للناسِ موضعَ شبهةٍ واحزِمْ فمِثْلِكَ في العِظامِ يحزِمُ
قد قال شاعرُ كندةٍ فيما مضى بيتاً على مرِّ الليالي يُعلمُ
لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتَّى يراقَ على جوانبه الدَّمُ^(٣)

(١) المصدر السابق: ق ٢ م ١، ص ١٧٣.

(٢) انظر: المصدر نفسه والمكان ذاته.

(٣) ديوان ابن زيدون: ص ٣٠٦-٣١١. والذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٥١.

فلما سمعها المعتمد عرف الغرض الذي إليه قصد، ووقع على ظهر الرقعة بهذه

القطعة:

كذبت مناكم صرّحوا أو جمجموا الدين أمتن والمروءة أكرم

إلى قوله :

كفروا وإلا فأرقبوا لي بطشة يلقي السفينة بمثلها فيحلم^(١)

وهناك حادثة أخرى وقعت في بلاط المعتمد - أيضاً - حاول فيها خصوم ابن عمار وحساده الإيقاع به، والانتقاص من شاعريته، واستغلال خلاف كان قد وقع بينه وبين المعتمد، والاضطهاد في الماء العكر، ظناً منهم أن المعتمد سيصغي إليهم، ويقبل منهم آراءهم المغرضة في شعر ابن عمار، فقد روي أن ابن عمار أرسل إلى المعتمد بقصيدة يعتذر إليه فيها، ومنها قوله: الطويل

سجايك إن عافيت أندي وأسمح وعذرك إن عافيت أحلى وأوضح
وبين ضلوعي من هواه تيممة ستفنع لو أن الحمام يجالّح
ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة يكرآن في ليل الخطايا فيصبح

فلما أنشدت في المجلس «جعل من بحضرته من أعداء ابن عمار ينتقدونه، ويطلبون به عيباً لو يجدونه، فجعلوا يقولون : أي معنى أراد، ما قال شيئاً ولا كاد...»^(٢)، وتصدى لهم المعتمد وبين زيف نقدهم.

إن الحكاية في مجملها، تصور وضعاً أخلاقياً كان سائداً في بلاطات الأمراء، تغذيه حمى التنافس بين الشعراء على المكاسب الشخصية، كما تصور موقفاً شخصياً للمعتمد أظهر فيه إيمانه بشاعرية ابن عمار،

(١) ديوان المعتمد بن عباد: ص ٦٧.

(٢) الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٤٢٠-٤٢١.

وموضوعيته في النقد، كما تصور أيضاً- حال الانتهازين الذين يستغلون الظروف لتحقيق أغراضهم الخاصة^(١).

وقد كانت المواجهات بين الشعراء تدفعهم إلى المهاجة بين أيدي الأمراء، فتصدر عنهم مقطوعات تشبه النقائص^(٢)، تؤكد ذلك التنافس المحموم بينهم، ومن ذلك ما يروى أن أبا عبدالله محمد بن معمر اللغوي المعروف بابن اخت غانم كان في مجلس المعتصم بن ضماح، فلما سمع أبا الفضل بن شرف^(٣) ينشد قصيدته التي مطلعها: الرمل

مطلّ الليلُ بوعْدِ الفلقِ وتشكى النجم طول الأرقِ

حسده وقال له: من أي البوادي أنت؟ قال: أنا من الشرف في الدرجة العالية، وإن كانت البادية عليّ بادية، ولا أنكر حالي، ولا أعرف بخالي، فمات ابن اخت غانم خجلاً، وسميت به من حضر، فانبرى يقول: الكامل

قولوا لشاعرٍ برّجةٍ هل جاء من أرض العراقِ فحازَ طبعَ البحتري

وافى بأشعارٍ تَضجُ بكفِّهِ وتقول: هل أعزى لمن لا يشعر

يا جعفرأ ردّ القريض لأهله وارك مجارةً لتلك الأبحر

لا تزعمن ما لم تكن أهلاً له هذا الرضابُ لغير فيك الأبحر^(٤)

فالشاعر يطعن في شاعرية أبي الفضل ويرميه بالسرقة والانتحال، ويريد بذلك تشويه صورته الأدبية؛ لكي لا يلتفت إليه ولا يقدم عليه.

وكما كانت تلك المواجهات تستهدف الجانب الأدبي كانت هناك مواجهات أكثر

(١) انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ٩٥.

(٢) انظر: تاريخ الفكر الأندلسي: ص ١١١.

(٣) هو جعفر بن أبي عبدالله بن شرف القيرواني، كان من كبار الشعراء في تلك الفترة، حل بالمرية ومنها درج وطار، وكان من خواص المعتصم يحظى لديه بمكانة حسده عليها أدباء عصره، وتوفي سنة ٥٣٤هـ، (انظر ترجمته في: القلائد: م ١، ص ٧٩١، والذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٨٦٧، والخريدة: ج ٢، ص ١٧١، والمغرب: ج ٢، ص ٢٣٠، والنفع: ج ٣، ص ٣٩٥).

(٤) المغرب: ج ١، ص ٤٣٣، ط ٣، ص ١٩٦٤م.

عمقاً وأبعد خطراً، وتتمثل في إثارة النعرات الطائفية والفوارق الطبقية، كالتفاخر بالأحساب والأنساب، والتعريض بالأقران والإزدراء بهم، ومن ذلك ما يروى عن يوسف بن عبد الصمد^(١) أنه أنشد قصيدة أمام المعتمد عرض فيها بمنافسيه من الشعراء، أمثال ابن اللبانة وعبادة بن القزاز والحجّام والجزاز السرقسطي، منها هذه الأبيات:

الكامل

والشعرُ بهجتهُ إذا نطقتُ به	بينَ المجافلِ السِّنِّ الأعيانِ
ما كان قولُ الشعرِ إلا خطّةً	كانت مراتبُها على كيوانِ
حتى تدنّسَ ثوبُها بزَعانِفِ	نشأتُ على الأوضارِ والأدرانِ
من صنعةِ القزازِ والجزارِ أو	من صنعةِ الحجّامِ واللّبّانِ ^(٢)

وقد أفاد ذلك التنافس المستعر بين الشعراء الحركة الأدبية وأثرها، بل وله الفضل في تلك البراعة والاجادة والانكباب على تحسين أداء الشعر، الذي كان يقال في مجالس الأمراء والشعراء، ومن ذلك ما يروى عن أبي الحسن الحصري القيرواني من أنه قال قصيدة تتألف من تسعة وتسعين بيتاً بين يدي أبي عبدالرحمن محمد بن طاهر صاحب مرسية اجتهد في تنقيحها، وتهذيبها وذكر أغراضه فيها، وأهدافه منها، وكان الدافع لنظمه تلك القصيدة «وشاية لفقها أعداء الشاعر وأبلغوها ابن طاهر، وقد أشار إلى الوشاية مفنداً وراداً على شائنيه»^(٣)، ومطلعها: المتدارك

يا ليلُ الصبِّ متى غدُه أقيامُ الساعةِ موعدهُ^(٤)

وكان لها من الشهرة ما جعل عدداً كبيراً من الشعراء يولعون بها ويعارضونها^(٥).

(١) مضت ترجمته.

(٢) الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٨١٤...

(٣) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص ٢٨٥.

(٤) وفيات الأعيان: ج ٣: ص ٣٣٢.

(٥) انظر: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص ٢٨٥، والموازنة بين الشعراء: زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩٣ م، ص ١٠٢.

وعلى الرغم من تلك الأمثلة الهجائية، التي ذكرناها والتي نشرت في مصادر الأدب الأندلسي، إلا أن صوت الاتجاه الهجائي في الشعر الأندلسي في هذه الفترة ظل خافتاً، وما ورد منه يعد يسيراً، وذلك ليس لعدم قدرة الأندلسيين على الإبداع فيه، ولكنهم آثروا صون ألسنتهم عنه^(١).

موقف الشعراء من تحاسد الأمراء وتنافسهم :

كما كان التنافس والتحاسد شديداً بين الشعراء فكذلك كان بين الأمراء^(٢)، ومجالسهم كانت تغذي هذه الروح وتذكي من جذوتها، والشعراء وحدهم زيتها ووقودها واللسان المعبر عنها، فقد كانت تصدر عنهم أشعار في هجاء بعض الأمراء داخل المجلس لإرضاء صاحبه، والتقرب بذلك إليه، خاصة إذا علموا أن بين صاحب المجلس وذلك الأمير المهجو قطيعة وجفاء.

ومما يدل على ذلك ما تذكره المصادر من أن مجاهداً العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية كتب إلى المنصور بن أبي عامر الأصغر أمير بلنسية رقعة، ولم يضمنها غير بيت الخطيئة : البسيط

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي^(٣)

فأخرجت المنصور، وأقامته وأقعدته، فأحضر وزيره أبا عامر بن التاكرني^(٤) فكتب عنه : الكامل

شمت مواليتها عبيد نزار شيم العبيد شتيمه الأحرار

فسلا المنصور عما كان فيه^(٥).

(١) انظر : دراسات في الأدب الأندلسي، ص ١٠.

(٢) انظر : المعجب : ص ٨٥.

(٣) ديوان الخطيئة برواية وشرح ابن السكيت (ت ٢٤٦هـ) : تحقيق نعمان محمد أمين طه وآخرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٨٧م، ص ٥٠.

(٤) هو محمد بن سعيد أبو عامر التاكرني من أهل الأدب والبلاغة والشعر، سكن بلنسية وخدم صاحبها عبدالعزيز الملقب بالمنصور (ت ٤٥٢هـ)، (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ٦٠، المغرب : ج ١، ص ٣٣٢، وأعمال الأعلام : ٢٢٤).

(٥) الذخيرة : ق ٣ م ١، ص ٢٢٨.

إن هذه الحكاية تعطينا صورة جلية عن مدى ما كان يعتري حياة هؤلاء الأمراء من تأزم في العلاقات وأحن في النفوس، وكان الشعر من أبرز الأصوات للإعلان أو الإفصاح عنها.

وتدل حكاية الشاعر النحلي مع المعتصم بن صمادح التالية على أن الشعراء كانوا يستغلون تلك القطيعة التي كانت بين المعتصم بن صمادح والمعتد بن عباد ويزيدونها إضراراً بزييت الشعر، حيث يروى أن الشاعر النحلي كان في مجلس المعتضد بن عباد فمدحه بشعر قال فيه : المتقارب

أباد ابنُ عبادِ البربرِ . وأفنى ابنُ مَعْنٍ دجاجَ القرى^(١)

وعندما اضطرت الظروف للسفر إلى المرية استدعاه أميرها المعتصم، وكان قد نسي ما قاله فيه في مجلس المعتضد، وأراد المعتصم أن يؤنبه على فعلته تلك، فأحضر للعشاء ميوانك ليس فيهن غيز دجاج، فقال النحلي : «يا مولاي، ماء عندكم في المربة تخم غير الدجاج؟ فقال : إنما أردنا أن نكذبك في قولك : «أفنى ابن مَعْنٍ دجاج القرى»، فطار سكر النحلي، وجعل يعتذر، فقال له : خفض عليك، إنما يتفق مثلك بمثل هذا، وإنما العتب على من سمعه فاحتمل منك في حق من هو في نصابه، ثم أحسن إليه، وخاف النحلي ففر من المرية، ثم ندم فكتب إلى المعتصم : المتقارب

رضا ابن صمادح فارقه فلم يرُضني بعده العالمُ

وكانت مريتُه جنةً فجئت بما جاءه آدم^(٢)

إن هذه الحكاية تتضمن أكثر من دلالة، أولها: أن المعتد كان على غير وفاق مع المعتصم وثانيهما: أن الذم أو التعريض بشخص ما حين يقيد بشعر يكون أذاه على ذلك الشخص أكثر إيلاماً وأشد وقعاً؛ لأن الشعر أكثر سيرورة بين الناس. أما الدلالة الثالثة: فهي حق المعتصم، الذي عبر عنه بقوله : «وإنما العتب على من سمعه فاحتمل منك في

(١) النفع: ج ٥، ص ١٥٨-١٥٩.

(٢) المصدر نفسه، المكان ذاته.

حق من هو في نصابه»؛ ولو كان كلاماً عابراً لما وصل إلى المعتصم وظل يذكره من مدة مضت عليه، ورابعها: أن الشعر، في سرعة انتقاله عبر وسائط تحمله، كان أشبه بصحفنا اليومية التي تنقل الأخبار من مكان إلى آخر، وتكون في متناول الجميع، وخامسها: أن الشاعر لا يهتم في ساعته تلك إلا رضا صاحب المجلس.

وتذكر المصادر مجلساً آخر للمعتصم تعرض فيه ابن بلقين صاحب غرناطة لهجاء مقذع من الشاعر السمسر، دون أن ينكر المعتصم ذلك عليه، بل إنه قال: «لقد أحسنت في الإساءة إليه»^(١)، مما يؤكد اختلاف أولئك الحكام على أنفسهم، ومدى التباغض فيما بينهم، واستغلال ذلك الوضع من قبل الشعراء أيما استغلال.

ولأن الإساءات الموجهة إلى الأمراء كانت في أغلبها من قبل الشعراء، في تلك المجالس، فقد راح بعض الأمراء الشعراء يهاجمون تلك المجالس وروادها ويرمونهم بأحقق الصفات، وفي أحد المجالس وروادها يقول ابن رزین أمير السهلة : مجزوء الكامل

أخس بمجلس معشر	ما فيه إلا الطنز بر
جلساؤه قوم ثقا	ل كلهم خبث وشر
ما فيهم إلا دنى	أوغبي أو مضر
أسد على ثلب الكرا	م وإن وزنتهم فذر
هذا يغوث بل أض	ل وذا يعوق وذاك نسر ^(٢)

(١) المصدر السابق: ج ٤، ص ٣٦٩.

(٢) الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١١٦. الطنز: السخرية. انظر: المعجم الوسيط، مادة: طنز.

المكافآت المادية :

كان الشعر في بداية أمره أرفع منزلة وأسمى مكانة من فنون القول الأخرى، فقد كان سلاحاً فعالاً في يد العشيرة، يحميها من أعدائها ويشيد بمناقبها ويخلد مآثرها، ويجعلها مهابة بين القبائل، فلما تكسب به الشعراء وتنافسوا به على نيل الأرزاق والمناصب العليا ضعف شأنه وقل قدره^(١).

لقد طرق الشعراء أبواب بعض الأمراء في الأندلس وكانوا لا يوفقون في بعض الأحيان، وذلك عندما لا يجدون من يقدر عملهم ويكافئ عليه، وخاصة في الوسط غير العربي، من حكام الأندلس، يقول ابن بسام عن خيبة وفادات بعض الشعراء إلى بعض الأمراء: «فكم من وفادة أخزى من وفادة البرجمي»^(٢)، ووسيلة أضيع من المصحف في بيت زنديق أمي»^(٣)، وهو يشير بذلك إلى ضياع الشعر في أوساط بعض الأمراء الغرباء عنه من البربر والمجاييب الصقلية^(٤).

وكان بعض الشعراء إذا يشوا من قبول شعرهم تركوا الشعر وعادوا إلى سيرتهم الأولى، ومن أولئك الشعراء الجزار السرقطي، فقد كان يمدح المستعين بن هود

(١) انظر: البيان والتبيين/ الجاحظ: أبو عثمان عمر بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق حسن السندوسي، المكتبة التجارية الكبرى، ط ٢، ١٩٣٢، ج ١، ص ٢٠٤، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب/ الألويسي: محمود شكري الألوسي البغدادي (١٢٧٣هـ) على بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٣، ص ٩٢.

(٢) يشير ابن بسام بذلك إلى المثل القائل: «إن الشقيّ وافدُ البراجم» وهو مثل يضرب لمن ساقه قلبه إلى جتفه، وقد استخدم ابن بسام قصة هذا المثل ليعبر عن حالة ابن دراج في وفادته على خيران العامري، (انظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري، تحقيق إحسان عباس وعبدالمجيد عابدين، دار الأمانة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣م، ص ٤٥٤-٤٥٥).

(٣) الذخيرة: ق ٣م ١، ص ١٠-١١.

(٤) انظر: المصدر نفسه: ق ٣م ١، ص ١٤.

السرقي في بلاطه، ولما أحس منه بخفاء، وأدار له وجهه، وحرص عليه وزيره الفضل بن حسداي يذمه ويحقر مهنته، بعد أن ترك البلاط وعاد إلى مزاولة القصابة،

قال : الوافر

تعيبُ عليَّ مألوفُ القصابة ومن لم يدِرِ قدرَ الشيءِ عابه
ولو أحكمتَ منها بعضَ فن لم استبدلتَ منها بالحِجابه
وحقك ما تركتَ الشعرَ حتى رأيتُ البخلَ قد أمضى شهابه
وحتى زرتَ مشتاقاً حميماً فأبدى لي التجهمَ والكآبه^(١)

وقد كان الأدباء يرون أن هذا النهج الذي كان يسلكه معهم أرباب الرياسة نهج لا يستقيم مع ما تقتضيه رياستهم من تحمل بالكرم وتخلق بالمروءة والوفاء، لذلك وجه الأديب أبو البريع سليمان بن أحمد القضاعي رقيقة خاطب بها الوزير ابن محاسن، يحضه فيها على إكرام الأدباء، يقول فيها: « مكاسب الشعراء - أعزك الله - من مواهب الأمراء وعنايات الوزراء، ومن شئت الأدباء فإنما يناقض أرباب الرياسة، ويعارض أقطاب الوزارة »^(٢).

وفي مقابل ذلك كان هناك آخرون يقدرّون الأدباء ويكرمونهم ويفتحون لهم أبوابهم على مصراعيها، وربما أكرموا وفادتهم - حين لا يجدون ما ينفقونه عليهم - بكلمة طيبة وحسن اعتذار^(٣).

وكان الشعراء لا يجدون غضاضة ولا حرجاً من أخذ تلك المكافآت، متأسين بمن كان قبلهم من السلف الصالح، كالصحابة والتابعين في قبول الهدايا والهبات^(٤).

(١) المصدر السابق: ق ٣ م ٢، ص ٩٠٥-٩٠٦.

(٢) الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٥٠٥-٥٠٦.

(٣) انظر: النفح: ج ٤، ص ٣٠٧.

(٤) انظر: المصدر نفسه، والمكان ذاته.

بل كانوا يرون في ذلك حقاً مشروعاً لهم، فهو لقاء ما يخلده شعرهم لأولئك
الممدوحين، من مآثر ومناقب، يقول عبد الجليل بن وهبون: البسيط

الستم معشر الأملاك طائفة تقضي بتخليدها هذي الأناشيد
فإن نقصم أناساً من نوالكم فحق منكم لأهل الشعر تزويد
لكم خلقنا ولم نخلق لأنفسنا فإنما نحن تحميد وتمجيد^(١)

المكافآت المادية النقدية :

هناك مبررات نقدية ثابتة مستديمة، لمن هم مقيدون في دواوين الشعراء^(٢) قد تصل
إلى ستين مثقالاً في الشهر^(٣)، وقد تُقررُ للشعراء جارية ثابتة سنوية، نجد ذلك في قول
ابن سارة: الخفة

يا كتابني بالله قبل يديه بدلاً من فمي ففيه احتشامُ
ثم بين له بأن ثواني كان عاماً والآن قد جاء عام^(٤)

ويمكن التعرف على قيمة تلك الهبات النقدية الفورية، التي تعطى للشعراء، من
خلال قول ابن الجداد في إحدى قصائده التي مدح بها المعتصم: الطويل

إذا البدرُ انثالت عليهم تخالها بأيدي موالها رؤوس عِداتها^(٥)

(١) الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٥٠٢-٥٠٣.

(٢) انظر: الجسوة: ص ١١١، والنفع: ج ١، ص ١١٢، والنقد الأدبي في الأندلس، مجلة
الأبحاث، ص ٥١٣.

(٣) انظر: الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٨٩، والمغرب، ج ٢، ص ١٢.

(٤) القلائد: م ٢، ص ٨١٧.

(٥) ديوان ابن الجداد الأندلسي (ت ٤٨٠هـ): تحقيق يوسف قاسم طويل، دار الكتب العلمية،
بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٠م، ص ١٦٦، والخريدة: ج ٤ م ١، ص ١٨٤، والوافي بالوفيات:
ج ٢، ص ٨٧.

فهو يشير إلى ما كان يهبه المعتصم لشعرائه ويكافئهم به لقاء مدحه، وقد ذكر أنه كان يهب الشعراء بذراً، والبذرة: كيس فيه عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار^(١).

بل قد يعطى الشاعر أكثر من ذلك^(٢) خاصة إذا كان الممدوح مثل المعتمد بن عباد، فقد ذكر أنه أعطى أبا العرب الصقلي^(٣) (ت ٥٠٦هـ) خريطين مملوءتين بدنانير الفضة، وتمثال جمل مرصع بنفيس الجواهر^(٤).

ومن الشعراء من كان يحدد المكافآت على القصائد التي يمدح بها سلفاً، فقد عرف عن إدريس بن اليمان أنه كان يطلب مائة دينار، عن كل قصيدة ينظمها في الممدوح وكان يقول: «إشارتي مفهومة وبنات صدري كريمة، فمن أراد أن ينكح بكرها فقد عرف مهرها»^(٥).

المكافآت العينية :

وإلى جانب المكافآت النقدية كانت هناك مكافآت عينية يحصل عليها الشعراء، فقد وفد أبو الفضل بن شرف على المعتصم، يشكو عاملاً له، نازعه في أرض كان يحرق فيها، وأنشد بين يديه: البسيط

لَمْ يَبْقَ لِلجُورِ فِي أَيامِهِمْ أَثَرٌ غَيْرَ الَّذِي فِي عَيُونِ الْغَيْدِ مِنْ أَثَرٍ

(١) انظر: الصحاح، ولسان العرب، والقاموس المحيط، مادة: بدر، والعمدة/ ابن رشيق: أبو علي الحسن القيرواني (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م، ج ٢، ص ١٠٩١.

(٢) انظر: النفع: ج ٥، ص ١١٢-١١٣.

(٣) هو مصعب بن محمد بن الفرات القرشي البغدادي، ولد بصقلية سنة ٤٢٣هـ، وخرج عنها لما تغلب الروم عليها قاصداً المعتمد، توفي سنة ٥٠٦هـ، (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢م ١، ص ٣٠١، والأعلام: ج ٣، ص ٣٣٤).

(٤) انظر: الذخيرة: ق ٤م ١، ص ٣٠١-٣٠٢.

(٥) المصدر نفسه: ق ٣م ١، ص ٣٣٦-٣٣٧.

فقال له المعتصم: كم في القرية التي تحرث فيها؟ فقال: فيها نحو خمسين بيتاً، فقال له: أنا أسوئك جميعها لهذا البيت الواحد، ثم وقع له بها، وعزل عنها نظر كل وال^(١).

المكافآت المعنوية :

تعرفنا -فيما سبق- إلى جانب من المكافآت التي كان الشعراء يتقاضونها لقاء مدائحهم، التي كانت نقدية، كما لاحظنا، ونود الآن التعرف إلى مكافآت أخرى، ربما تكون أكثر خطراً وأبعد أثراً، وهي المكافآت المعنوية، التي نقصد بها المناصب السياسية والقيادية والأدبية، التي تربط الشاعر عادة بالبلاط، ويلقى الشعراء فيها معاملة طيبة^(٢)، خاصة إذا علمنا أن الشعر في الأندلس كان « من العناصر التي تقدم المرء في الحياة السياسية، وترقى به إلى المناصب العالية »^(٣)، فها هوذا المعتمد بن عباد كان « لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً، حسن الأدوات »^(٤).

وقد كان هذا الاختيار دالاً على فطنة الأمراء وبعد نظرهم، فالشاعر يستطيع بثقافته الأدبية أن يشغل هذه الوظائف، التي تتطلب أيضاً -من شاغلها إلى جانب الذكاء السياسي، القدرة على كتابة النصوص الأساسية للوزارة^(٥).

ومن الشعراء الذين بلغوا أعلى مناصب الدولة في عهد الطوائف « ابن زيدون وابن عمار وابن عبدون، وكانوا يتقاضون رواتب ضخمة »^(٦).

وربما أبيات قليلة من الشعر يلقاها الشاعر بين يدي أمير، تصادف هوى في نفسه

(١) النفح: ج ٤، ص ٣٥٥.

(٢) انظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ص ٨١.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة: ص ٧٢.

(٤) المعجب: ص ١٦٢.

(٥) انظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ص ٨١.

(٦) عصر الطوائف والمرابطين: ص ٨٢.

واعجائياً منه، ترفع الشاعر إلى أعلى الدرجات^(١).

وقد تكون البراعة والإجادة في الشعر سبيلاً للشاعر إلى تبوء مكان أدبي مرموق، كالرياسة على الشعراء مثلاً، وقد لاحظنا كيف نصب المعتضد بن عباد الشاعر ابن جاج رئيساً على الشعراء، بعد أن أعجب بشعره^(٢).

سفارات الشعراء

لم تكن السفارة في العصور القديمة من تاريخ أمتنا الإسلامية تتسم بالتمثيل الرسمي، لدولة ما داخل دولة ما، ولكنها كانت نوعاً من النشاط السياسي الذي يلجأ إليه الحكام حين يعزب لهم أمر أو تضطربهم حاجة^(٣)، عندئذ يتدبون من يروونه كفواً للقيام بهذه المهمة خارج حدود دولتهم.

وفي الأندلس، وقد تفككت إلى دويلات بعد انفراط عقد الخلافة، احتاج ملوكها إلى من يسفر بينهم في الداخل، ويسفر بينهم وبين الدول الأخرى في الخارج

ونظراً لخطورة المهمة الموكلة إلى السفير، ولحاساسية موقفه، وانعكاس ذلك على دولته التي يمثلها، فقد حرص ملوك الدول على اختيار سفرائهم وفقاً لمؤهلات ومقومات متوافرة فيمن يختارون لهذه المهمة^(٤)، وما ينبغي أن يتميز به السفير أن يكون «مذكوراً وسيقاً مسيماً، لا تقتحمه العين، ولا يزدري بالخبرة، عفيفاً جيد اللسان، وحسن البيان، حاد البصر، ذكي القلب يفهم الإيماء، وينظر الملوك على السواء»^(٥)، بالإضافة إلى حفظ الأسرار والوفاء

(١) انظر : الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٦٥-٣٦، والنسخ: ج ٤، ص ٣٢٥-٣٢٦، ٢٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ج ٦، ص ٢٠-٢١.

(٣) انظر : الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، عمر كمال توفيق، مؤسس شباب الجامعة الإسكندرية، ص ١٢٠.

(٤) انظر: التاج في أخبار الملوك: ص ٢١٤.

(٥) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء/ القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة، ١٩٦٣م، ج ١، ص ١١٦.

بالعهد^(١)؛ يقول ابن حزم: الطويل

رسولك سيف في يمينك فاستجد حُساماً ولا تضرب به قبل صقله

فمن يك ذا سيف كهام قضره يعود على المعني منه بجهله^(٢)

وقد كان الحرص على السلام بين الأمراء وتجنب الحروب، وتنقية الأجواء التي كانت تتعكر ما بين الحين والآخر بينهم تأتي في أولويات المهام التي يقوم بها السفير^(٣).

وليس هناك وسيلة مؤثرة يمكن أن يستعان بها في هذه المهام مثل وسيلة البيان وقيثارة الشعر، التي كانت، ولا تزال، أمضى حساماً وأبلغ أثراً في النفوس^(٤).

ولا غرابة -إذن- أن يكون من بين سفراء بعض أولئك الأمراء أمثال ابن زيدون وابن عمار، وغيرهما^(٥).

فقد انتدب ابن جهور ~~قزطبة~~ قزطبة ابن زيدون للسفارة^(٦) بينه وبين رؤساء الأندلس فيما يجري بينهم من الترسل والمداخلة، فاستقل بذلك، لفضل ما أوتيته من اللسان والعارضة، فاكسب الجاه والرفعة^(٦)، وانتدبه المعتضد صاحب إشبيلية سفيراً له، بعد أن رحل من قرطبة إليها^(٧).

وكان ابن عمار، وهو من أعظم شعراء الأندلس^(٨) سفيراً بين ملوك الطوائف يعهد

(١) انظر: طرق الحمامة في الألفة والألاف ابن حزم الأندلسي: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ)، ضبط نصه وحرر هوامشه الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧م، ص ٤٧.

(٢) المصدر نفسه وامكان ذاته.

(٣) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ص ٢٦٥.

(٤) انظر: النفح: ج ٥، ص ٩٨-٩٩.

(٥) انظر: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ص ٢٦٢.

(٦) الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٩١، وانظر: ديوان ابن زيدون: ص ٢٩٤، ودول الطوائف: ص ٢٥.

(٧) انظر: ديوان ابن زيدون: ص ٥١.

(٨) انظر: دول الطوائف: ص ٧٠.

إليه بجهام الأمور، ويتبدونه في سفاراتهم^(١).

وكان للمعتصم بن صمادح سفير هو أبو الأصبح بن أرقم^(٢)، وكان «آية الله في الوفاء»، وأرسله المعتصم إلى المعتمد بن عباد، فأعجبت المعتمد محاولته، ووقع في قلبه، فأراد إفساده على صاحبه، وأخذ معه في أن يقيم عنده، فقال له: ما رأيت من صاحبي ما أكره فأوثر عند غيره ما أحب، ولو رأيت ما أكره لما كان من الوفاء تركي له، في حين فوض إلى أمره، ووثق بي، وحملني أعباء دولته، فاستحسن ذلك ابن عباد، وقال له: فاكم علي، فلما عاد إلى صاحبه سأله عن جميع ما جرى له، فقال له في أثناء ذلك: «وَجَرَى لِي مَعَهُ مَا إِنْ عَلِمْتُكَ بِهِ خَفْتُ أَنْ تَحْسَبَ فِيهِ كَالَامْتَنَانِ وَالِاسْتَظْهَارِ، وَتَظُنَّ أَنَّ خَاطِرِي فَسَدَ بِهِ، وَإِنْ كَتَمْتُكَ لَمْ أَوْفِ النَّصِيحَةَ حَقَّهَا، وَخَفْتُ أَنْ تَطْلُعَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِي، فَيَحْظَى ذَلِكَ مِنْ عَيْنِكَ، وَتَحْسَبَ فِيهِ كَبِيرًا، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فِي أَنْ يَعْلَمَهُ، فَأَعْلَمَهُ بَعْدَ أَنْ تَلَطَّفَ. هَذَا التَّلَطُّفُ^(٣)».

وتشير الأخبار السابقة إلى أن الأمراء كانوا يحسنون اختيار السفراء الذين يمثلونهم عند الأمراء الآخرين، وأن الأمراء كانوا يتنافسون في استقطاب الشخصيات المؤهلة لشغل هذا المنصب، كما تشير إلى أن الوفاء سمة السفير الناصح مع أميره المخلص لدولته، فقد لاحظنا أبا الأصبح يرفض مغريات ابن عباد، ليبقى لديه، ويؤثر البقاء مع أميره المعتصم.

ولم يكن المعتمد بن عباد أقل شأنًا من غيره في حسن اختيار من يتدبهم

(١) انظر: الذخيرة: ق ١٣م، ص ٢٥٢، ودول الطوائف: ص ٦٨.

(٢) هو عبدالعزيز بن محمد بن أرقم النميري، سكن المرية، وأقام بدانية مدة عند إقبال الدولة علي ابن مجاهد العافري، ثم صار إلى المعتصم بن صمادح، وكان من وجوه رجاله ونبهاء أصحابه، توفي في خلافة المعتمد بن عباد. (انظر ترجمته في: القلائد: ١م، ص ٦١، والذخيرة: ق ٣م، ص ٣٦٠).

(٣) النفح: ج ٥، ص ٤٦.

لسفاراته، فقد أوكل إلى ابن عمار القيام بمهمة خارج دولته، ونجح فيها نجاحاً كبيراً، حيث استطاع أن يصرف الأذفونش عن أراضي إشبيلية «بألف حيلة وأيسر تدبير»^(١).

ويأتي اختيار الأمراء للسفراء الشعراء في إطار التقليد السائد المتبع الذي سار عليه خلفاء الأندلس منذ عهد مبكر، فقد «اختار خلفاء الأندلس سفراء بينهم وبين دول إفريقية والإفرنج وبني العباس من الشعراء الحكماء ليحضرُوا مجالس هذه الدول، ويفضوا النزاع ويقضوا الأمور المطلوبة منهم، بمنطقهم وحكمتهم وشعرهم، الذي كان يعجب حكام هذه الدول، فيطلبون من شعرائهم الإجابة شعراً عن قصائد الشعراء، لحسن موقعها عندهم، فيقضون لهم سفاراتهم قبل جلوسهم أحياناً، لما يمتاز به شعرهم من جودة وتأثير في النفوس»^(٢)، وكان الشعر في هذه المجالس لغة التخاطب بين السفراء وبين من يحلون عليهم من أمراء ووزراء وقادة^(٣).

وكان الأمير يخطر مسبقاً بقدوم السفير، ليتم الاستئذان له والاستعداد لاستقباله^(٤)، وربما كان ذلك الإخطار شعراً، فقد قدم أبو الأصبغ إلى المعتمد بن عباد سفيراً من قبل المعتصم، «فلما دنا من حضرته كتب إليه شعراً، منه: البسيط

يا ملكاً عظمته العرب والعجمُ وواحداً وهو في أثوابه أممُ
إنا وردناك والأقطار مظلمة والبدر يرجى إذا ما التحت الظلم»^(٥)

وقد كان الشعر المنشد - أثناء هذه السفارة - إما رسالة من أمير إلى أمير آخر، وإما

(١) المعجب : ص ١٧٨.

(٢) النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب: هدى شوكة بهنام، دار الرائد العربي، بيروت، ص ١٧٩، ط ٢، ١٩٨٤ م.

(٣) انظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ص ٨٣.

(٤) انظر: صبح الأعشى: ج ٤، ص ٥٨-٥٩.

(٥) الفلاند: م ١، ص ٦١-٦٢.

أن يكون من عمل الشعراء أنفسهم، ومن الأول: هذه المقطوعة الشعرية التي بعث بها المعتضد بن عباد مع ابن زيدون إلى مجاهد العامري أمير دانية: البسيط

عرفتُ عَرَفَ الصَّبَا إِذْ هَبَّ عَاطِرُهُ من أَفَقٍ مَنَ أَنَا فِي قَلْبِي أَشَاطِرُهُ
نَأَى الْمَزَارُ بِهِ وَالْبَدَارُ دَانِيَةً يَا حَبْدَا الْفَالُ لَوْ صَحْتُ زَوَاجِرُهُ
خَلِّي أَبَا الْجَيْشِ هَلْ يُقْضَى الْلِقَاءُ لَنَا فَيَسْتَفِي مِنْكَ قَلْبٌ أَنْتَ هَاجِرُهُ
قَصَارُهُ قِصْرٌ إِنْ قَامَ مَفْتَخَرًا لِلَّهِ أَوَّلُهُ مَجْدًا وَآخِرُهُ^(١)

وقد كان الهدف من هذه الرسالة الشعرية الرقيقة تدعيم أواصر القربى، وتمتين عرى الصداقة، وتعزيز جسور المودة والمحبة بين الأميرين، وهذه الرسائل من شأنها إزالة رواسب الخلافات، وتذويب جليد السخائم والإحن من النفوس، وتبقي على روح السلام والأخوة بين الأمراء، ولا شك أن مجاهداً أو أحد شعرائه ممن كان حاضراً وقت قراءة الرسالة قد رد على تلك الرسالة بمثلهما، إن لم يكن بأحسن منها، تحمل مشاعر مجاهد إلى صديقه المعتضد.

ومن الثاني: ما يحكى: «أن الوزير أبا عثمان بن شتفير وأبا عمر بن غند شكّب وفدا رسولين على المعتمد بن عباد، من لدن إقبال الدولة بن مجاهد والمعتصم بن صمادح والمتقدر بن هود، لإصلاح ما كان بين المعتمد وبين ابن ذي النون، فسر المعتمد بهم، وأكرمهم ودعاهم إلى طعام صنعه»^(٢)، وكان المعتمد يتحاشى شرب الراح منذ ولي الملك إلا مع خواصه، وقد أدرك الوفد المؤلف من الشاعرين ذلك، فلما أمر بكتب أجوبيتهم كتب له أبو عمر: الخفيف

بَقِيَتْ حَاجَةٌ لِعَبْدٍ رَغِيبٍ لَمْ يَدْعُ غَيْرَهَا لَهُ مِنْ نَصِيبٍ

(١) ديوان ابن زيدون: ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٢) النفع: ج ٤، ص ٣٦٣.

هي خَيْرَةُ الْمَسَاءِ حَدِيثاً وَأَنَا فِي الصَّبَاحِ أَخْشَى رَقِيبِي

قِيلَ إِنَّ الدُّجَى لَدَيْكَ نَهَارٌ وَكَذَاكَ الدُّجَى نَهَارُ الْأَرِيبِ

فَتَمْنِيتُ لَيْلَةً لَيْسَ فِيهَا لِذَكَاءِ ذَلِكَ السَّنَا مِنْ مَغِيبِ

حَيْثُ أُعْطِيَكَ فِي الْخَلَاءِ وَتَعْطِيَنِي مُدَاماً كَمَثَلِ رِيقِ الْحَبِيبِ

فسر المعتمد وانبسط بانبساطه، وضحك من مجونه، وكتب له: الخفيف

يا مجاباً دعا إلى مستجيبٍ فسمعنا دُعَاءَهُ مِنْ قَرِيبِ

إِنْ فَعَلْتَ الَّذِي دَعَوْتَ إِلَيْهِ كُنْتَ فِيمَا رَغَبْتَ عَيْنَ رَغِيبِ

واستحضره فنادمه، خالياً، وكساه ووصله، وانقلب مسروراً^(١)، وفعل ذلك مع

رفيقه أيضاً.

ويمكن أن نستنتج من هذه الحكاية أن السفارة كانت وسيلة من وسائل إصلاح ذات

الدين بين ملوك الطوائف، وأن الوفد المكلف بتلك المهمة كان ممن يحسنون قول الشعر،

وأن الوفد المبعوث كان وفداً رفيع المستوى، بحجم المهمة التي كلف بها، لذلك لقي من

الحفاوة والتكريم ما يليق بوفد في مستواه، وأن تلك المقابلة قد تخللها شعر ينشد، بين

ييدي الأمير، وأن المجاملة التي قبول بها الوفد لا تختلف عن أسلوب حكام عصرنا،

أثناء استقبالهم للوفود الأجنبية، كما يمكننا أن نستنتج -أيضاً- من هذه الحكاية والتي

قبلها أن المعتمد بن عباد كان يتمتع بثقل سياسي وعسكري ونفوذ كبير، في ذلك

العصر، الأمر الذي جعل كثيراً من ملوك الطوائف يخطبون وده، ويطلبون رضاه،

ويتوسط بعضهم لبعض عنده، كي يأمنوا جانبه، ويظفروا بحسن علاقته بهم.

وقد يتعرض بعض الرسل، لدى من أرسلوا إليهم، للحبس خلافاً للعهود

والمواثيق، التي تقضي بعدم التعرض لهم بأذى^(٢)، فيكون الشعر سبباً للإفراج عنهم

(١) المصدر السابق والمكان ذاته.

(٢) انظر: الدبلوماسية الإسلامية، ص ١٢٥-١٢٦.

ونيل خرياتهم، ومن ذلك ما يروى من أنه كان لابن عبد البر ابن أديب وكاتب بليغ
ضمه مجاهد العامري إلى كتاب دواوينه، وظل يترقى حتى أصبح رئيساً لكتاب
الدواوين في عهد ابنه علي، ويظهر أن علياً هذا أرسله بمهمة إلى المعتضد بن عباد
فحبسه في سجنه، مما جعل ابن عبد البر يقصده مستعظفاً له ليرد إلى ابنه حرته،
فقال: الوافر

قصدتُ إليك من شرقٍ لغربٍ لتُبَصِّرَ مقلتي ما ملَّ سَمْعِي

وتعطفتُ المكارمُ نحوَ أصلٍ دعاكمُ راغباً قِيَّ فكُ فرع

فإن جدتمُ به من بعد عفوٍ فليسَ الفضلُ عندكمُ يَدْعُ^(١)

فرد المعتضد إليه حرته، وعاد إلى مكانه، وفي ذلك ما يؤكد مدى تأثير الشعر
على النفوس، ومدى إسهامه في إنجاح السعایات والسفارات.

(١) انظر: المغرب: ج ٢، ص ٤٠٨.

الباب الثاني

شعر المجالس

دراسة في المضمون والبناء الفني والمحفوظات النقدية

الفصل الأول

مضامين شعر المجالس

ح

١- تخليد المناسبات الاجتماعية والأحداث السياسية

تحفل كتب التاريخ والأدب بذكر المناسبات الاجتماعية والدينية والسياسية، التي كان المجتمع الأندلسي يشهدها، ويعيش أحداثها، وقد كان لهذه المناسبات بمختلف أنواعها وأشكالها صدى في الشعر الأندلسي، وفي المجالس الشعرية على وجه الخصوص؛ لأن معظم تلك المناسبات كانت متعلقة بكبار القوم وسادات المجتمع، وكان الشعراء ينتهزون تلك الفرص فيهرعون إلى المشاركة في إحيائها مع وجهاء الناس، ويظفرون من ورائها بالمكافآت العظيمة والجوائز السنية.

وفي عهد الطوائف تلقانا مناسبات كثيرة منها ما هو عام ومنها ما هو خاص، كان للشعر دور بارز في إحيائها ووصفها والثناء على أصحابها، كما سنرى .

أ- تخليد المناسبات الاجتماعية :

سنحاول، في تتبع هذه المناسبات، السير معها وفقاً للأطوار والمراحل التي يمر بها الإنسان ابتداء من المهد وانتهاء إلى اللحد:

التهاني بالمولود الجديد:

لم يترك الشعراء مناسبة صغيرة كانت أو كبيرة إلا شاركوا فيها، خاصة إذا كانت ذات علاقة بالأمراء، فعندما رزق المؤمن بن هود بمولود جاءه الشعراء مهتئين، ومنهم

الشاعر ابن الحداد، يقول من جملة أبيات: المتقارب

فبَشَّرَ سماءَ السَّنا والسَّناءِ بنجمٍ هُدىً لاحَ في آلِ هودِ

بِمُقْتَبَسٍ من شمسِ النفوسِ ومُقْتَدِحٍ من زنادِ السُّعودِ

هلالٌ تالِقٌ من بدرٍ سَعدِ ومزنٌ تحلَّقُ من بحرِ جودِ

شهابٌ من الثَّيرينِ استَطار لإرداءِ كلِّ مريدٍ عَنيْدِ

وَنَصَلَ إِذَا تَمَّ مِنْهُ انْتِصَاءٌ فَوَيْسَحَ الْعِدَا مِنْ مَبِيرٍ مَبِيدٍ
تَبَيَّنَ فِيهِ كُؤُومُ الذِّكَاةِ وَيَا رَبَّ نَارٍ بِمَخْضَرٍّ عُودٍ^(١)

فقد عدد الشاعر للمولود أوصافاً كثيرة خلعتها عليه، فهو هدى للناس ونور، وغيث جادت به السماء، وشهاب مرصّد في وجه الأعداء، وسيف مصلتٌ على نحورهم، والذكاء يتوقّد من بين عينيه، وفي الشطر الأخير من الأبيات استدراك بارع من الشاعر، وكأنه يرد به على اعتراض لما ورد في شعره من مبالغات.

التهاني بالإعذار (الختان) :

لعل أشهر إعذار رأيناه في العهد الطائفي هو إعذار حفيد المأمون بن ذي النون، الذي كان يضرب به المثل في المغرب، ويقال له: الإعذار الذنوني^(٢).

فقد أولم المأمون لهذه المناسبة وليمة أشاد بها المؤرخون^(٣)، حيث وصف ابن حيان (ت ٤٦٩هـ) تلك الوليمة وما أعدّه لها المأمون، وتطرق إلى كثير من تلك العادات والتقاليد التي كان يقوم بها الأمراء في مثل هذه المناسبات، فيذكر كيف يتم إدخال الوفود المهتة، وإلقاء التهاني الثرية والشعرية بين يدي الأمير، وطريقة استقبالهم وإكرامهم والاحتفاء بهم، وكل ذلك يجري وفق مراسم يقوم بتنظيمها صاحب المجلس ووصفاؤه، يقول ابن حيان: «... وقد جلس لهم الأمير المأمون في جانب (من المجلس)، وحفيده في جانب آخر، فأكب الناس عليه يهتفونه، ويلثمون أطرافه، ويتناغون فيما قد رووا وابتدعوا، وهو يشملهم بإقبال طرفه ويعممهم بإجمال رده، فيثنون منه إلى حفيده يدعون له، ثم عدل بهم إلى مكان الأطعمة في المجلس الأول»^(٤).

(١) الديوان: ص ٢٠٣-٢٠٤، والنيران: أحدهما السماك الأعزل والآخر السماك الرامح. انظر لسان العرب: مادة سمك.

(٢) انظر: النفح: ج ١، ص ٤٤٠.

(٣) انظر: الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٣٠-١٣٦.

(٤) المصدر نفسه: ق ٤ م ١ ص ١٢٩.

ولعل ما يفعله زعماء زماننا، حين يستقبلون وفودهم الرسمية في مناسبات مختلفة، لا يختلف عن هذا الذي جرى للمأمون مع وفوده، فإننا نلاحظ هذا التقليداً يزال متبعاً، حيث يتم إجلال الضيوف حول موائد الطعام، وبعد ذلك تلقى الكلمات والقصائد الشعرية، وحين يفرغ من ذلك ينصرف الضيوف إلى الطعام.

وقد كان ينتظر من الشعر في هذا اليوم أن يكون في مستوى عظمة هذه المناسبة، ولندع ابن حيان يحدثنا عن ذلك، حيث يقول: «وصار من مناكيد ذلك الصنيع الملحق به عيب التقصير، عدمه لحذاق من الشعراء يجيدون القول فيه، ويحسنون وصفه، فيوفون المبدع له حقه، إذ ألوى ببقاياهم الزمن العصيف المطال للفتنة، وجاء بأشباه له من شعراء متكلفين»^(١).

وبعد أن يستعرض ما قيل من أشعار، وصفها بالضعف والركاكة، يقول: «فبدا على الشعر يومئذ انكسار، ولحق أخفاة انهيار، وأصم به الناعي مسمعاً يندب شجوه بابن اليمان، منادياً ينادي: يا إدريسه، ولا إدريس يومئذ للقوافي»^(٢).

ولابن حيان على ما قيل من شعر في تلك المناسبة ملحوظات نقدية قيمة-سنعرض لها في حينه عند حديثنا عن النقد- وهي تعكس ماله من نفاذ بصيرة ورؤية عميقة في فهم الشعر وتذوقه، وهي وإن كانت في مجملها ملحوظات انطباعية إلا أنها اشتملت على شيء من التعليل والتحليل قلما نرى مثله لدى الآخرين في عصره.

وفي اعتقادي أن ما حدث للشعر من انكسار في ذلك اليوم لم يكن سببه ضعف الشعراء، وقد كان من بينهم ابن شرف الذي يعد «من فرسان هذا الشأن، وأحد من نظم قلائد الأدب وجمع أشات الصواب، وتلاعب بالمنظوم والمنثور»^(٣)، كما يقول ابن

(١) الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ق ٤ م ١، ص ١٣٨-١٤٠.

(٣) المصدر نفسه: ق ٤ م ١، ص ١٧٠.

بسام، وعلى فرض أن ابن شرف، بعد أن حل بالأندلس وتردد على ملوك الطوائف،
 «بنت شفرته، وطفئت جمرته»^(١)، وأن «الغربة قد فلت غرب طبعه، وغسلت عن
 جوانحه، وأطفأت نار قرائحه»^(٢)، فإن المأمون لن يعدم شعراء جيدين يستطيع
 استقدامهم، وما أكثرهم، فقد كانوا يملأون البلاد، بيد أن المأمون لم يكن له «باع في
 الطلب ولا حظ في الأدب»^(٣)، وطبعي، وحالته هذه، أن يتحاشاه الشعراء الأفذاذ، ولا
 يغشوا مجلسه، خلافا لغيره من أمراء الطوائف أمثال المعتمد وابن صمادح.

وكان من بين من أنشد في ذلك اليوم الأديب عبدالعزيز بن محمد السوسي^(٤)،
 حيث قال : الكامل

لما بنيت من المكارم والعلل ما جاوزَ الجوزاءَ في الإجلال
 عملت رأيك في بناء مكرم ما دار قسطٌ لآملٍ في بال
 لوزاره كسرى أنوشروان لم يصرف إلى الإيوان لحظَ مبال

وبعد الإشادة بالقصر يخلص إلى وصف الراح والإعذار، فيقول :

يا ساقِي الصهباء أين كبارها قد لَذَّ وَرْدُ القهوةِ السلسالِ
 إعدارُ يحيى أبهجُ الدنيا ويث ينَ عذرنا في نخوة المختالِ
 حشد السرور لنا ظهورُ مطهرٍ من عائر الجنباء والبخالِ
 عَرَضٌ من الآلام يجلبُ صحَّةً وطفيفُ نقصٍ فيه كلُّ كمالِ^(٥)

والآيات من حيث موضوعها فيها تخليد لذلك الحدث وتوثيق له، لكنها من

(١) المصدر السابق والمكان ذاته.

(٢) المصدر نفسه والمكان ذاته.

(٣) المصدر نفسه: ق ٤م ١، ص ١٥٠.

(٤) هو عبدالعزيز بن محمد السوسي، كان أحد الشعراء الذين وفدوا على المأمون بن ذي النون،
 للاحتفال بمناسبة إعدار حفيده، (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٤م ١، ص ١٢٦).

(٥) المصدر نفسه: ق ٤م ١، ص ١٢٦-١٢٧.

الناحية الفنية ضعيفة وركيكة ذات تقريرية مباشرة، تعكس مدى تراجع الشعر في ذلك البلاط، وعدم اكتراث الشعراء بما يقدمون؛ لعلمهم أن المأمون ليس من أصحاب هذا الميدان، وقد كان طبيعياً، والحالة هذه، أن تدرك المأمون سامة من الشعر الذي قيل في ذلك اليوم^(١).

ومهما يكن من شيء، فقد لاحظنا من خلال ما اقتبسناه من أقوال المؤرخين والأدباء عظمة تلك المناسبة، ورأينا شيئاً من تقاليد إقامة مثل هذه المناسبات، وكيف كان للشعر حضور في إحيائها والمشاركة فيها، وتعرفنا على ضعف الأدب في بلاط المأمون من خلال تلك الصورة الضعيفة للشعر الذي قُدِّمَ فيها، ورأينا جانباً من ترف الطوائف وبذخهم وإسرافهم في الإنفاق.

التهاني بالزواج :

وإذا كان ملوك الطوائف قد احتفلوا بمناسبة الميلاد والإعذار، ورأينا كيف احتفى المأمون بهذه الأخيرة، فقد كان لمناسبات الأعراس احتفاء لديهم أضخم وأعظم^(٢).

ومن الطبيعي أن يحضر الشعراء في مثل هذه المناسبات لمجاملة أصحابها بما يقدمونه فيها من ثناء وإطراء وإشادة؛ وهو أمر مألوف ومعتاد، لكن ما يلفت النظر في تلك الأشعار هو اشتغالها على كثير من العادات والتقاليد التي كانت سائدة آنذاك، وربما كانت قصيدة ابن زيدون التي تقدم بها لتهنئة المعتضد بن عباد بمناسبة عقد قرانه هي إحدى هذه القصائد الفريدة، لما احتوت عليه من ذكر واضح لعادات كانت مصاحبة للأعراس في الأندلس، وفيها يقول : الكامل

واطلبُ فسَعْدُكَ يضمنُ الإدراكا	اخطبُ فملككُ يفقدُ الإملاكا
فالصعبُ يُسمحُ في عِنانِ هواكا	واستهو منْ أحمى مراتعها المها
علماً بأنني فيه لستُ أراكا	أسبوعُ أنسٍ محدثٌ لي وحشة
ثقةً بأنك ناعسٌ، فهناكا ^(٣)	فأنا المعذبُ غيرُ أني مشعرٌ

(١) انظر: الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٤٠.

(٢) انظر: النفع: ج ٢، ص ١٧٣.

(٣) الديوان: ص ٤٣٨-٤٤٧، الإملاك: عقد القران، انظر: لسان العرب، مادة ملك.

ويشير البيت الثالث إلى عادة ربما كانت ملتزمة من قبل المتزوجين، وهي احتجاب العريس مع زوجها عن أصدقائه لمدة أسبوع، وقد أفصح الشاعر عن ذلك بما سيلقاه من وحشة أثناء غيابه عنه، وأنه لن يراه طوال تلك المدة، لكنه يتعزى عن ذلك بثقته أن أميره سيكون سعيداً ناعماً هائلاً، ويسمى ذلك الأسبوع المشار إليه بسابع العروس^(١).

التهاني بالأعياد :

وفي الأعياد الدينية وغير الدينية كان الشعراء يشاركون الأمراء في إحياء مناسباتها ويتهجون بحلولها، ويعبرون عن فرحتهم وسعادتهم بها.

الأعياد الدينية :

ولعل المناسبات الدينية كعيد الفطر وعيد الأضحى كانت أكثر حظاً في احتفاء الشعراء بها بين يدي الأمراء، حيث يتهزها الشعراء فرصة^(٢)؛ ليقدموا للأمراء التهاني ويحفظوا بالهبات والجوائز، فقد حضر الأديب أبو محمد بن مالك القرطبي في يوم عيد، ويبدو أنه عيد الأضحى، فجلس المعتصم بن صمادح وأنشد بين يديه أبياتاً يستجديه فيها، ويعاتبه على تقصيره: الطويل

أَمْعَتَصَمًا بِاللَّهِ يَا خَيْرَ مَوْئِلٍ وَأَكْرَمَ مَأْمُولٍ وَأَفْضَلَ وَاهِبٍ

مَضَى الْفَطْرُ وَالْأَضْحَى وَلَا نَيْلَ يُقْتَضَى فَلَمْ أَخْفَقْتُ وَحْدِي إِلَيْكَ مَطَالِبِي

وَكَمْ عَفَّتْ قَدَمًا مِنْ جَزِيلِ مَوَاهِبٍ وَقَدْ خَطَبْتَنِي مِنْ جَمِيعِ الْجَوَائِبِ

سَارَحَلُ عَنْكُمْ دُونَ زَادِ لُبْلُغَةٍ وَتِلْكَ لِعَمْرِي سَبَّةٌ فِي الْعَوَاقِبِ

(١) انظر: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، حسن أحمد النوش، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩٢، ص ١٢٧.

(٢) انظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ص ٢٧٢.

فقال له ذو الوزارتين أبو الأصنع بن أرقم: عياداً بالله يا أبا محمد^(١).

ويأتي موقف المعتصم بن صمادح من الشاعر أبي محمد بن مالك القرطبي مخالفاً لما عرف عنه من اهتمام كبير بالشعراء.

ومن هنا نرى شاعراً آخر متبرماً من بقاءه في ظل المعتصم، وقد حل موسم العيد، فحن إلى أمير آخر هو المعتمد بن عباد، ولم يبال بتصريحه بذلك أمام الملاء، يقول ابن خاقان: «فلما كان يوم العيد وحضر المعتصم شعراؤه، واجتمع كتابه ووزراؤه بعث في طلب عبد الجليل (ابن وهبون) فتأخر وزري بالحال وسخر، وقال: أبعد المعتمد أحضر متدي أو استمطر جوداً أو ندى؟ وهل تروق الأعياد إلا في فئائه أو تحسن الأمداح إلا في سنائه، وأنشد: الطويل

دنا العيد لو تدنولنا كعبة المنى وركن المعالي من ذؤابة يعرب

فوا أسفي للشعر ترمى جماره ويا بعدما بيني وبين المحصب^(٢)

وقد حملة على جرائته تلك علمه بمكانة المعتمد بن عباد بين سائر الملوك، وأنهم جميعاً يخطبون وده ويرهبون جانبه^(٣).

أما بنو عباد فقد كانت أيامهم كلها أعياداً، كما يقول الشقندي^(٤)، لذلك رأينا كثيراً من الشعراء يرتادون بلاطهم، خاصة أيام المناسبات^(٥)، ولابن اللبانة أبيات يصف فيها موكب المعتمد بن عباد، وقد خرج لصلاة العيد، تحفه كتائب من خواصه وحرسه، قد اصطفوا من على يمينه ويساره، في موكب احتفالي بهيج، يقول ابن اللبانة: الكامل

(١) الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٤٠.

(٢) القلائد: م ٢، ص ٧٧١، والذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٤٧٥.

(٣) انظر: تاريخ ابن خلدون: م ٤، ص ٢٠٣.

(٤) انظر: النفع: ج ٤، ص ١٦٦.

(٥) انظر: ديوان ابن زيدون: ص ٤٩٦.

أضحى بك الأضحى رياضاً تُجتلى وَضَحَ السرورُ به ونيلَ النَّائلِ
 زرتَ المصلى يومه في جحافلٍ أعلامه للعالمين موائِلُ
 غَدْرُ الحديدِ عليهم وكائنا بأكفهم للمرهفاتِ جدائلُ
 واثاك جيشُهُم على الجيش الذي يختالُ بالمحمولِ منه الحاملُ
 ومن الجنايب في الطريقِ جنائبُ حسنتِ فقلنا إنهن عقائلُ^(١)

ولابن زيدون مع مجموعة من الشعراء قصائد تهنئة كثيرة. بمناسبة دينية تقدموا بها إلى أبي الوليد بن جهور^(٢).

الأعياد غير الدينية :

شارك الشعراء الأمراء في احتفالاتهم بالأعياد غير الدينية سواء ما كان منها عاماً أو خاصاً، ومن الأعياد العامة : عيد النيروز، وهو «أحد الأعياد الكبرى في الأندلس»، وقد اقترن الاحتفال به بالطبيعة، ووجد اهتماماً كبيراً من الأندلسيين، وهو فارسي الأصل، ويقع في مبدأ السنة في أوائل يناير من كل عام، ويختلط بعيد رأس السنة^(٣).

وقد جرت العادة في مثل هذه المناسبة أن يتقدم الشعراء وغيرهم بالهدايا إلى كبار الشخصيات وفي مقدمتهم الملوك، حيث يروى أن ابن عمار تقدم في هذه المناسبة بهدية إلى المعتمد، وهي عبارة عن رداء من الصوف الأصفر البحري، «وكان يُعَدُّ من أندر الأقمشة في تلك الأيام»^(٤)، بعد أن رأى الناس يقدمون هداياهم الثمينة، وأنشد هذين

(١) شعر ابن اللبابة: جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد، منشورات جامعة البصرة، ١٩٧٧م، ص ٨٢.

(٢) انظر: ديوان ابن زيدون: ص ٣٣١، ٣٨١، ودراسات في الأدب الأندلسي: ص ٨٠.

(٣) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ص ٢٧٢.

(٤) المرجع نفسه والمكان ذاته.

اليتين : الكامل

ولما رأيتُ الناسَ يحتفلون في إهداء يومكَ جنته من بابِه
فبعثتُ نحوَ الشمسِ شبهَ إياتها وكسوتُ متنَ البحرِ بعضَ ثيابه^(١)
فرد عليه المعتمد شعراً مصحوباً بمكافأة كبيرة :
هبة أتتكَ من النُضار ألوفها فأغنمَ جزيلَ المالِ من وهابِه
فالبحر يطفحُ جودَ مالكَ ماخراً لما كسوتَ البحرَ بعضَ ثيابه^(٢)

عيد المهرجان :

نستطيع أن نعد هذا العيد من الأعياد الخاصة، فهو عيد يحتفل به أصحاب الأساطيل البحرية والسفن الحربية، وكان الشعر أحد مظاهر ذلك الاحتفال، حيث يقوم الشعراء بوصف حي للعرض العسكري، الذي تشارك فيه «أصناف مختلفة من القوات العسكرية المسلحة، ومنها الأسطول البحري، فتروح أنواع من السفن الحربية تشق عباب البحر، وقد علاها الفرسان في حال من البهاء والجلال والرفعة، تشير في نفوس الأندلسيين الزهو والفخر، وتلقي في قلوب أعدائهم الرعب والخوف»^(٣).

وقد كان لتلك الحركات الاستعراضية التي يؤديها رجال الأسطول يزوارقهم داخل البحر مشاهد مثيرة ولقطات مذهشة يتمتعون بها الجماهير^(٤)، وكان الشعراء يحضرون مع الأمراء لمشاهدة تلك العروض، فصوروها في أشعارهم أروع تصوير، ووصفوها بأجمل وصف، يقول ابن وهبون : الكامل

(١) المطرب: ص ١٧٢.

(٢) المصدر نفسه والمكان ذاته.

(٣) الشعر الاجتماعي في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف: محمد مولود خلف المشهداني، الجامعة المستنصرية، رسالة دكتوراة/مخطوطة، ١٩٩٠م، ص ٢١١.

(٤) انظر: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ص ١٣٧-١٣٩.

يا حُسَنهُ يوماً شهدتُ زِفافها بنتُ الفضاءِ إلى الخَلِيجِ الأزرقِ
ورقاءُ كانت أَيْكَةً فتصورتُ لك كيف شئت من الحمامِ الأورقِ

فقد صور الشاعر الزوارق في البحر كأنها بنات قد زفت إليه، وقد بدون بملابسهن البيضاء، يخالهن الرائي من بعيد جماماً بيضاء على دوحة غناء، ثم يواصل الوصف فيقول:

ومجادفٍ تحكي أراقمَ رِبْوَةٍ نزلتُ لتكرَع في غدير مُتاقٍ
والماءُ في شكلِ الهواءِ فلا ترى في شكلِها إلى جوارحٍ تلتقي^(١)

حيث يشبه المجادف في سلاستها وانسيابها إلى الماء بحيات تدلت من مكان عال إلى ماء صافٍ رقراق، والماء لشدة نقائه وصفائه قد شف حتى بدت المجادف في باطنه كأنها أرجل تتعانق وأيادٍ تتصافح.

ثم أدلى ابن اللبانة بدلوه، فوصف الزوارق، وهو في وصفه لها لا يختلف عن ابن وهبون، ولا يتجاوز التصوير الحسي لها، إلا أنه يمزج بين وصفه للزوارق وثنائه على المدوح، حيث يقول:

بشرى بيومِ المهرجانِ فإنه يومٌ عليه من احتفائكِ رونقُ
طارَت بناتُ الماءِ فيه وريشُها ريشُ الغرابِ وغيرُ ذلكِ شِوْذُقُ
هزت مجاديفاً إليك كأنها أهدابُ عينٍ للسريقِ تحْدُقُ
وكانها أقلامٌ كاتِب دولة في عَرْضِ قِرطاسٍ تخط وتُمشِقُ^(٢)

وكما شارك الشعراء في هذه المناسبات بالشعر التقليدي شاركوا أيضاً بالموشحات،

(١) الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٥٠٥.

(٢) شعر ابن اللبانة: ص ٧٢.

ومن ذلك هذه الموشحة التي قالها ابن القزاز احتفالاً بيوم المهرجان مازجاً فيها وصف
الفلك بوصف الأمير: مجزوء البسيط

ومهرجان له يوم أنيق منظره

بحر حكي رمله من كل طيب عنبره

والشط قد حله محمد وعسكره

مركباً رجله فلكاً حكته ضميره

فقال عبده له مستحسناً ما يصره

ما أملح المهرجان رمل ينم كالعنبر للواطسي

والفلك كالعقبان والمعصم بالعسكر في الشاطي^(١)

التهاني بالشفاء من المرض :

لقد كان الشعراء يفتشون فرصة براء الأمير من المرض أو غيره من كبار الشخصيات فيهرعون
إليه مهتين له بشفائه من ذلك^(٢)، فعندما اعتل المتوكل صاحب بطليوس وبريء من
سقامه جلس بمجلس للسلام، ورفعت إليه من بطاق النظام، نيف على عشرين قصيدة، فمن شعر
أبي الخطاب عمر بن أحمد التجيبي الطليطلي^(٣) فيه يومئذ من قصيدة قالها : الطويل

نهنيكم بل نحن فيكم نهناً فباسمك يرعانا الإله ويكلاً

وأنت الذي أحللتنا جنة المنى فنحن كما شئنا بها نتبأ^(٤)

(١) ديوان الموشحات الأندلسية: تحقيق سيد مصطفى غازي، منشأة المعارف بالأسكندرية،
١٩٧٩م، ١م، ص ٢٧٥.

(٢) انظر: ديوان ابن زيدون: ص ٤٩٩، ٥٠٤، ٥٠٦.

(٣) انظر: ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٧٣.

(٤) المصدر نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٧٧٧.

ولما خرجت صلات الشعراء قال فيها :

وما اعتل عنا جوده باعتلاله ولكن وجدنا غيبه ليس يهنأ
ينغص شكواه لجدواه عندنا كأننا عطاش البحر في الماء نظماً^(١)

تأبين الموتى :

لقد تتبعنا المناسبات الاجتماعية السعيدة في حياة الإنسان وكان تتبعنا لها على حسب مراحل أطوارها التاريخية، ولاحظنا كيف كانت المجالس الشعرية مواكبة لتلك المناسبات ومسجلة لوقائعها وأحوالها، والآن سوف نختمها بآخر مناسبة اجتماعية متعلقة بالإنسان وهي :

تأبينه بعد وفاته.

ويبدو أن رثاء الشعراء وتأبينهم للموتى على قبورهم عادة، وتقليد مشرقى انتقل إلى الأندلس فيما انتقل من تراث، فقد كان المشاركة يلتزمون هذا التقليد الاجتماعي عندما يفقدون عظيماً، ويفجعون في عزيز عليهم^(٢)، وها هوذا ابن شهيد الأندلسي يوصي أحد أصدقائه^(٣) أثناء علته التي مات منها^(٤) بأن يرثيه عند قبره بعد موته، وكان ذلك تقليداً متبعاً التزمه الشعراء الأوفياء مع أصدقائهم^(٥)، يقول ابن شهيد حين أحس بدنو الموت : الطويل

ولما رأيت العيش ولّى برأسه وأيقنت أن الموت لا شك لاحقى

(١) المصدر السابق والمكان ذاته.

(٢) انظر: الأمالي: ج ٢، ص ١٤٣-١٤٥.

(٣) يذكر صاحب الجذوة وصاحب الذخيرة أن الذي رثى ابن شهيد هو أبو محمد بن حزم، بينما يورد صاحب النفح أن صديق ابن شهيد هو أبو المغيرة بن حزم بن عمران بن عم الفقيه محمد بن حزم (انظر الجذوة: ص ١٣٣، والذخيرة: ق ١ م ١، ص ٣٢٦، والنفح: ج ٢، ص ١٥٣).

(٤) انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٣٢٦.

(٥) انظر: ديوان ابن زيدون: ص ٥٣٠، والنفح: ج ٥، ص ١٠٨، وتاريخ الفكر الأندلسي: ص ٨٠.

تَمَنَيْتُ أَنِّي سَاكِنٌ فِي غَيَابَةٍ بأعلى مهب الريح في رأسِ شاهقٍ
أَدْرُ سَقِيطَ الْحَبِّ فِي فَضْلِ عَيْشَةٍ وحيداً، وحسبي الماءُ ثني المفالقِ
خَلِيلِي مَنْ ذَاقَ الْمُنْيَةَ مَرَّةً فقد ذقتُها خمسين قَوْلَةً صَادِقِ

فالشاعر في الأبيات السابقة يتحسر على ما فرط في أيامه الخالية، فالحياة لا تستحق ما يجمعه الإنسان فيها، فكل شيء ذاهب فيها إلى الزوال، ويكفي الإنسان في هذه الحياة قليل من الزاد يسد به رمقه حتى يلاقي أجله المحتوم، وما عدا ذلك يعد عبثاً وإسرافاً، سيتحسر عليه صاحبه ويندم حين لا ينفع الندم، وفي البيت الأخير يفصح الشاعر عن مرارة تجربة مر بها، ورحلة معاناة تكبدها طوال حياته.

ثم يتوجه الشاعر بالحديث إلى صديقه يدعوه إلى القيام بواجب التأين نحوه بعد موته:

فَلَا تَنْسَ تَأْيِينِي إِذَا مَا فَقَدْتَنِي وَتَذْكَارِ أَيَّامِي وَفَضْلَ خِلَاتِنِي
وَحَرِّكَ بِهِ بِاللَّهِ مِنْ أَهْمَلِ فَنَّا إِذَا غَيَّبُونِي كُلَّ شَهْمٍ غَرَاتِنِ
عَسَى هَامَتِي فِي الْقَبْرِ تَسْمَعُ بَعْضُهُ بِتَرْجِيْعِ سَارٍ أَوْ بِتَطْرِيْبِ طَارِقِ

فالشاعر يلح على صديقه بأن يذكره من بعد وفاته بشعر يهز به وجدان من يسمعه، وفيه تخليد له وعزاء بعد موته، كما أهاب بالشعراء أن يكونوا في معية صديقه أثناء القيام بهذا التأين:

ثم يتحدث الشاعر عن الغاية من ذلك الصنيع، فيقول:

فَلِي فِي أَدْكَارِي بَعْدَ مَوْتِي رَاحَةٌ فَلَا تَنْسَعُونِيهَا عُلَّالَةً زَاهِقِ
وَإِنِّي لِأَرْجُو اللَّهَ فِيمَا تَقَدَّمْتُ ذَنْبِي بِهِ مِمَّا دَرَى مِنْ حَقَائِقِي^(١)

فلما توفي سنة ٤٢٦هـ، قام على قبره طوائف كثيرة من الشعراء، وأبْنَوْهَ بِجُمْلَةٍ مَوْفُورَةٍ مِنَ الْقِصَائِدِ، مِنْهَا قَوْلُ أَبِي الْأَصْبَغِ الْقُرْشِيِّ مِنْ قَصِيدَةٍ يَقُولُ فِيهَا: الطويل

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسي: جمعه وحققه يعقوب زكي، راجعه الدكتور محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص ١٣٣.

شهدنا غريات المكارم والعلأ تبكي على قبر الشهيدي أحمدا
وما زال أهل الدين والفضل والتقى عكوفاً به حتى حسباه مسجدا
أريد بسقيا الغيث إحياء حفرة كدّرنا بها نجم العلأ المتوقدا
أبا عامر بعداً لسهم مصيبة رماك به ريب المنون فأقصدا
لقد فت في نشر الفضائل يافعا وبرزت في جمع الفضائل أمردا^(١)

والآيات- كما نلاحظ - قد اشتملت على معان تقليدية متكررة نجدها في كثير من المراثيات، فالفقيد صاحب مكارم وفضائل، ويشكل موته فجيحة عظيمة ورزءاً كبيراً، بالإضافة إلى الدعاء له بالسقيا لتروي ثراه.

ومن القصائد التي أبى بها ابن شهيد -أيضاً- قصيدة لأبي حفص بن برد منها: الوافر

بفك الترب من ناع نعاني تعنى غيري إليّ وما عدائي
وكيف ولم يسل طرفي بدمع عليه، ولم يُجنّ له جَنائي^(٢)

ويذكر المقرئ في ترجمته للمعتمد بن عباد أنه «اجتمع عند قبره جماعة من الأقوام، الذين لهم في الأدب حصة، ولقضية المعتمد في صدورهم غصة»^(٣)، وهذا يعني أن المعتمد قد أبى على قبره من لدن شعراء كثيرين، وأنهم قد عقدوا له مجلساً شعرياً تأيينياً، «وكان من بينهم البالغ في البلاغة الأمد، شاعره أبو بحر بن عبد الصمد... فقال من قصيدة طويلة أجاد فيها ما شاء، وجلب بها إلى أنفس الحاضرين بعد الأنس إيحاشاً، مطلعها: الكامل

ملك الملوك أسمع فأنادي أم قد عدتكَ عن السماع عوادي

(١) الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٣٣٥. والمغرب: ج ١، ص ٨٥.

(٢) الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٣٣٥.

(٣) أعمال الأعلام: ص ١١٦٥، والنفع: ج ٦، ص ٣٥-٣٦، ج ٥، ص ٣٦٠.

لما خلعت منك القصور فلم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
قبلت من هذا الثرى لك خاضعاً وتخذت قبرك موضع الإنشاد^(١)

(١) المصدر نفسه والمكان ذاته.

ب- تخليد الأحداث السياسية :

لقد واكب الشعراء- في عهد الطوائف- الأحداث السياسية صغيرها وكبيرها، وجعلوا من شعرهم وثائق تاريخية لتلك الأحداث، وقد فطن الأمراء إلى الدور الذي يمكن أن يقوم به الشعراء لتخليد تلك الأحداث والوقائع، فحرصوا على اصطحابهم في حلهم وترحالهم في سلمهم وحروبهم.

التهنئة بمناسبة تقلد مناصب قيادية :

عندما خلع مجاهد العامري على ابنه إقبال الدولة ولاية العهد، كان طبيعياً أن يتقرب الشعراء إليه وإلى أبيه بقصائد يهثونهما فيها بهذه المناسبة، ومن أولئك الشعراء ابن غرسية^(١)، فقد تقدم بتهنئة لولي العهد عبر فيها عن فرحته الغامرة وسعاده البالغة بتنصيبه خليفة لأبيه على العرش بعد موته، كما أشار إلى فرحة سائر مجتمع دانية والجزائر الشرقية بهذه المناسبة، حيث يقول: البسيط

الآن أُطْلِعَ في ليل الرجاء سنا وقابل الصبح والإظلام قد ظعنا
عهد حباك به من ليس يشبهه ملك فأخلص عليه السر والعلنا
ولتلقه بانتهاض لا كفاء له ما إن يُعَدُّ لا مصرأ ولا عدنا^(٢)

التهاني بمناسبة نجاح وفادة في مهمة رسمية :

ذكرنا في الباب الأول عند حديثنا عن سفارات الشعراء أن أمراء دول الطوائف كانوا لا يأمنون جانب الشقاق والتزاع فيما بينهم، وكانت سفارات الشعراء بينهم تلتطف إلى حد ما من عنفوان ذلك الشقاق وتهديء من ثورته، لكن هناك وفادات أخرى تتسم

(١) هو أبو عمار أحمد بن غرسية، وصف بأنه كان شعوبياً، وله رسالة عاتب بها ابن الجزائر لتركه بلاط مجاهد العامري. (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٠٤، والمغرب: ج ٢، ص ٤٠٦).

(٢) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٤٠٧.

بالتابع السياسي، يقوم فيها الوفد بإجراء الصلح مع الدول الأخرى، وتوقيع اتفاقيات معها، وإبرام عهود كالتحالفات والدفاع المشترك ونحوها.

وعندما تتجح وفادة لأمير ما ويحقق من ورائها مكاسب معينة لحكومته يقوم الشعراء بين يديه مهئين له ولوفده بذلك النجاح، ومن ذلك هذه التهئة التي تقدم بها ابن زيدون لابن جهور صاحب قرطبة بمناسبة نجاح وفادة ابنه إلى باديس بن حبوس وعقد الصلح معه وإبرام معاهدة تحالف على صد بني عباد عن قرطبة : الطويل

فداء «لباديس» النفوس وجاده من الشكر- في أفق الوفاء- غمام

فما لحقت تلك العهود ملامة ولاذم- من ذاك الحفظ- ذمام

ومثلك وآلى مثله فتصافيا كما صافت- الماء القراح- مدام

رسيلك في شأو المعالي، كلاكما بعيد المدى- صعب الهموم همام

لعمري لقد أحظيته بوفادة لأسنى كريم أنجبته كرام^(١)

التهاني بالانتصارات العسكرية

التهاني بالانتصارات في الحروب الداخلية:

لقد كانت الحروب الداخلية بين ملوك الطوائف لا تكاد تهدأ في مكان حتى تشب في مكان آخر، أما على الصعيد الخارجي فقد كانت في مد وجزر مع النصارى حتى زالت دويلاتهم على يد يوسف بن تاشفين- كما عرفنا من قبل.

فعلى الصعيد الداخلي كانت تقوم حروب بينهم، وعندما ينتصر طرف على آخر يقوم الشعراء مهئين له ومباركين، وقد كان المعتضد بن عباد من أكثر أمراء الطوائف اجتياحاً وسطواً وضماً لأراضي جيرانه، وتبعه ابنه المعتمد في هذه السياسة، ومن الانتصارات التي حققها المعتضد على جيرانه وأشاد بها الشعراء، معركة خاضها ولده

(١) الديوان: ص ٣٣٥-٣٣٧.

إسماعيل ضد ابن الأفطس وحليفه إسحق بن عبدالله صاحب قرمونة^(١)، وكان من بين هؤلاء الشعراء ابن زيدون، حيث يقول : الطويل

لِيَهْنِ الْهَدَى إِنْجَاحُ سَعِيكَ فِي الْعَدَا وَإِنْ رَاحَ صَنَعُ اللَّهِ نَحْوَكَ أَوْغَدَا
دَعَوْتُ، فَقَالَ النَّصْرُ: لِيِكَ مَائِلًا وَلَمْ تَكُ كَالِدَاعِي يَجَاوِبُهُ الصَّدَى
سَلِ الْخَائِنَ الْمَغْتَرَّ: كَيْفَ احْتِقَابُهُ مَعَ الدَّهْرِ عَارًا بِالْفَسَادِ مَخْلَدَا
رَأَى أَنَّهُ أَضْحَى هَزْبًا مُصَمَّمًا فَلَمْ يَعُدْ أَنْ أَمْسَى ظَلِيمًا مُشْرَدًا^(٢)

ولابن عمار قصيدة في المناسبة نفسها أولها قوله : الطويل

أَلَا لِلْمَعَالِي مَا تُعِيدُ وَمَا تُبْدِي وَفِي اللَّهِ مَا تُخْفِيهِ عَنَّا وَمَا تُبْدِي^(٣)

واجتماع هذين العملاقين : ابن زيدون وابن عمار على مدح الأمير والقائد، دليل على أن إسبيلية قد اقامت مهرجانا ادبيا لهذه المناسبة اسهم فيه الشعراء، ودانوا بمتابته البلاغات الحربية أو الصحف اليومية التي تسجل الأحداث، وتضفي عليها ما يجلي عظمة القائمين بها^(٤).

ذلك أنموذج للانتصارات التي كان يحققها بعض أمراء الطوائف على جيرانهم، ولاحظنا كيف كانت المجالس الشعرية تنعقد على إثرها مسجلة أحداثها ومشيدة بصانعها.

وعلى الصعيد الخارجي، كان النصارى يتحرشون بدويلات الأندلس ويهاجمون أطرافها ما بين الوقت والآخر، وكان أمراء الطوائف نتيجة لاختلافهم على أنفسهم، يواجهون ذلك التهديد فرادى، واستطاع المقتدر سليمان بن هود أن يرد ردمير الطاغية

(١) انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٣٨٥-٣٨٦.

(٢) الديوان: ص ٤٦٧-٤٧٨.

(٣) القلائد: م ١، ص ٢٦٣.

(٤) انظر: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، ص ٢٩٠.

عن بلاده ويحقق عليه انتصاراً أشاد به الشعراء^(١)، ومنهم ابن الخداد حيث يقول: الطويل

مضاؤك مضمون له النصر والفتح وسعيك مقرون به اليمن والنسج

إذا كان سعي المرء لله وحده تدانت أقاصي ما نحاه وما ينحو

بك اقتدح الإسلام زند انتصاره ويضك نار شهبها ذلك القدح

وجلّى ظلام الكفر منك بغرة هي الشمس والهندي يقدمها الصبح

فهم ذهلوا عن شرعهم وحدوده فقد عطل الإنجيل وأطرح الفصح^(٢)

وعندما أحس ملوك الطوائف بالخطر من قبل الروم يتهددهم، ويوشك أن يدهمهم ويتلع بلادهم، قرر المعتمد بن عباد الاستعانة بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين لمواجهة ملك قشتالة^(٣).

فتجهز المعتمد للركوب إليه، وانتهاز الشعراء هذه المناسبة فقاموا بين يديه مودعين ومباركين هذا المسعى الحكيم، ومشيدون بركوب الأمير الأخطار وتجشمه الصعاب والأهوال، وفي ذلك يقول عبد الجليل بن وهبون: البسيط

عزم تجدد فيه النصر والظفر وفكرة خمدت من دونها الفكر

عساك خلت حباب الماء من زرد تعود الخوض فيه طرفك الأثر^(٤)

وقال أبو عبيد البكري^(٥): الطويل

يهون علينا- مركب الفلك- أن يرى محي العلاما نبا مركب الجد

(١) انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٢٧.

(٢) الديوان: ١٧٦.

(٣) انظر: أعمال الأعلام: ص ٢٤٥.

(٤) الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٥٠٣-٥٠٤، والمطرب: ص ١١٩، وأعمال الأعلام: ص ٢٤٦.

(٥) هو أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري من أهل شلطيّش، من رجال اللغة والأدب والمعرفة بالغريب والأنساب والأخبار (ت ٤٨٧هـ). (انظر ترجمته في: القلائد: م ٢، ص ٦١٥، والذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٢٣٢، والخريدة: ج ٢، ص ٥٠٤، والمغرب: ج ١، ص ٣٤٧).

فجزت أجاج البحر تبغي زلاله وذقت جنى الأهوال تبغي جنى الشهد^(١)

وتحقق للمسلمين الانتصار على الروم في معركة الزلاقة الشهيرة^(٢)، فقام الشعراء مشيدين بهذا الانتصار العظيم الذي حققه الخلفاء المسلمون على أعدائهم من الروم، وجلس ابن عباد للناس، وقامت على رأسه الشعراء، وفي ذلك يقول عبد الجليل بن وهبون: «حضرت ذلك اليوم، وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه، فقرأ القارئ: «إلا تنصروه فقد نصره الله»^(٣)، فقلت: بعداً لي ولشعري: والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به»^(٤).

وكان مما قاله ابن وهبون في ذلك اليوم: الوافر

ولم يثبت من الأشياع إلا شقيقك وهو صارمك الحسام

يمان في يدي ماض يمان فلا نأبى الغرار ولا كهام

ولم يحمك طرفك بل فؤاد تعود أن يخاض به الحسام

ثبت به ثبات القطب لما أدار رحاه خطب لا يرام

وقال مخاطباً ملك الروم: الكامل

ستسالك النساء ولا رجال فحدث ما وراءك يا عصام

وراقبها بأرضك طالعات كما تهدي صواعقها الغمام^(٥)

وعندما انتهى ابن وهبون قام يوسف بن عبد الصمد، فقال: الكامل

خضعت لعزتك الملوك الصيْدُ وعنت لك الأبطال وهي أسودُ

(١) الخلة السراء: ج ٢، ص ١٨٦.

(٢) انظر: المطرب: ص ١١٩.

(٣) التوبة: آية ٤٠.

(٤) النفع: ج ٦، ص ١٣٩.

(٥) المطرب: ص ١٢٠-١٢١.

رَأَيْتُ يَنْقُلُ الْجَيْشَ وَهُوَ عَرْمَرَمٌ وَيَعْفُرُ الْجَبَّارَ وَهُوَ غَنِيْدٌ
هَيْهَاتَ لَا تَمْضِي لِحَقِّكَ شَاهِدٌ يَوْمَ الْعُرُوبَةِ شَاهِدٌ مُشْهُودٌ

إلى قوله:

فَاطَمَنَ وَلَوْ أَنَّ الثَّرِيْبَا ثَغْرَةً وَاضْرَبَ وَلَوْ أَنَّ السَّمَاكَ وَرِيْدٌ
إِنَّ الرِّيَاسَةَ وَالتَّفَاسَةَ وَالْعُلَا حُرْمٌ تَدَافَعُ دُونَهَا وَتَذُوْدُ^(١)

ولمختار بني النجار شعر شارك به في تلك المناسبة، يقول فيه: الكامل

ذَلْتُ لِعَزَّتِكَ الْمَلُوكُ الضَّيْدُ يَا مَنْ إِذَا نَقَصَ الزَّمَانُ يَزِيْدُ
وَفَتَحْتُ بَابَ الْغَرْبِ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ وَبَلَغْتَ أَقْصَاهُ فَأَيْنَ تَرِيْدُ

فارتاح ابن عباد من ذلك القول، وقال له: «يا ابن الفاعلة: إلى بغداد»^(٢).

ولابن حمديس أبيات منها: الوا

ثَنِي تَوْحِيْدُكَ التَّثْلِيْثَ مِنْهُ يَعْضُ عَلَى يَدِي قَرْعَ كَظِيْمٍ^(٣)

ومعاني الأبيات التي شارك بها الشعراء في ذلك اليوم كلها تصب في إبراز الصفات العربية للمدوح: من شجاعة وإقدام، وصبر على الشدائد عند اللقاء، ومقدرة قتالية فريدة، وعقلية حكيمة، وآراء حصيفة، والصفات الدينية كالذود عن الدين وحماية بيضة المسلمين، وتحطيم نواقيس الكفر وأوثان المشركين.

وواضح أن المعتمد بن عباد قد استحق هذا الثناء العاطر دون سواه من ملوك الطوائف؛ لأنه تميز عنهم في ذلك اليوم «وأبلى بلاءً حسناً وقاتل قتالاً شديداً»^(٤).

وقد أراد ابن عباد أن يجامل يوسف بن تاشفين، وطلب من الشعراء أن يخصصوه

(١) الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٨١٤-٨١٦.

(٢) المصدر نفسه: المكان ذاته.

(٣) ديوان ابن حمديس: ص ٤٣٧.

(٤) المطرب: ١٢٠.

بشيء من شعرهم ويثنوا عليه، فعندما فرغوا من الإنشاد، قال له المعتمد، وكان لا يحسن تذوق الشعر «أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟ قال لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز»^(١).

التهاني بعودة الحاكم من سفر :

وكان الأمير إذا عاد إلى مقر عرشه بعد زيارة تفقدية قام بها في أرجاء مملكته أو خارجها كان الشعراء ينتظرون قدومه ويعقدون له مجالس شعرية طارئة، فيقفون بين يديه مهئين له بالسلامة وقضاء الوطر والعود المحمود^(٢)، وقد هنيء المعتضد بعد عودته من سفر من قبل الشعراء، وكان في مقدمتهم ابن زيدون، ومن قوله مهتأ : الرمل

أيها الظافر أبشر بالظفر
واجتل التأيد في أبهى الصور
وتفياً ظل سعد تجتني
فيه من غرس المنى أحلى الثمر
قل لساقينا يحرق أكوسه
ولشادينا يصل قطع الوتر^(٣)

وواضح في البيت الثالث أن الشاعر أراد أن يكون الاحتفال خالياً من الشراب والغناء، ففي الأمير عن ذلك غنى.

وربما أفصح الشاعر عن الأثر الذي يتركه غياب الأمير في نفوس رعيته، وعن لهفتهم وشوقهم إليه وخوفهم الشديد عليه، يقول ابن زيدون- أيضاً: الكامل

قسماً لقد وفى المنى ونفى الأسى
من أقدم البشرى بأنك صادر
ليسر مكتئب ويغفي ساهر
ويراح مرتقب ويوفي ناذر^(٤)

(١) انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ٧٨-٧٩.

(٢) انظر: ديوان ابن زيدون: ص ٤٧٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥١٤-٥١٥.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥٠٦.

وبعض هذه المعاني تتكرر في قول الشاعر أحمد بن علي الفرسقي، مهنشاً المعتصم

بن صمادح بقدمه من سفر : المتقارب

إيابك زد الشباب القشيبا وأمن مسودّه أن يشيبا

تبين وتدنو كما تفعلُ الشمسُ حيناً طلوعاً وحين غروباً^(١)

فالشاعر يرسم صورة للمدوح، وهو غائب عن رعيته، فهو موفق في روحاته وجيئاته، مظفر في حله وترحاله ميمون في مقاصده ومساغيه، وغيابه وحشة للنفوس، وظماً للأرواح، وفراغ للأفئدة، وعودته تشرح الصدور وتحيي الآمال، وتبدد الظلمات، ومن أجله تنذر النذور، وتبتهل إلى الله من أجل سلامة عودته القلوب.

(١) الخريدة: ج ٢، ص ١٨٦.

٢- الطبيعة والفجر في المجالس الشعرية

ارتبطت المجالس الشعرية بشرب الخمرة وسط الرياض والمنتزهات وفي أحضان الطبيعة وبين أجوائها الصافية ولياليها المقمرة ارتباطاً وثيقاً، حيث سجلت لنا تلك المجالس وصفاً رائعاً لتلك المنيات والحدائق المتناثرة في طول البلاد وعرضها، فصور الشعراء فيها كثيراً من تلك المشاهدات التي كانت ترصدها عيونهم ومشاعرهم من أزهار وأشجار وأنهار وحدائق، وغير ذلك مما حبا الله به أرض الأندلس.

كما صوروا لنا الخمرة التي كانوا يحتسونها، أو يتغنون بوصفها، وذكروا ألوانها وأحوالهم معها، ووصفوا دنانها وأنيتها، وغير ذلك مما هو مبسوط في أشعار مجالسهم. والباحث يجد نفسه مضطراً للربط بين الحديث عن الطبيعة والحديث عن الخمرة لشدة ارتباط الطبيعة ولصوقها بالخمرة في شعر المجالس، ولأن شعر الطبيعة قلما يخلو من ذكر الخمرة تلك المجالس فيها.

فقد كانت الطبيعة والكأس من أبرز البواعث للشعراء على قول الشعر في الأندلس، يقول الحجاري: «وهم أشعر الناس فيما كثره الله تعالى في بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والطيور والكؤوس، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن...، وأما إذا هب نسيم ودار كأس في كفي ظبي رخيم ورجع بُمّ وزير وصفق للماء خريز... فأولئك هم السابقون السابقون»^(١).

وكان الشعراء -غالباً- ما يخرجون جماعات لقضاء نزهة، وهناك تتفجر القرائح، وتنهل عليهم الخواطر بما يشاهدون فيعبرون عن حسهم وهيامهم^(٢).

ولعل السر وراء تلك النزه الكثيرة والمتكررة، وترددهم على الطبيعة وإقامة مجلس شرب في أحضانها، يرجع إلى عاملين اثنين:

(١) النفع: ج ٤، ص ١٥٠-١٥١.

(٢) انظر: شعر الطبيعة في الأدب العربي، سيد نوفل، مطبعة مصر، ١٩٤٥م، ص ٢٦١.

أما الأول: فهو العامل النفسي، فقد كانوا يهربون إلى ذلك من واقع كانوا يحسون به وشبح كان يتراءى لهم دائماً، متمثل في عدوهم الذي كان يتربص بهم، ويحاول الانقضاض عليهم، كلما أتاحت له فرصة، يقول ابن بسام: «وأودعت هذا الديوان الذي سميت بكتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزية من عجائب علمهم وغرائب نثرهم ونظمهم ما هو أحلى من مناجاة الأحبة... على كونهم بهذا الإقليم ومضاقبتهم لطوائف الروم، وعلى أن بلادهم آخر الفتوح الإسلامية وأقصى خطى المآثر العربية، وليس وراءهم وأمامهم إلا البحر المحيط والروم والقوط»^(١).

ولا شك أن بلادهم، لحساسية موقعها المذكور ومتاخمتها للروم وصراعها الدائم معهم، كانت تتعرض لما يجلب القلق، ويشير الأشجان ويبعث على الحذر والخوف والترقب، لذلك كانوا يلجأون إلى الطبيعة يتنفسون هواءها الطلق وشذى عبقها الفواح، ويغسلون بالخمرة ما جثم على صدورهم من هموم وأحزان.

وأما العامل الثاني: فهو عامل مادي حضاري يرجع إلى تلك الحياة الجميلة الرخية الهنية، يقول أحد الباحثين: «ولعله إلى هذه الأيام الأخيرة لم تطلع الشمس على أمة أسعد ولا أهنأ ولا أرغد عيشاً، ولا أكثر رغبة في التمتع بالجمال والعلوم والأعمال المجيدة من عرب الأندلس»^(٢).

ويمكن أن نفهم مدى العلاقة الوثيقة بين الشراب والطبيعة ذات الماء والشجر والزهر المتفتح، من خلال قول الشاعر أبي بكر بن بقي^(٣): الطويل

عجبت لمن أبقى على خمر دته غداة رأى لوز الحديقة نوراً^(٤)

(١) الذخيرة: ق ١١م، ص ١٤.

(٢) مدينة العرب في الأندلس: جوزيف ماكيب، ص ٢٥.

(٣) هو يحيى بن محمد بن عبدالرحمن بن بقي الأندلسي القرطبي، الشاعر المشهور صاحب الموشحات البديعة، توفي ٥٤٠هـ، (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢م، ص ٦١٥، والمغرب: ج ٢، ص ١٩، ووفيات الأعيان: ج ٢، ص ٢٠٢).

(٤) النفع: ج ٢، ص ١٧.

ومهما يكن من شيء، فقد كانت الطبيعة موضوعاً أساسياً للشعراء في تنزهاتهم الفردية أو الجماعية، التي كانوا يقومون بها، وخاصة إذا أقبل الربيع^(١)، وكانوا يصطحبون معهم أنواعاً من وسائل اللهو والطرب والمتعة، ويقضون أوقاتاً تجلب السعادة والبهجة إلى نفوسهم، «وقد كان كل ما في الطبيعة الأندلسية يحض على عقد مجالس الشراب، فكان أن لاحق الشاعر الأندلسي هذه الطبيعة بالخمير في جميع الأوقات والأحوال»^(٢).

ومن خلال المجالس الشعرية التي سوف نقف عندها سيتضح لنا مدى تلك العلاقة ومدى امتزاج حب الطبيعة بحب الشراب.

لقد كان من متممات السعادة للأمرء في تنزهاتهم اصطحاب الشعراء، ليقضوا معهم أوقاتاً ممتعة في تلك التزه، يتشون بما يسمعون منهم، ويطربون من ثنائهم عليهم، وينشدون بما يجلبونه إلى نفوسهم من روائع لفظ، وحسن وصف، وجمال تصوير، فضلاً عن تخليد تلك التزه في أشعارهم وجعلها بين الناس حديثاً يذكر.

فقد «ركب المستعين بالله يوماً نهر سرقسطة يريد طراد لذته، وارتباد نزهته»^(٣)، فقال أبو الفضل بن حسداي واصفاً ذلك اليوم الذي اصطف فيه الشعراء حول أميرهم يشنون عليه بأعطر الأمداح، ويتبادلون فيه معه أطيب الأقداح: البسيط

لله يومٌ أنيقٌ واضحُ الغررِ مفضضٌ مذهبُ الأصالِ والبكرِ
كأنما الدهر لما ساء أعتبنا فيه بعُتِبَى وأبدى صفحَ مُعتَدِرِ
نسير في زورق حَفَّ السفين به من جانبِسيه بمنظوم ومنشتر

(١) انظر: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨١م، ص ١٥.

(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي: ص ٢٧١.

(٣) النفع: ج ٢، ص ١٧٤.

مَدَّ الشَّرَاعُ بِهِ نَشْرًا عَلَى مَلِكٍ بَدَأَ الْأَوَائِلَ فِي أَيَّامِهِ الْأَخْرِ
هو الإمام الهمام المستعِينُ حَوَى عِلْيَاءَ مُؤْتَمِنٍ عَنْ هَدْيِ مُقْتَدِرٍ
تَحْوِي السَّفِينَةُ مَتَهُ آيَةً عَجَبًا بَحْرٌ تَجَمَّعَ حَتَّى صَارَ فِي نَهْرٍ
تَصَادُ مِنْ قَعْرِهِ النِّينَانُ مُضْعَدَةً صَيْدًا كَمَا ظَفَرَ الْغَوَاصُ بِالْذُرِّ
وَاللِنْدَامَى بِهِ غَبٌّ وَمُرْتَشَفٌ كَالرِّيقِ يَعْذُبُ فِي وَرْدٍ وَفِي صَدْرِ
وَالشَّرْبُ فِي مَدْحِ مَوْلَى خُلِقَهُ زَهْرٌ يَذْكُو وَغَرَّتْهُ أَبْهَى مِنَ الْقَمَرِ^(١)

ففي القطعة السابقة وصف لنزهة قضاهما الأمير مع خواصه وندمائيه، وهي كما يبدو نزهة بحرية أبدع الشاعر في تصويرها ونقل تفاصيلها، فقد كان ذلك اليوم مختلفاً عن سائر الأيام، يوم صفا وراق، وأبدى من الراحة لأصحابه ما جعلهم يشعرون بنشوة فائقة وسعادة غامرة ما عهدوها من قبل، وكأن الدهر قد بدا في ذلك اليوم معتذراً، أهدي إليهم ذلك اليوم السعيد عوضاً عن تجهمه لهم في أيامه الخالية.

وقد بدا الأمير راكباً على متن زورق تحفه السفن من كل جانب زرافات ووحدانا، والصيادون قد جدّوا في استخراج صيد البحر ودرره، والشعراء ينثرون على مولاهام روائع النظم، والجيمع في نشوة طاغية وسعادة بالغة.

وقد كان المعتمد بن عباد أكثر الأمراء كلفاً وولعاً بتلك المجالس التترهية مع خواصه، وندمائيه، وفي القطعة التالية من شعره يعطينا صورة ملوكية للهيئة التي كان عليها مع ندمائه، حيث يتألق في تلك الصورة كل شيء من خمر وبدر وزهر، ونجوم وكواكب، حتى غدا المعتمد مع ندمائه في الأرض صورة مطابقة للسماء ييدرها ونجومها وكواكبها، حيث يقول: الكامل

ولقد شربت الراحَ يسطعُ نورها والليلُ قد مد الظلامَ رداءً

(١) المصدر السابق والمكان ذاته.

حتى تبدى البدرُ في جسورائه ملكاً تنأى بهجةً وبهاءً

وتناهضت زُهرُ النجوم يحفه لالأواها، فاستكمل اللآلاء

وترى الكواكب كالمواكب حوله رفعت ثرياًها عليه لواء

وحكيته في الأرض بين مواكب وكواكب جمعت سناً وسناء^(١)

وفي رحلات الصيد والقنص كانت المجالس الشعرية تنعقد والقرائح ترتجل،

ويتعرض الشعراء لمحك اختبار مواهبهم وسرعة بدائعهم، فقد جلس المعتمد يوماً والبزاة

تعرض عليه فاستحث الشعراء على وصفها استكمالاً للفرحة والمسرة، فارتجل ابن

وهبون أبياتاً من وحي الساعة، يصور فيها إحياء الأمير لسنة الصيد، فقال: الكامل

للصيد قبلك سنة ماثورة لكنها بك أبدع الأشياء

ومضى البزاة كليل أمضيتها عارضتها بخواطر الشعراء^(٢)

وقد عمل المأمون بن ذي النون الشيء نفسه مع شعرائه، فقد كان في «مجلس

الناعورة بالمنية والدولاب بين كناقاة إثر الحوار، أو كثلكى من حر الأوار، والجو قد

عبرته أنواؤه، والروض قد رسته أنداءه، والأسد قد فغرت أفواهها، ومجت

أمواهها... فأمر بوصف ذلك الموضع»^(٣) فقال أبو محمد بن السيد البطليوسي: المنسرح

يا منظرأ إن رمقت بهجته اذكرني حسن جنة الخلد

تربة منك وجو عنبرة وغيم ندى وطش ماورد

والماء كاللازورد قد تطمتم فيه اللآليء فواغر الأسد

كأنما جائل الحباب به يلعب في جانبيه بالنرد

(١) الديوان: ص ٢٨، والنفع: ج ٦، ص ٥٦.

(٢) البداهة: ص ٣٦٩.

(٣) القلائد: م ٢، ص ٧١٥.

تراه يزهر إذا يحلُّ به السقادرُ زهو الكعاب بالعقد^(١)

وواضح من خلال القطعة السابقة التأنق في الصياغة واختيار الألفاظ
البديعة؛ ليلانم الشاعرُ بينها وبين ذلك المنظر البديع الذي «تخب إليه ركاب القلوب»^(٢).
وقد كان الشعراء يوجهون دعوات إلى بعضهم بعضاً للخروج إلى الطبيعة؛ ليقضوا
معاً أوقاتاً سعيدة، فها هو ذا أبو عبيد البكري يدعو خلانه إلى الخروج لتناول الشراب
والاستمتاع بشدو الأنغام وسط الزهور والأنوار، فيقول: الطويل

خليلي، إني قد طربت إلى الكاسِ وتقتُ إلى شَمِّ البنفسج والآسِ
فقوما بنا نلهو ونستمع الغنا ونشرق هذا اليوم سراً من الناس
فليس علينا في التعلل ساعةً وإن وقعت في عُقبِ شعبان من باس^(٣)

ويجسّص الشعراء في تلك المجالس التي كانوا يقيمونها وسط البياض، إلى
الاستمتاع بساعاتهم التي كانوا فيها، واغتنام ما تبقى من أعمارهم في اللهو والمجون قبل
أن يداهمهم الأجل، ولعل في ذلك ما يؤكد ما قلناه في البداية عن الشعور العام بالقلق
والفزع والخوف الذي كان يتتاب المواطن الأندلسي، في تلك البقعة الساخنة وحدودها
الملتبهة، وأن الخروج إلى الطبيعة واحتساء الخمرة في أحضانها كان يخفف عنه كثيراً من
ذلك الشعور، فيذهب إليها لطرح تلك الهموم وغسلها بمنظرها الخلابة الساحرة، وعقب
نسيمها الفواح بأريج زهورها ومروجها الخضراء، وكأن لسان حاله يقول: الطويل

دعيني أصب من متعة قبل رقة تكاد لها نفس الشقيق تزول^(٤)

(١) المصدر السابق: م ٢، ص ٧١٥.

(٢) البداهة: ص ٣٠٩.

(٣) الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٣٨.

(٤) المختار من شعر بشار: ص ٣٢٨.

ويقول: الوافر

تَمَتَّعَ مِنْ سُهَادٍ أَوْ رُقَادٍ وَلَا تَأْمَلُ كَرَىٰ تَحْتَ الرُّجَامِ

فَإِنَّ لثَالِثَ الْحَالِينَ مَعْنَى سَوَىٰ مَعْنَى اتِّبَاهِكَ وَالْمَنَامِ^(١)

ويقول: الوافر

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمٍ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَةِ مِنْ عَرَارٍ^(٢)

لذلك راح الشعراء الأندلسيون ينهلون من ذلك النبع ويرتشفون من ذلك الرحيق، وليس من النادر أو الغريب أن يقضي زملاء الشراب الليل كله في روضة زاهرة، حتى إذا صرعتهم الخمرة استيقظوا من نومهم، وعبروا عن مشاعرهم التي تدعو إلى اغتنام المسرات وانتهاج الملذات وانتهاز الفرص السانحة لإمتاع النفس، على نحو ما نراه لدى أ.هـ القسطونة الثلاثة، فقد « باتوا ثلاثهم ببعض الموضع، تتجافى جنوبهم عن المضاجع، ويتعاطون أدباً كالراح ممزوجة بماء الوقائع، والمدام لهم نقل، والزمان لولاهم غُفْل، إلى أن غازلت السنة أجفانهم، وأجمت قليلاً أذهانهم، فانتبه أبو محمد منهم والصبح قد ومض، والعصفور قد انتفض، فقال: الخفيف

يا شقيقي وافى الصباحُ بوجه ستر الليلَ نوره وبهاؤه

فاصطحب واغتنم مسرة يسوم لست تدري بما يجيء مساؤه

ثم استيقظ أبو بكر وقال: الخفيف

يا أخي، قم تر النسيم عليلاً باكراً الروضَ والمدامَ شمولاً

لا تنم واغتنم مسرة يوم إن تحت التراب نوماً طويلاً

ثم هب أبو الحسن من مرقده، بأذكى ذهن وأوقده، فقال: البسيط

(١) ديوان المتنبي: ج ٣، ص ١٤٩.

(٢) المختار من شعر بشار: ص ٣٢٨.

يا صاحبي ذرا لومي ومعتبتي ولنصطحب خمرةً من خير ما ذخروا

وبادرا غفلة الأيام واغتسما فاليوم خمرٌ ويبدو في غد خبر^(١)

ولابن الصباغ^(٢) أبيات يصف فيها نزهة ليلية قام بها مع لمة من الندماء اصطحبوا فيها كل ألوان اللذائذ والمتع من خمر وجوار وغلمان وآلات طرب، فاستهل ذلك الوصف بقوله: الرمل

رب ليلٍ طال لا صبحَ له ذي نجومٍ أقسمتُ ألا تغورُ

في دجى ليلٍ بهيمٍ حالِكٍ يستوي الأكمه فيه والبصيرُ

فتراها حائراتٍ في الدجى زاهراتٍ كمصاييحٍ تنيرُ

قد هتكنا جناحه عن فلقٍ من خمورٍ ووجوه من بدورُ

فليل الشاعر كان طويلاً، حالِك السواد، أقسمت نجومه ألا تغور، فاستعان هو وأصحابه على تمزيق سواده وهتك حجابهِ واستعجال فلقه بأنوار الخمر وضياء الغلمان الذين حاكوا البدور، عند ذلك ركبوا صهوات الشراب، واطرحوا الحياء والوقار، وعزفوا أجمل الألحان وأعذب الأنغام، نجد ذلك في قوله :

وامتطينا للملاهي مرحاً خيلَ راح بمنائنا تدورُ

صرعنا إذ علونا ظهرها في ميادين التصايي والسرورُ

فنعانا العود في ميتتنا بأبح البسمِ إسعافاً وزيرُ

فرفعنا من كؤوس نكس وفرحنا من عيون بفتورُ

(١) الذخيرة: ق ٢م ٢، ص ٧٧٣، والنفع: ج ٢، ص ١٦٩-١٧٠.

(٢) هو إبراهيم بن خيرة أبو إسحاق، يعرف بابن الصباغ شاعر من شعراء إشبيلية مات بعد الثلاث والأربعين، ذكره أبو عامر بن مسلمة. (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٥٤، والمغرب: ج ١، ص ٢٦٥).

فكأننا حين قمنا معشر^(١) نُشِرُوا بعد ممات من قبور^(٢)

والجميل في الآيات ذلك التصوير الدقيق لحالة الندماء حيث تضمنت عدة مراحل تدرجت شيئاً فشيئاً، فقد كان الندماء في بداية ليلتهم في أوج النشاط والحيوية، فالكاسات تدور والأنغام تشدو والطرب يهز الأبدان والأصوات تتعالى، فسرت حميا الخمر في دمائهم فترنحوا وتمايلوا وفقدوا توازنهم وخفتت أصواتهم وثقلت ألسنتهم، فتساقطوا على الأرض صرعى «كأنهم أعجاز نخل خاوية»، وعندما أشرقت الأرض بنور ربها بدوا في هيئة رثة، وحالة مزرية، ومظهر مبتذل.

وفي القطعة الشعرية التالية لابن حمديس ما يدل على قمة الترف في تناول الشراب، حيث تصور لنا الهيئة التي كان الندماء يتبادلون فيها الكأس، فقد كانت هناك ساقية ماء مستديرة، والندماء مصطفون حولها، فيقوم الساقى بملء الكأس ويدفعه عبر السياقية، فيتناوله أول الشاربين، ويرسله فارغاً، فأخذ الكأس طبقه فماء الساقية حتى يصل إلى الساقى فيملؤه، ثم يرسله فيأخذه الشارب الثاني، وهكذا حتى تنتهي الدائرة، ثم تُعاد الدورة كرة أخرى، يقول ابن حمديس: الطويل

وساقية تُسقي الندامى بمدّها	كؤوساً من الصهباء طاغية السكر
إذا قصدت منا نديماً زجاجةً	تناولها رفقاً بأغله العشر
فيشرب منها سكرةً عنيبةً	تؤمّ عين الصحو منه وما يدري
ويرسلها في مائها فيُعبيدها	إلى راحتي ساقٍ على حكمه تجري

ثم يشبه الشاعر تلك الجلسة المستديرة حول الساقية بمدائن حول خليج تسافر إليها السفن، فيقول :

كأننا على شط الخليج مدائن^(١) تسافر فيما بيننا سفنُ الخمر^(٢)

(١) الذخيرة: ق ١٢م، ص ٢١١-٢١٢.

(٢) ديوان ابن حمديس: (٤٤٧-٥٢٧هـ): صححه وقدم له إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص ١٩٣.

وقد أكثر الشعراء في تلك المجالس من وصف الخمرة وكاساتها وألوانها وسقاتها،
وبدا ذلك واضحاً في أشعارهم، فيها هوذا إدريس بن اليمان يصف الكأس بأنها تخف
حين تكون ممتلئة بالراح، وتثقل حين تكون فارغة، ويشبه ذلك بجسم الإنسان والروح،
فالجسم يكون خفيفاً بالروح، ثقيلاً بدونها، حيث يقول : الكامل

ثقلت زجاجات أتنساً فرغاً حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت وكذا الجسوم تطير بالأرواح^(١)

ويتعاور الشعراء بالبديهة وصف الساقى والخمر، يقول المعتمد في جارية « بينما
هي تسقيه إذ لمع البرق فارتاعت : السويح

روعها البرق وفي كفها برق من القهوة لَماع
عجت منها وهم شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع

ومن توارد الخواطر أن ابن عباد أنشد عبد الجليل بن وهبون البيت الأول، وأمره أن
يذيله، فقال : السريع

ولن ترى أعجب من أنس من مثل ما يمسك يرتاع^(٢)

وقد كان الساقى يحتل مكاناً بارزاً في شعر مجالس الشراب، لذلك تخبروه من
الفتيان أو الفتيات الجميلات المثيرات لإعجاب الندماء الحاملات لهم على التغزل بهن،
ومن ذلك أن الوزير أبا العلا بن زهر دخل على الأمير عبد الملك بن رزين في مجلس
أنس، « وبين يديه ساق يسقي خمريين : من كأسه ولحظه، وييدي درين من حبابه
ولفظه، وقد بدا خط عذاره في صحيفة خده، وكمل حسنه باجتماع الضد منه مع
ضده، فكأنه بسحر لحظه أبدى ليلاً في شمس، فسأله ابن رزين أن يصنع فيه، فقال

(١) الذخيرة: ق ١٣م، ص ٣٤٤.

(٢) المطرب: ص ١٥، والنقح: ج ٦، ص ٣٩.

بديهاً : الطويل

تضاعفَ وَجْدِي إِذْ تَبَدَّى عِذَارُهُ وَنَمَّ فُخَانُ الْقَلْبِ مِنِّي اصْطِبَارُهُ
وَقَدْ كَانَ ظَنِّي أَنَّ سَيَمْحَقَ لَيْلُهُ بِدَائِعِ حَسَنِ هَامٍ فِيهَا نَهَارُهُ
فَظَهَرَ ضِدُّ ضِدِّهِ إِذْ وَشَّتْ بِهِ بَعْبِرُهُ فِي صَفْحَةِ الْخَدِّ نَارُهُ

واستزاده فقال : الخفيف

مُحِبِّتُ آيَةِ النَّهَارِ فَاضْحَى بَدَرَ تَمُّ وَكَانَ شَمْسُ نَهَارِ
كَانَ يَغْشَى الْعَيُونَ نُوراً إِلَى أَنَّ شَغَلَ اللَّهُ خَدَّهُ بِالْعِذَارِ^(١)

وفي الأبيات التالية ما يدل على أنَّ الساقى كان فتاة صغيرة وضاءة الوجه استطاعت أن تكابد السهر وتحمل مشقته مع الندماء، يقول ابن شهيد : مخلف البسيط

أَفْلَدِي أَسِيْمَاءَ مِنْ نَدِيمٍ مَلَاظِمَ لِلْكُؤُوسِ رَأْسُ
قَدْ عَجَبُوا فِي السَّهَادِ مِنْهَا وَهِيَ لِعَمْرِي مِنَ الْعَجَائِبِ
قَالُوا : تَجَافَى الرِّقَادَ عَنْهَا فَقُلْتُ : لَا تَرْقُدِ الْكُؤُوبُ^(٢)

ومن الشعر الغزلي المجاني في الساقى هذه الأبيات التي يفصح فيها ابن عمار في مجلس المؤتمن بن هود عن هيامه بساق، بدا قمرأ وتمايل غصن بان، حيث يقول : الكامل

وَهَوَيْتَهُ يَسْقِي الْمُدَامَ كَأَنَّهُ قَمْرٌ يَدُورُ بِكُؤُوبٍ فِي مَجْلِسِ
مُتَنَاحٍ الْحَرَكَاتِ يَنْدَى عَطْفُهُ كَالْغُصْنِ هَزَتْهُ الصَّبَا بِتَنْفَسِ

وقد سقى الحاضرين بكأسين : كأس تحملها أطرافه الناعمة الرقيقة، وأخرى يحملها قوامه المشقوق، المعطر بأريج الزهور، وعبق الورود :

(١) البداهة : ص ٣١٠-٣١١ .

(٢) الديوان : ص ٩٤ .

يُسْقِي بِكَاسٍ فِي أَنَامِلِ سَوَسَنِ وَيَدِيرُ أُخْرَى مِنْ مُحَاجِرِ نَرْجِسٍ

ثم يوجه تحذيراً إلى فارس الوغى ومجنّدل الشجعان بأن لا يستهين بذلك الفارس
المقنع، فَتَحَتَ قِنَاعَهُ سِلَاحٌ مَاضٍ وَسُلْطَانٌ قَاهِرٌ لَا يَصْمَدُ أَمَامَهُ أَحَدٌ :

يَا حَامِلَ السِّيفِ الطَّوِيلِ نِجَادُهُ وَمُصْرَفَ الْفَرَسِ الْقَصِيرِ الْمَحْبَسِ

إِيَّاكَ بَادِرَةَ الْوَغَى مِنْ فَارِسٍ خَشَنَ الْقِنَاعِ عَلَى عِذَارِ أَمْلَسِ

جَهْمٍ وَإِنْ حَسَرَ الْقِنَاعَ فَإِنَّمَا كَشَفَ الظَّلَامَ عَنِ النَّهَارِ الْمَشْمَسِ

ثم يغار الشاعرُ من ذلك القناع الذي يلامس خذّه ويعبث بمأطّر من شعر عليه،
ولأن القناع كان بخشوته قاسياً على ذلك الخد الناعم، راح يشبهه بالمهر الجامح الذي
يعبث بلجامه :

يَطْفِي وَيَلْعَبُ فِي دَلَالِ عِذَارِهِ كَالْمَهْرِ يَلْعَبُ فِي دَلَالِ الْجَاهِ الْمَجْرَسِ

ثم يعترف الشاعر ويقر بالهزيمة، ويطلب من ذلك الفارس التلطف معه والمسألة،
مستغنياً عن الخمرة التي يحملها بيده، فقد شربها من عينيه كلُّ من كان في المجلس :

سَلِّمْ فَقَدْ قَصَفَ الْقَنَا غُصْنُ النِّقَا وَسَطًا بَلِيثَ الْغَابِ ظُبِي الْمَكْنَسِ

عَنَا بِكَاسِكَ قَدْ كَفَتْنَا مُقَلَّةً حَوْرَاءُ قَائِمَةٌ بِسُكْرِ الْمَجْلِسِ^(١)

وإذا كانت الطبيعة والخمرة امتزجتا في شعر المجالس، فإن الغزل كان له حضور
أيضاً إلى جانبهما، وحضوره في شعر الطبيعة أمر مألوف ومعروف، فكثيراً ما صُدّرت
القصائد بأبيات غزلية تكون مدخلاً إلى وصف الطبيعة أو نحو ذلك، لكننا لاحظنا في
شعر المجالس التنزهية ندرة ذلك •

ويبدو لي أن السبب في ذلك هو أن شعر المجالس دائماً ما يستمد موضوعاته من

(١) النفع: ج ٤، ص ٢٩٣ .

مشاهدات الشعراء المائلة أمامهم، وإذا نحن رأينا شيئاً من الغزل في أشعار قيلت أثناء مجلس تنزهي فإن بعضه يرد إلى منظر يشير ذكريات الشاعر الموله المفتون بفتاة يهواها، عند ذلك يضمن الشاعر ما ينشد شيئاً من ذكر المحبوب، يقول أبو عبدالله بن السراج المالقي، وكان في نزعة مع صاحبه ابن الغليظ : الطويل

شربنا على ماء كأنَّ خريزَه خريزُ دموعي عند رؤية أزهرِ
حلفتُ بعينها لقد سفكتُ دمي بأطرافِ فتانٍ والحاظِ جُودرِ

وطلب من صاحبه أن يجيز قوله :

شربنا على ماء كأن خريزه

فقال مبادراً :

كأن محب بان عنه حبيب

فمن كان مشغولاً كثيراً يالفه فإني مشغوفٌ به وكثيرٌ^(١)

والطبيعة لم تحظ بشعر جماعي في أي مجتمع وأي عصر كما حظيت به الطبيعة الأندلسية. صحيح أن هناك شعراء تعلقوا بحب الطبيعة وعقدوا معها صفة والفة، وعكفوا على وصفها، والترنم والتغني بجمالها وسحرها كالصنوبري (ت ٣٣٤) في الشرق، وابن خفاجة (٤٥١-٥٣٣هـ) في الغرب^(٢)، وكتاب « البديع في وصف الربيع » لأبي الوليد الحميري الإشبيلي (ت ٤٤٠هـ) أكبر دليل على ذلك، إلا أن الطبيعة الأندلسية كانت تشد الشعراء دوماً فيخرجون إليها ويتغنون بمفاتنها ومحاسنها، ويكفي أن تدخل باكورة نرجس على أحد ملوك الطوائف وهو المعتمد بن عباد، فيدعو ندماءه وسماره إلى عقد جلسة شغرية طارئة ابتهاجاً بهذا الزائر العزيز، ويكون ذلك سبباً

(١) الذخيرة: ق ٢١٠، ص ٨٧٢.

(٢) انظر: «مسالك الشعر في الغرب الإسلامي»، في محراب المعرفة: ص ٥٨.

وبعد المجلس الشعري الذي عقده المعتضد بن عباد مع كوكبة من كبار شعراء الأندلس أكبر تظاهرة أدبية احتفالية ابتهاجاً بقدوم فصل الربيع، وقد كان موضوع المطارحة الشعرية بين هؤلاء الشعراء وصفاً لروضة مزهرة، وجرى خلال المطارحة معارضات ونقض ونقد^(١).

ونود أن نأتي على ذكر جانب من تلك المقطوعات، للوقوف على مدى براعة أولئك الشعراء، حيث التزموا فيها الموضوع والبحر والقافية، وأنشدت ارتجالاً وبديهة، يقول عنها ابن بسام: « فأذكر هاهنا قطعاً من الشعر، ماضرها أن لم تكن قطعاً من الزهر »^(٢).

يقول أبو الأصبع، وكان أحد أولئك الشعراء : المجتث

يا من تأمل روضاً	به النواوير عـصه
وعاين الحُسن منها	قد زينَ البعضُ بعضه
فالأقحوانُ يياضٌ	كأنه سِمْطُ فضة
والترجسُ الغضُّ تبرٌ	في صُفرةٍ منه محضه
والسوردُ ماءٌ ونارٌ	سالا على وجه بضه
ضدان في صحن خدٌ	قد ألفا بعد بُغضه
والنهرُ سبكُ الجين	جرى فزينَ أرضه ^(٣)

فعارضه ابن عباد ونقده بقوله:

أبلغ شقيقي عني مقالةً تُسمضه

(١) انظر: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ص ٧٤-٧٥، ٤٣٠-٤٣١.

(٢) الذخيرة: ق ١٢م، ص ٢٠٢.

(٣) البديع: ص ٥١، والذخيرة: ق ١١م، ص ٢٠٢.

بأن وَصَفَ الْأَفَاحِي الَّذِي وَصَفَتْهُ لَمْ أَرْضَهُ
هَلَا وَصَفْتَ الْأَفَاحِي بِأَكْرُسٍ مِنْ فِضَّةٍ
قِيَعَانُهَا مُلْبَسَاتٌ صَرَفَ النَّضَارَ وَمَحْضَةً
أَوْ لَا فَصَفَرُ الْيَوَاقِي ت فِي خِوَاتِمِ فِضَّةٍ
أَوْ النُّجُومُ تَسَاقُطُ ن فِي الْمَاهِ الْمِيْضَةِ
أَوْ لَا فَجَامُ مَهَاةٍ بِالْخَمْرِ فِي كَفِ بَضَّةٍ
قَدْ بَاكَرْتَهُ وَأَبَقْتَ مَنْ فَضَّلَهَا فِيهِ بَعْضُهُ^(١)

فابن عباد استنكر على أبي الأصبح تقصيره في عدم إعطاء الأحقوان ما يستحق من الوصف، فقد مر عليه مرور الكرام، دون أن يقف عنده وقفة تجلي مفاته وتستقصي أوصافه ومجالي الحسن فيه، حيث لا يكفي أن يوصف بياضه بالفضة، واستدرك عليه أوصافاً للأحقوان دلت على سعة خياله وعمق اطلاعه.

ولننظر إلى مطارحة شعرية أخرى لتبين الأثر الواضح للطبيعة في المجالس الشعرية التي كان الشعراء يقصدونها للتنزه فيها، «فقد اجتمع الوزير أبو بكر بن القبطرنة والأديب أبو العباس بن سارة الأندلسيان في يوم جلا ذهب برقة، وأذاب ورق ودقه، والأرض قد ضحكت لتعبيس السماء، واهتزت وربت عند نزول الماء، فقال ابن القبطرنة: الكامل

هذي البسيطة كاعب أبرادها حُلُّ الرِّبْعِ وَحَلِّيْهَا النَّوَّارُ

فقال ابن سارة:

وكان هذا الجوَّ فيها عاشقٌ قد شَفَّهَ التعذيبُ والإضرارُ

ثم قال ابن سارة أيضاً:

وإذا شكا فالبرقُ قلبٌ خافقٌ وإذا بكى فدموعُ الأمطارِ

(١) البديع: ص ٥٢، والذخيرة: ق ١٢٢، ص ٢٠٤-٢٠٥.

فقال ابن القبطرنة:

من أجل ذلة ذا وعزة هذه يبكي الغمامُ وتضحكُ الأزهارُ^(١)

ويلاحظ في وصف الشاعرين عنصر التشخيص، حيث امتزجت الظواهر الطبيعية بالصفات الإنسانية، فوجه البسيطة منتشر زاه بأبهى حلة، يختال في أجمل منظر، والجو أشبه بعاشق صنب شفة الوجند وأمسضه الهجر، يصرخ بأعلى صوته من شدة الألم، ويبكي بكاء تدفق أنهاراً، فشبه ابن سارة الجو وخفق بروقة وانهمار غمامه بالعاشق الصب المتيم، وانهمار غمامه بالدموع تعبير عن مسكته وذلة، بينما الأزهار تضحك مبتهجة محتفلة. مسرورة مفتبطة.

ومن الظواهر الطبيعية التي كانت تلفت نظر الشعراء وتلهيهم الصور البديعية هبوب النسيم على صفحة الماء الزاهية بألوان الشمس الذهبية عند الغروب، ومن ذلك ما يرويه ابن حمديس، حيث يقول: "اصطنع عبد الجليل بن وهبون الترسى الشاعر نزاهه بوادي إشبيلية، فأقمنا فيه يوماً، فلما دنت الشمس للغروب هب نسيم ضعيف غصن وجه الماء، فقلت للجماعة: أجيروا: الرمل

حاكت الريح من الماء زرداً^(٢)

فأجازه كل بما تيسر له، فقال لي أبو تمام غالب بن رباح الحجام: كيف قلت يا أبا

(١) البدايه: ص ١٩٦، والنفع: ج ٤، ص ٣١٧.

(٢) وردت هذه الحكاية عن المعتمد بن عباد وابن عمار، وأرجح الخبر الذي أوردناه، لأن الخبر المروي عن المعتمد وابن عمار يذكر أن المعتمد قال ذلك القسم وطلب من ابن عمار إجازته فعجز، وكان بالقرب منهما جارية، وهي الرميكية التي تزوجها المعتمد بعدئذ، فأجازت القسم، وهذا الخبر موضع شك، لأن الرميكية بدت أكثر براعة فيه من ابن عمار الشاعر الشهير، (انظر: النفع: ج ٥، ص ١٤٧)، والذي يؤكد ما ذهبنا إليه أن هناك قصيدة لابن حمديس مطلعها:

نشر الجو على الأرض برد أي در لنحور لو جمد

ويظهر أن ابن حمديس بنى هذه القصيدة على ذلك المطلع بعد عودته من النزاهة، وهي قصيدة طويلة أقامها على وجوه المشابهة بين عناصر كثيرة لظواهر الطبيعة، كالبرد والبرق والنبت وغير ذلك (انظر: ديوان ابن حمديس، ص ١١٧، وعصر الطوائف والمرابطين: ص ٢٠٠-٢٠١).

محمد؟ فأعدت القسيم له، فقال:

أيّ درع لقتال لوجمـد

فحفظ القسيمان، ونسي ما عداهما^(١).

ونستطيع القول بأن الطبيعة الجميلة كانت الإطار المحبب لانعقاد هذه المجالس، وخاصة على ضفاف الأنهار حيث الماء والخضرة والوجه الحسن^(٢).

وكما كانت الطبيعة ميداناً للمطارحات الشعرية الواقعية بين الشعراء، فقد كانت ميداناً لهم في المجالس الشعرية التخيلية، حيث يقوم الشعراء بعقد مناظرات على لسان عناصر الطبيعة، فيفتخر كل عنصر منها على الآخر، محدداً ما يتميز به عن غيره، ومفنداً ادعاءات خصمه، ويكون عادة للأطراف المتنازعة أنصار تواليها وتدافع عنها، فيقف كل منهم إلى جانب صاحبه أثناء تلك المناظرة والمفاخرة والمفاضلة.

وبين أيدينا رسالة لابن برد الأصغر كتب بها إلى أبي الوليد بن جهور ناظر، فيها بين نواوير خمسة وبين الورود، وانتهت المناظرة بتفضيل الورود على النواوير، فقد دعيت تلك النواوير إلى مجلس غص بأصناف الأزهار وأنواع الورود « وكان ممن حضر هذا المجلس وشهد هذا المشهد من مشاهير الأزهار ورؤساء الأنوار: النرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيري النمام »^(٣).

وبعد سلسلة من التفاخر والمحاججات والجدل والنقاش الحاد، والتحاور والتشاور بين سائر أصناف الأزهار، أقر الجميع أن الورود تفضل الجميع دون استثناء، ووقعوا على ذلك اتفاقية، وعاهدوا على إعطاء البيعة للورد، وعمموا ذلك على جميع الورود

(١) البداهة: ص ٧٠-٧١.

(٢) انظر: «ملاحم من الحضارة الأندلسية في عصر ملوك الطوائف»، رياض المرزوقي، في أعمال الملتقى: ص ١٨٧.

(٣) البديع: ص ٥٩.

والأزهار: وسميها وشتوبها وريعيها، وقطيها، وقد كان ذلك بحضور شهود أثبتوا شهاداتهم على تلك الاتفاقية، ونصت شهاداتهم على ما يلي: الرمل

شهادة النرجس: شهد النرجس والله يرى صحة النيات منها والمرضى
أن للورد عليه بيعة أكدت عقداً فما إن تنتقض^(١)

شهادة البنفسج: مجزوء الكامل

شهد البنفسج أنه للورد عبد تملك
يسعى بقلب ناصح في حبه مستهلك^(٢)

شهادة البهار: الكامل

شهد البهار وذو الجلالة عالم بصحيح ما يُدِي وما يُخفيه
أن الإمارة في الأزهار كلها للورد لا يؤتى له بشيء

شهادة الخيري النمام: الرمل

شهد الخيري برأ صادقاً قوله أبعد عنها الدرك
أن أزهار الثرى أجمعتها أعبد والورد فيها ملك^(٣)

وانتهى هذا المجلس بمبايعة الورد بالرياسة .

وقد بدا في ذلك المجلس تعصب ابن برد للورد واضحاً، الأمر الذي جعل أبا الوليد بن عامر الحميري يتصدى له ويجلب عليه بخيله ورجله، ويعقد للأزهار والورود مجلساً أدبياً طارئاً، بعد أن تبين له وجود معارضة قوية في أوساط تلك النواوير والأزاهير محتجة على تلك البيعة الفاسدة بعد أن قامت بعض النواوير بجولة استطلاعية، لتقصي الحقائق والوقوف على جلية الأمر.

وتبين لها بعد ذلك أن النواوير التي أبدت شهاداتها في تفضيل الورد كانت

(١) المصدر السابق: ص ٦١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٦٢.

(٣) المصدر نفسه والمكان ذاته.

مخدوعة، وهي الآن مستعدة لنقض تلك البيعة وسحب تلك الشهادات. وبعد مشاورات ومحاورات ومداولات اتفق الجميع على رئاسة البهار لسانر الأزهار، وأدلو بالشهادات التالية.

شهادة البفسج : اما البفسج فهو يشهد أنه	متذمم مما جنى متصل الكامل
متبريء من بيعة الورد التي	لم يبر منها داؤه المتاصل
متين فضل البهار وعالمهم	أن البهار هو المليك الأفضل
شهادة النرجس : أشهد النرجس أشهاد محق	أن بدر الورد في الفلك محق الرمل
ورأى أن البهار ألمجسلي	في سماء الحسن بالملك أحق
فمتى كذب قول لبدا	قيل في قوله هذي صدق
شهادة الخيري : / أشهد الخيري أن الخير في	نقض ما أخطأ فيه أولاً الرمل
موقناً أن البهار المرتضى	بهر الأملاك حالاً وحلى
فهو الموقظ أنوار الربى	من سنات سنها فيها البلى
شهادة الأقحوان : أشهد الأقحوان أن جناه	كافر بالذي سواه جناه المنسرح
قائل قول من تبرأ قدماً	من هوى من قضى عليه هواه
إن نور الربى عيب وكل	للبهار البهي يقضي ولاه
شهادة الخيري الأصفر : أفسر الخيري يشهد	أن عقد الورد قد رد الرمل
ويرى أن البهار الـ	متقى أغلى وامجد
ملك بقطر أن يأتي	وصنوف النور هجد ^(١)

ومن هنا يمكن القول إن الشعراء الأندلسيين استطاعوا أن ينقلوا صورة الديوان السلطاني إلى الطبيعة، فوضعوا لها قيوداً من رسوم الحضرة ومجلس الجماعة، ومنحوها صفة رسمية قليلة الحركة والنشاط^(٢).

(١) البديع : ص ٦٤-٧٠.

(٢) انظر : عصر الطوائف والمرابطين : ص ١٩٧.

والرسالتان-كما نلاحظ- رمزيتان، فقد أراد كل من الأديين أن يتتصر لصاحبه، فالورد في رسالة ابن برد يرمز به إلى ابن جهور، والبهار في رسالة أبي الوليد يرمز به إلى ابن عباد.

فالأديان حاولا أن يبديا مكانة صاحب كل واحد منهما، والتعريض بالآخر، ففي الرسالتين هجاء ضمني لكل منهما، فالورد سيد، ويراد به ابن جهور، وما عداه أتباع وعبيد في رسالة ابن برد، والبهار سيد ويراد به ابن عباد، وما عداه أتباع وعبيد في رسالة أبي الوليد.

ولأن أيا من الشاعرين لا يستطيع إبداء رأيه فيمن يكره بشكل سافر، راح يتستر بالأزهار والورود، ويدي رأيه من خلالها.

ولا شك أن الأدب قد أفاد كثيراً من هذه المناظرات، التي كانت-غالباً- ما تجري وسط مجالس شعرية، يشهدا كثير من وجهاء القوم وآساطين الشعر والأدب، لانتزاع الشهادات بالتفوق والإجازة على الإبداع والظفر بالإعجاب.

ويذهب بعض الباحثين إلى إن مثل هذه المناظرات والمفاضلات، بالنسبة للشعراء، «كانت سبيلاً لامتحان مقدرتهم الجدلية يرضون بها ميلاً عقلياً نحو الجدل، فاتخذوا من الطبيعة موضوعاً له بدلاً من أن يكون حول شئون العقيدة، إذ كانت المناظرات في أمورها مظنة خطر»^(١).

(١) المرجع السابق والمكان ذاته.

٢- الأدوات الحضارية ومظاهر العمران في المجالس الشعرية

لقد كان الشعر -ولا يزال- عوناً للباحثين والدارسين في التعرف على كثير من مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والحضارية، وبتعبير أدق لقد تعرف الدارسون على البيئة في المجتمعات القديمة من خلال الشعر، الذي واكب مظاهر الحياة المختلفة ودل عليها وأعطانا عنها تفاصيل دقيقة أعانت كثيراً على فهم تلك الحياة، وذلك ما نهضت به كثير من الدراسات الأدبية^(١).

وشعر المجالس كان له نصيب وافر في تصوير كثير من جوانب تلك الحياة ومظاهرها المختلفة، وبخاصة جانبها الحضاري؛ لارتباطه الشديد ببلطات الأمراء وقصورهم الخافلة بكثير من المظاهر الحضارية، التي عمل أولئك الأمراء على التنافس فيها وجلب كل غال ونفيس إليها، لتخليد آثارهم بعد الموت؛ وفي ذلك يقول عبدالرحمن الناصر (ت ٣٥٠هـ): الكامل

هَمُّ الْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِالْسِّنِ الْبَنِيَانِ
أَوْ مَا تَرَى الْهَرَمِينَ قَدْ بَقِيََا وَكَمْ مَلِكٌ مَحَاهُ حَوَادِثُ الْأَزْمَانِ
إِنْ الْبِنَاءُ إِذَا تَعَاظَمَ شَأْنُهُ أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ^(٢)

وقد عاش المجتمع الأندلسي وأمرأؤه الحضارة، بأذوق معانيها آنذاك، كما سنلاحظ ذلك في شعر المجالس، خاصة الجانب المادي منها، والذي يشير إليه ابن خلدون بقوله: «والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله»^(٣).

(١) انظر: على سبيل المثال: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، والتصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي.

(٢) المغرب: ج ١، ص ١٧٩-١٨٠، والنسخ: ج ٢، ص ١١٠-١١١.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٢٥٦.

فإلى أي مدى استطاع شعر المجالس، داخل القصور وخارجها، تصوير تلك المباحج العمرانية والأدوات الحضارية التي افتنَّ فيها الأندلسيون وبالغوا في الاعتناء بها، وغدت تلك الأشعار وثائق تاريخية مخلدة لها، والتي فنيت وظل الشعر يحدثنا عنها مدى الزمان، ذلك ما سوف نعرفه في السطور التالية.

لقد حدثتنا كتب التاريخ والأدب عن «القصر العظيم الذي شاده ملك طليطلة المأمون بن ذي النون بها، وذلك أنه أتقنه إلى الغاية، وأنفق عليه أموالاً طائلة، وصنع في وسطه بحيرة، وصنع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطاً بها ويتصل ببعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجري، والمأمون قاعد فيها لا يمسُّ من الماء شيء ولا يصله، وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظرٌ بديع»^(١).

فكان ذلك القصر وتلك القبة امتداداً لوصفت شعراء مجالس المأمون وباعثاً لهم على المطارحات الشعرية، ومن هؤلاء الشعراء الأديب عبدالعزيز بن محمد السوسي، وقد حضر مع من حضر من الشعراء يوم حفل إعدار حفيد المأمون، حيث يقول: الكامل

لما بنيت من المكارم والعُلا	ما جاوزَ الجوزاءَ في الإجلال
أعملت رأيك في بناءٍ مكرمٍ	ما دار قطُّ لآملٍ في بالٍ
لو زاره كسرى أنوشروان لم	يصرفَ إلى الإيوان لحظَ مبالٍ ^(٢)

ويرسم أبو محمد المصري صورة لهيئة المأمون التي كان عليها في القصر، فيقول: الكامل

وكأنما المأمون في أرجائه	بدرٌ تمامٌ قابله أسعدُ
وكأنما الأقداحُ في راحاته	درُّ جمادٍ ذابَ فيه العسجدُ ^(٣)

(١) النفع: ج ٢، ص ٦٨.

(٢) الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٢٦-١٢٧.

(٣) النفع: ج ٢، ص ٦٩.

ثم يلتفت إلى القبة والمأمون جالس بداخلها، وقد بدا بدرأ في فلك، فيقول: السريع

شَمْسِيَّةُ الْأَنْسَابِ بِدَرِيَّةٍ يحارُّ في تشبيهها الخاطرُ

كأنما المأمونُ بدرُ الدُّجَى وهي عليه الفلكُ الدائرُ^(١)

ومن مجالس المعتضد بن عباد مع شعرائه هذا المجلس الذي حضره ابن زيدون
فأنشد بين يديه قصيدة تضمنت وصفاً لثلاثة عناصر: القصر والمدوح والخمرة، وهي
في الحقيقة ثلاث لوحات فنية أبدع فيها الشاعر وصفه لها وتصويره لمحاسنها ومجاليها،
وربط ذلك الوصف بالشئ العاطر على المدوح ما جلعه ذرة ذلك المجلس ومصباحه
النير وجوده المتدفق، يقول ابن زيدون: السريع

عُمِّرَ من يعمرُ ذا المجلسا أطولَ عُمُرٍ يهيجُ الأنفُسا

وبعد ذا عَوْضٍ عن داره عدناً، ومن ديباجه السُّندسا

ووفي الفوز بها والرضا ووفي الأسواء والآبؤسا

ثم يشيد بالمدوح:

ودام عبادٌ لعهد الهدى يحرسُ حتى يُفنيَ الآخرُسا

معتضدٌ بالله، إحسانه جَمٌّ، إذا ما الدهر يوماً أسا^(٢)

وعندما أخذته نشوة الكأس، راح يصفها ويثني على المجلس وعلى صاحبه^(٣).

ولم تحفل قصور أمراء الطوائف بوصف الشعراء لها قدر ما حفلت قصور المعتمد
ابن عباد، وقد كانت كثيرة، ذكر بعضها المعتمد تشوقاً إليها عندما كان مأسوراً في منفاه
بأغमत، حيث يقول: البسيط

بكى المبارك في إثر ابن عباد بكى على إثر غزلانٍ وآساد

(١) المصدر السابق والمكان ذاته.

(٢) الديوان: ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) المصدر نفسه والمكان ذاته.

بكت ثرياه لا غمت كواكبها بمثل نوء الثريا الرائع الغادي

بكي الوحيد بكى الزاهي وقبته والنهر والتاج كل ذله باد^(١)

ويذكر الزاهر والزاهي وسعد السعود في قوله: الطويل

بزاهرها السامي الذي جاده الحيا تشير الثريا نحونا ونُشيرُ

ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده غيورين والصَّبُّ المحبُّ غيور^(٢)

وتلك القصور وما احتوت عليه من مجالس ومباهج حضارية وتحف فنية كانت مادة غزيرة للشعراء، حيث راحوا يتفنون في وصفها ويدعون في تصويرها، وكان من بين أولئك الشعراء ابن زيدون وابن حمديس وغيرهما.

فها هو ذا ابن زيدون في أبياته التالية يعطينا وصفاً مكانياً وجغرافياً لمواقع تلك القصور، وتصويراً حياً لملامحها الجمالية وروائعها الفنية، حيث يقول: الطويل

أما "الثريا" فالثريا نسبة وإفادة وإنافة وجَمَالا

قد شاقها الإغباب حتى إنها لو تستطيع سرت إليك خيالا

رقة ورودكها لتغنم راحة وأطل مسزاركها لتنعم بالا

وتمثل القصر المبارك وجنة قد وسَّطت فيها الثريا تنالا

قصر يُقرُّ العين منه مصنعٌ بهجُ الجوانب لو مشى لاختالا^(٣)

فالثريا حسب وصف ابن زيدون لها تقع في وسط المبارك الذي شبهه بالوجنة وهي بالخال، وفي البيت الأخير إشارة إلى بهو كبير مترامي الأطراف قد ضمه المبارك.

ولابن حمديس قصيدة في وصف دار بناها المعتمد نلحظ فيها دقة في الوصف

(١) الديوان: ص ٩٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٩.

(٣) الديوان: ص ٥٢١ - ٥٢١.

وبراعة في التصوير، حيث استطاع أن يجعلنا نتخيل تلك الدار وما حوت كما أراد، من خلال تلك التفاصيل للمشاهد واللوحات الفنية والصور الزخرفية والأشكال الهندسية والرسوم المتموجة البديعة الصنع، فضلاً عن تلك الصورة التي رسمها لصفاته ونقائه ورحابة أرجائه.

وقد استمدت الدار صفات كثيرة من صاحبها، فاكتمت سعتها من رحابة صدره، ونورها من محياه البهي، ونبلها وكرمها من شيمه وأخلاقه، وسموها من مكانته وعلو رتبته، والراؤون يختارون فيمن صنعها وأبدعها، وهي دار أنست إيوان كسرى اسمه وعفت رسمه، وفي ذلك يقول ابن حمديس: **الطويل**

ويا حبذا دار قضى الله أنها	يُجددُ فيها كلُّ عزٍّ ولا يُبلى
مقدسة لو أن موسى كلمه	مشى قدماً في أرضها خلج النعلا
وقد نقلت صنائعها من صفاته	إليها أفانيناً فأحسنّت النعلا
فمن صدره رحباً ومن نوره سناً	ومن صيته فرعاً ومن حلمه أصلاً
فأعلت به في رتبة الملك نادياً	وقل له فوق السماكين أن يُعلَى
نسيت به إيوان كسرى لأنسي	أراه له مولى من الحسن لا مثلاً
كأن سليمان بن داود لم تبح	مخافته للجن في صنعه مهلاً
لها حركات أودعت في سكونها	فما تبعث في نقلهن يدُ رجلاً ^(١)

وللشاعر أبي الحسن البكري وصف للمصانع السلطانية المعتمدة لا يختلف عن وصف ابن حمديس، خاصة الوصف المتعلق بتلك الصور المنقوشة داخل القصر والتي حذا فيهما الشاعران حذو البحري في وصفه إيوان كسرى، إلا أن البكري يتعرض لوصف جانب آخر من القصر وهو البركة، التي ازدان فناء المجلس بها، بتدفق المياه من

(١) ديوان ابن حمديس: ص ٣٧٨، والنفع: ج ٢، ص ٣٥.

أفواه الأسود والظباء التي نحتت عليها ، وكأن المياه وهي تدفع من أفواهها سيوف
ممشوقة ، يقول البكري : المقتارب

أقرن الغزالة أم معقل يكاد الجماد به يعقل
قرارة أنس تُبِنُ الظبا عُبُه والضرغامه البُسل
تجرد أفواهها في الصفا سيوفا بضمن الضحى تُصقل
وليست سيوفاً ولكنها لظامي الثرى منهل سلسل^(١)

لقد ازدانت مجالس الملوك وقصورهم وأفنيتهم بما يضفي عليها ألواناً من الحسن
والجمال ، فبالغوا في تزيينها ووشيتها وزخرفتها ، وأبدعوا في صنع التماثيل المجسمة
لصور الحيوانات ، وزينوا بها تلك الفناءات والمجالس والساحات ، وتفتنوا في بركها
ونوافيرها المصنوعة على هيئة حيوانات ، وأجروا المياه عبر أجوافها ، وقد رأينا شيئاً من
ذلك في قصيدة البكري .

ولابن وهبون قصيدة طويلة في وصف قصر المعتمد الزاهي يحدثنا فيها عن إحدى
النوافير التي كانوا يعقدون حولها مجالسهم الأدبية ، فيقول : الوافر

ويُفرغ فيه مثل النّصل بدع من الأفيال لا يشكو مَلا
رعى رطب اللّجين فجاء صلدأ وقاحاً قلما يشكو هزالاً
كان به على الحيوان عتبا فلم يرفع لرؤيتها قذالاً^(٢)

فالنافورة عبارة عن فيل ضخم يكنع من خرطومه المياه دون توقف ، وقد كان قوته
من الفضة ، لذلك جاء جسمه قوياً متيناً ، وهو متجه بنظره إلى الأرض لا يرفعه عنها
أبداً ، يؤدي عمله بانتظام دون توقف أو فتور ، ومن يراه وهو على ذلك الحال يحسب

(١) الذخيرة : ق ٢ م ٢ ، ص ٥٧٠-٥٧١ ، بُن : تقيم . انظر : لسان العرب ، مادة : بُن .

(٢) الذخيرة : ق ١ م ١ ، ص ٥٠٩ .

أن بينه وبين سائر الحيوانات خصومة فهو لا يلتفت إليها أبداً.

يقول ابن بسام: "ولما سمع المعتمد بن عباد قصيدة عبد الجليل هذه ووعاها سرت في نفسه حماها، وكانت سبباً لصلة من كان يباه من الشعراء"^(١).

وقد كان المعتصم بن صمادح يحتفي بقصوره ومجالسه - شأنه شأن الملوك الآخرين - وله قصور كثيرة عرفت بالصمادحية^(٢)، تضم أبهاء ومجالس داخلية^(٣) أبدع الشعراء في وصف مجالي الحسن فيها وبراعة الصنع لها، ومن أولئك الشعراء ابن الحداد، حيث يقدم لنا وصفاً رائعاً لأحد القصور، وقد ضم مجلسين عظيمين بداخله كانا يشهدان لقاء الأمير بخواصه من الوزراء والشعراء وغيرهم، فقد لفت نظر الشاعر في هذا القصر ومجلسه أشياء كثيرة، فالأزهار والورود وسائر ضروب النواوير استمدت جمالها وحسن ألوانها من بهاء ذلك القصر وألوانه المتلألئة تلالؤ النجوم، أما المجلسان فقد كانا عاياه في الروعة والجمال، لما يبدو عليهما من تألف وتناغم وانسجام، وترابط وإحكام، فكل منهما يشد من أزر الآخر ويضاهيه في تمامه وتمائل تام. فالقصر قد اشتمل على طرائق هندسية وأشكال فنية من تدوير وتكعيب وتقويس وتثليث وتربيع وتسديس وتثمين ما يشهد لصانعها بالعبقرية، فهو تحفة نادرة في جبين الزمان. وعظماء التاريخ بدوا أقزاماً، مع ما شيدوا، أمام هذا القصر المنيف^(٤).

ولم تكن القصور وحدها مبعث عناية الشعراء واهتمامهم بها فقط، بل كانت هناك أشياء كثيرة من مظاهر الحياة الحضارية، التي كانت تكتحل بها عيونهم داخل القصور وخارجها، كالتحف والشموع والذن والزجاج والأساطيل والزوارق وآلات الحرب

(١) المصدر السابق: ق ٤ م ١، ص ٥١٥.

(٢) انظر: النفح: ج ٤، ص ٣٢٨.

(٣) انظر: مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح، ص ١٤٤.

(٤) انظر: القصيدة في ديوان ابن الحداد: ص ٢٧٠-٢٧٥.

والملايس، وغير ذلك مما كان يعن لهم أثناء مجالسهم، فيشير قرائحهم ويطلق الستهم بالوصف.

فقد كان الأمراء - أحياناً - يطلبون من الشعراء وصف شيء ما داخل المجلس لاختبار قدراتهم ومواهبهم، ويكون ذلك الشيء الموصوف موضوعاً لمطارحة شعرية، ومن ذلك أن المعتمد بن عباد «أمر بصياغة غزال وهلال من ذهب، فصيغاً فجاء وزنهما سبعمائة مثقال، فأهدى الغزال إلى السيدة ابنة مجاهد، والهلال إلى ابنه الرشيد، فوقع له إلى أن قال: الوافر

بعثنا بالغزال إلى الغزال وللشمس المنيرة بالهلال

ثم أصطحب مصطحباً، وجاء الرشيد فدخل عليه، وجاء الندماء والجلساء، ومنهم أبو القاسم ابن المرزقان، فحكى لهم المعتمد البيت، وأمرهم بإجازته، فبدر ابن المرزقان فقال:

فذا سكني أبوئه فؤادي وذا نجلي أقلده المعالي

شغلتُ بذا الطلا خلدي ونفسي ولكني بذاك رخي بال

دفعني إلى يديه زمام ملكي محلى بالصوارم والسعالي

فقام يُقر عيني في مضاء ويسلك مسلكي في كل حال

فدمنا للعلاء ودام فينا فإننا للسماح وللنزال^(١)

وقد كانت الطريقة نفسها متبعة عند المعتصم بن صمادح في مجلسه، فقد «أحضر إلى مجلسه في بعض ليالي أنسه صورة حسنة قد ركبت من ريجان في هيئة جارية، ثم

(١) بدائع البداهة/ الأزدي: أبو الحسن علي بن ظافر (ت ٦٣١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ١١٤، والنفع: ج ٥، ص ١٥٠-١٥١.

طُيِّتْ وقلدت، وأمر من حضر من الشعراء بوصفها^(١)، وكان من بين من حضر ابن خفاجة، فقال: الطويل

أما واعتزاز الضيف والسيف والندى بخير ملك هش في صدر مجلس
بدا بين كف للسماح مغيمة قصوب ووجه للطلاقة مشمس
فالشاعر في البيتين السابقين يشير إلى الصفات التي اشتمل عليها الممدوح، وهي: الشجاعة والكرم ووضاء الحيا وبشاشة الوجه، ثم يتخلص إلى وصف الصورة، فيقول:

لقد زف بنتاً للخميلة طفلة يهز إليها الدست أعطاف مغيرس
تشير إليها كل راحة سوسن وتشخص فيها كل عين لئرجس
تنوب عن الحسناء والدار غربة فما شئت من لهو بها وتأنيس
تحفيت بها ربيع ليل وريوة عيسى غمام جادها متجسس

فجاءت تروق العين في ماء نضرة تسن على أعطافها ثوب سندس^(٢)
وتملأ عين الشمس لألاء بهجة وحسن وأنف الريح طيب تنفس^(٣)

فيعمد إلى التشخيص في تصويرها، فيشبهها بفتاة حسناء فاتنة تذهل العقول وتأسر القلوب، وتهتز لها النفوس شوقاً وافتناناً، فقد تفنن الصانع في هندستها وتنسيق أجزائها واختيار ألوانها وتشكيل ملامحها، فجاءت في أبهى حلة وأزهى صورة مما حمل أترابها على إكبار حسننها وإعظام جمالها.

ثم يفصل الشاعر في النواحي الجمالية لتلك الصورة فيذكر أنها ذات منظر يجلب السرور والمتعة والبهجة إلى النفوس والأنظار لما تشتمل عليه من اخضرار ونقاء وصفاء

(١) ديوان ابن خفاجة: أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي (ت ٤٥٦-٥٣٣هـ)، تحقيق سيد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط ٢، ١٩٧٩م، ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) وردت في الديوان «تسن» بالفتح ولا مسوغ لذلك على حد علمي.

(٣) المصدر نفسه والمكان ذاته.

ولعان وروائح زكية طيبة.

وللشعراء مجالس خاصة بهم كانوا يعقدونها ، ويتبارون في وصف ما كان يلتفت
نظرهم فيها، حيث يروى أن لمة من الشعراء كانوا مجتمعين في نزهة ليلية، ومعهم
شمعة، فحاول كل واحد منهم ترويض نفسه على وصفها، ويعمل في ذلك حسه،
وكان معهم أبو الفضل البغدادي، فقال يصفها: الطويل

ذهبنا فاذهبنا الهموم بشمعة غنيّاً بها عن طلعة الشمس والبدر
أقول وجسمي ذائب مثل جسمها ودمعتها تجري كما دمعتي تجري
كلانا للعمري ذوبان عن الهوى فتارك من جمر وناري من هجر
وأنت على ما قد تقاسين من أذى فصدرك في نار وناري في صدري^(١)

فالتاعر يربط بين حالة الشمعة وحالته النفسية فهي تشارك الشاعر همومه
وأحزانه، وتلقى من الهجر والفراق ما يلاقي، فالشاعر يشخص الجماد ويث فيه الحركة
والحياة، ويسقط عليه مشاعره وأحاسيسه ومعاناته.

ويقول عبد الجليل بن وهبون واصفاً شمعتين في نزهة ليلية على زورق مع جماعة من أصحابه: المنسرح

كأنما الشمعتان إذ ستما خذاً غلام مُحسن الغيد
وفي حشا النهر من شعاعهما طريق نار الهوى إلى كبدي^(٢)
وكان معه غلام البكري^(٣) فقال: السريع

أعجب بمنظر ليلة ليلاء نجنى بها اللذات فوق الماء

(١) الذخيرة: ق ١٤م، ص ١٠٥.

(٢) القلائد: م ٢، ص ٧٦٨، والنفح: ج ٢، ص ١٨٨.

(٣) هو أبو الحسن حكم بن محمد غلام أبي البكري، مولى البكرين، أديب وشاعر، من شعراء
بني عباد، (انظر ترجمته في: المغرب: ج ١، ص ٣٤٨).

في زورق يزهو بغرة أغيد يختال مثل البانة الغيناء
قرنت يداه الشمعتين بوجهه كالبدريين النسر والجوزاء
والتاح تحت الماء ضوء جينه كالبرق يخفق في غمام سماء^(١)

فصورة الشمعة في بيتي ابن وهبون لها وجهان: وجه مشرق مهلل، ووجه مظلم متكرر، فعندما قرن وصف الشمعة بالغلام اختار له الوجه الأول، وعندما قرن وصف الشمعة بحالته اختار لها الوجه الثاني، ليلائم بين الحالتين ويصدق في وصفهما عاطفياً.

أما الصورة في أبيات غلام البكري، فقد اختار لها الوجه الأول فقط، وجعل أوصاف الغلام طاغية على أوصاف الشمعة، التي جاء ذكرها عابراً، وليس لها أثر في الصورة.

وقد كان الأمراء يتباهون ويتفاخرون بما يقتنون من ملابس فاخرة تعكس الترف الحضاري الذي وصلوا إليه، ففي المجلس الشعري التالي يحدثنا أبو محمد بن السيد البطليوسي^(٢) عن الملابس التي كان يرتديها الأمير عبدالرحمن الظافر بن ذي النون في حفلاته، وفيها من الدلالة على البذخ والترف مالا يخفى، يقول أبو محمد: الرجز

ومجلس جم الملاهي أزهر ألد في الأجفاف من طعم الكرى
لم ترعيني مثله ولا ترى أنفـس في نفسي وأبهي منظرا
إذا تردى وشيه المصورا من حوك صنعاء وحوك عبقر

(١) النفع: ج ٢، ص ١٨٨.

(٢) هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد، أصله من بطليوس، وولد بها سنة ٤٤٤هـ، سكن بلنسية ولم يخرج من الأندلس، توفي سنة ٥٢١هـ، وله مؤلفات مطبوعة. (انظر ترجمته في: الصلة: ج ١، ص ٢٩٢، وبغية الرعاة: ج ٢، ص ٥٥-٥٦، وأزهار الرياض: ج ٣، ص ١٠١).

ونسج قُرُوب ونسج تُسْتَرًا خلت الربيع الطلق فيه نوراً^(١)

ونكتفي بما عرضنا من نماذج للأدوات الحضارية التي احتلت مكاناً بارزاً في شعر المجالس، وقد لاحظنا كيف كان هذا الشعر وعاء لتلك الظواهر الحضارية وسجلاً حافلاً لما أبدعه المجتمع الأندلسي وأودعه الشعراء في رجم أشعارهم، وهناك أشعار كثيرة وصفوا فيها الملابس وكؤوس الشراب والزوارق الحربية والأساطيل البحرية وغيرها مما نجده مبثوثاً في كتب الأدب، التي دلت، بحق، على رقي المجتمع الأندلسي وترفه ورفاهيته^(٢).

(١) النفع: ج ٢، ص ١٨١ عبقر: موضع في اليمن كانت تُوشى فيه البُسْطُ اليمانية، وتُسْتَر: مدينة بإيران، وتنسب إليها الثياب التسترية، وقوقوب: بلدة بين البصرة والأهواز. (انظر معجم البلدان: ج ٤، ص ٨٩-٩٠، ج ٢، ص ٢٩، ج ٤، ص ٣٧٣).

(٢) انظر على سبيل المثال: النفع: ج ٥، ص ٢٠٤-٢٠٧، ج ٢، ص ١٧٩، ج ١، ص ٤٣٠، ٢٨٢، ج ٦، ص ٥٥.

٤- مجالس الغناء والطرب وأثرها في إنشاء الشعر

علاقة الشعر بمجالس الغناء والطرب علاقة وطيدة، فقد كان الشعراء في هذه المجالس يقومون بوصفها أو بمعارضة ما يغنى فيها^(١)، يقول أحمد ضيف: «أما مجالس الغناء واللهو فقد غصت بها المحافل، وشغلت أكثر أوقات الشعراء وفتقت ألتستهم بقول الشعر الجميل، وفتحت عليهم أبواباً من الخيال وزاد في الإقبال عليها ميل الخلفاء والأمراء وأهل الطرب والأدب والنساء الشواعز»^(٢).

وقد ولع الأندلسيون بالغناء وكانوا به أكثر تشبهاً وكلفاً، وما يدل على شدة ولعهم بذلك أن الأمير عبدالعزیز بن الناصر كان مغرمًا بالخمر والغناء فترك الخمر لبغض المستنصر (ت ٣٦٦هـ) لها، فقال: لو ترك الغناء لكمل سروره، فقال: والله لا تركته حتى ترك الطيور تغريدها، ثم قال: الخفيف

أنا في صحة وجاه ونعمى هي تدعو لهذه الألمان
وكذا الطر في الحداثة تشدو للذي س نفسه بالقان^(٣)

وقد كان ملوك الطوائف أكثر ولعاً به، فقد كثر في عهدهم المغنون والمغنيات، واشتهر كثير من المدن في عهدهم بالخلاعة والمجون^(٤)، ولا سيما إشبيلية، حاضرة بني عباد مدينة اللهو والطرب^(٥)، حتى قيل إنه «إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع تركته حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية»^(٦)، لذلك رأينا ابن خلدون يقول أثناء حديثه عن زرياب (ت ٢٣٨هـ): «فأورث بالأندلس من صناعة الغناء، ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف، وطمانها بإشبيلية بحر زاخر»^(٧).

(١) انظر: ديوان ابن زيدون: ص ٥٢١-٥١٣.

(٢) بلاغة العرب: ص ٢٠.

(٣) المغرب: ج ١، ص ١٧٩، والنفع: ج ٥، ص ١٢٤.

(٤) انظر: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، ص ٥٥.

(٥) انظر: النفع: ج ١، ص ١٠٨.

(٦) المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٠.

(٧) مقدمة ابن خلدون: ص ٤٧٨.

ولأن الغناء يلزمه مغنيات وراقصات فقد جد ملوك الطوائف في اقتناء المغنيات المشهورات^(١)، وحرصوا على اقتناء الجواري الشاعرات المثقفات الماهرات في الرقص والغناء^(٢)؛ ليكن قادرات على المشاركة في مجالس الأنس والغناء والطرب؛ لذلك راح هؤلاء الملوك يخضعونهم للاختبار قبل شرائهم وإلحاقهم بقصورهم، فقد سيقت جارية إلى المعتصم بن صمادح «لبية تقول الشعر وتحسن المحاضرة، فقال : تحمل إلى الأستاذ ابن الفراء الخطيب ليختبرها وكان كفيفاً، فلما وصلته قال : ما اسمك؟ فقالت : غاية المنى، فقال : أجيزي : مجزوء الخفيف

سل هوى غاية المنى من كسا جسمي الضنا
فقلت : وأراني متيماً سيقول الهوى : أنا

فحكى ذلك لابن صمادح فاشترأها^(٣)، وكذلك فعل المعتصم بن عباد عند شرائه إحدى الجواري^(٤).

وقد كان لهؤلاء المغنيات « في قصور الأمراء والسلطين ستارات تنطق أوصافها على ما يعرف اليوم بخشبة المسرح »^(٥)، ويعد أبو مروان حسام الدولة « أول من بالغ الثمن بالأندلس في شراء القينات، اشترى جارية أبي عبدالله المتطبب بن الكتاني، بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سوقها، فأعطاه فيها ثلاثة آلاف دينار،

(١) انظر : « أخبار الغناء والمغنين في الأندلس »، (١٣٨-٥٣٩هـ)، إحسان عباس، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، العدد ١٦، الجزء الأول، ص ١٢-١٨.

(٢) انظر : دراسات أدبية في الشعر الأندلسي : ص ١٣٦.

(٣) النفع : ج ٦، ص ٦١.

(٤) انظر : البداهة : ص ٨٢-٨٣.

(٥) « الفنون الشعبية في الأندلس الإسلامية »، صلاح جرار، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد التاسع، العدد الأول، ١٩٩٤م، (٩١-١٤٣)، ص ٦٧.

فملكها»^(١)، وكانت ستارته من أرفع ستائر الملوك بالأندلس^(٢).

ولم تكن هذه الحياة اللاهية مقصورة على الملوك وكبار القوم، فقد « تسربت آيات
البذخ وحب اللهو والغناء من قصور الحكام ومجالس السادة إلى عامة الشعب حتى كان
الأندلس في ذلك الحين أشبه بقيشارة ترسل ألحانها هنا وهناك في القصور الخاصة
والحدائق العامة ودور السباع»^(٣).

ومما يدل على انتشار مجالس الأنس والطرب في عموم البلاد هذا الخبر الذي
يرويه التجيبي، حيث يقول: « كنت بمدينة مالقة في بلاد الأندلس سنة ٤٠٦ هـ اعتللت
بها مديدة انقطعت فيها عن التصرف، ولزمت المنزل، وكان يرضني حيثذ رفيقان، كانا
معي، وكنت إذا جن الليل اشتد سهري وخفقت حولي أوتار العيدان والطناير والمعازف
من كل ناحية، واختلطت الأصوات بالغناء، فكان ذلك شديداً علي وزائداً في قلقي
وتألمي»^(٤).

وعندما سمع المغنية تغني : البسيط

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك

طرب لها وأنس منها»^(٥).

إذن فنحن أمام ظاهرة فنية، متمثلة في الغناء والرقص، فتحت الباب واسعاً أمام
الشعراء ليصفوا أو ينشدوا أو يعارضوا، فقد كانت المجالس الغنائية تحفل بشعراء
يتدهون الشعر، فإذا انتشوا بما يشاهدون ويسمعون أطلقوا لألستهم العنان، ومن ذلك

(١) الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١١٢.

(٢) المصدر نفسه والمكان ذاته.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: جورجى زيدان، طبعة راجعها وعلق عليها حسين مؤنس، دار
الهلal، القاهرة، ج ٥، ص ١٥٩.

(٤) المختار من شعر بشار: ص ١٤.

(٥) المصدر نفسه: ص ١٥.

هذا المجلس الذي حضره ابن الحداد بين يدي المعتصم بن صمادح، فقد رأى راقصة ترقص على صوت نغم، تؤدي حركات مثيرة، وإلى جانبها راقص آخر أذهل الحاضرين بما يؤدي من حركات بهلوانية، تشد إليها النظارة شداً وتأسرهم أسراً، فراح ابن الحداد يصور تلك المشاهد ويرصد تلك المناظر بعدسة بيانه ويلونها بشبات جنانه ولسانه، حيث يقول : المتقارب

كذا فلتلح قمرأ زاهراً وتجنّ الهوى ناضراً ناضراً
وسيك صوب ندى مغدق أقام لنا هاملاً هامراً
وإن ليومك ذا رونقاً منيراً لنور الضحى باهراً

فقد استهل الشاعر حديثه بوصف وجه الأمير الصبوح المشرق الذي أضاء جنبات المجلس، ثم يشيد بكرمه الفياض الذي غمر به من كان بالمجلس فأحيا به الأرض بعد موتها، ثم يصف ذلك اليوم المتسم بالصفاء والنقاء والرونق والبهاء.

ثم يلمح الشاعر كؤوس الشراب وهي تشرق في أيدي الحاضرين بما أودعت من راح، تحاكي وميض البرق وضياء النجوم الزهر، فيقول :

صباح اصطباح يأسفاره لحظنا محيا العلا سافرا
وأطلعت فيه نجوم الكؤوس وما زال كوكبها زاهرا

ثم يأخذ الشاعر في وصف الغناء والرفص فيقول :

وأسمعتنا لاحنا فاتناً وأحضرتنا لاعباً ساحرا
يرفرف فوق رؤوس القيان فتنظر ما يذهل الناظرا
ويخطفها ذيل سر باله فتبصر طالعها غائرا
فظاهرها يتشي باطناً وباطنها يتشي ظاهرا
وثنائه ثان لألعابه دقائق تشي الحجي حائرا^(١)

ومن خلال ذلك الوصف يقفنا الشاعر على تلك الحركات الاستعراضية،

واللقطات الفنية المثيرة، التي تشبه الألعاب البهلوانية في تضليلها النظارة نتيجة لسرعتها وخفتها، كما تعطينا الآيات صورة عن الراقصة وما تتمتع به من رشاقة ولياقة ومرونة، من خلال تنني أعطاها وليونة أجزاء جسمها.

وقد استطاع اللاعب المصري أن يبهر العقول ويذهل النظارة بما يظهر من حركات مثيرة خادعة، وفي كل ذلك ما يعكس الذوق الحضري المترف والعناية بألوان اللذائذ ووسائل المتع لدى الأندلسيين، والتي كانت ملهمة للشعراء مثيرة لاهتماماتهم.

وربما كان الموشح أكثر ملاءمة للوصف في مجالس الغناء والرقص، لخفة وزنه وإيقاعه، وقرب كلماته من الكلام العامي المألوف، فقد أنشد ابن أرفع رأسه موشحة بين يدي يوسف بن هود، يصف فيها راقصة كانت تشدو بألحان بديعة، يقول فيها: مجزوء الرجز

لا أنسى إذ تغنت هيفاء في السمر

بشدوها وحننت لهزة الوتر

تشكو لمن تشكّت من هجر من هجر^(١)

وفي مجالس الغناء ندرك مدى ما كان يلحق السمار والندماء من أريحية وانتشاء، وهم بين أيدي أمرائهم أو أصحاب المجالس، يقول المطرب أبو بكر الإشبيلي: «حضرت مجلس الرشيد بن المنعم بن عباد وعنده الوزير أبو بكر بن عمار، فلما دارت الكأس وتمكن الأنس، وغنيته أصواتاً، وذهب به الطرب كل مذهب، قال ابن عمار ارتجالاً: البسيط

ما ضر إن قيل إسحاق وموصله ها أنت أنت وذو حمص وإسحاق

أنت الرشيد فدع ما قد سمعت به وإن تشابه أخلاق وأعراق

لله درك داركها مشعشة واحفز بساقيك ما قامت بنا ساق^(٢)

(١) ديوان الموشحات: م ١، ص ٢١.

(٢) الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٨٥.

فيلاحظ في الأبيات مدى ما لحق بابن عمار من طرب ونشوة جعلته يتفخ في
أوداج أميره بذلك الوصف للمجلس وصاحبه، فقد شبه مجلسه بمجلس هارون
الرشيد، ومغنيه بإسحاق الموصلي، وذلك سوف يزيد من سعادة الأمير ويغريه بالزهو
والاغترار والانبساط.

وكما كانت مجالس الغناء تنعقد داخل القصور كانت تنعقد وسط الرياض
والمتزهات على أضواء القمر، وربما أحيائها أمام الأمير كوكبة من المغنين أو المغنيات على
هيئة فرق إنشاد، يقول المعتمد بن عباد واصفاً أحد تلك المجالس: الكامل

وترى الكواكب كالمواكب حوله رفعت ثرياتها عليه لواء
وحكيته في الأرض بين مواكب وكواعب، جمعت سناً وسناء
إن نثرت تلك الدروع حنادساً ملأت لنا هذي الكؤوس ضياء
وإذا تغنت هذه في مزهر لم تأل تلك على التريك غناء^(١)

وقد كانت المجالس الغنائية تثير النشاط الأدبي بما يدور فيها، إلى جانب
الوصف، من معارضات للشعر المغنى، ونقاشات وآراء لغوية، ونحوها، ومن ذلك أن
جارية قامت تغني بين يدي المعتمد بشعر مشرقى لابن المعتز: المتقارب

وخمارة من بنات المجوس ترى الزق في بيتها شائلا
وزنا لها ذهباً جامداً فكالت لنا ذهباً سائلا^(٢)

فقال المعتمد بديهاً: المتقارب

وقلت خذي جوهرأ ثابتاً فقالت : خذوا عرضاً زائلا^(٣)

(١) الديوان: ص ٢٨، التريك: بيضة الحديد التي يضعها المحارب على راسه. انظر لسان العرب
مادة: ترك.

(٢) الديوان: ص ٥٩٧.

(٣) البداهة: ص ١٥٨.

وقد يؤمر أحد الحاضرين بمعارضة الشعر المغني^(١)، وقد تشير الأشعار المغناة الحاضرين، وتكون غرضة للنقد والملاحظات والنقاش والجدل فيما بينهم، ومن ذلك هذا المجلس الغنائي، فقد حضر الشاعر أبو محمد غانم بن الوليد المخزومي (ت ٤٧٠هـ) مجلس العالي بالله إدريس بن يحيى بن حمود، فتغنى بشعر محدث أوله: **مجزوء الوافر**

إِذَا بَلَّغْتَنِي يَانَا قَتِي الْمُسْمَى إِدْرِيسَا

فكان العالي بالله استحسن الحُلَّة ولم يرض قوله «المُسْمَى»، وإنما هو الْمُسَمَّى أو الْمُسَمَّى من سَمِيتُ وأَسْمِيتُ، ولا يقال من التسمية سَمِيتُ ولا سَمِيتُ، ولو قال «المُسَمَّى بإدريسَا» لصح الوزن والكلام، فأطرق قليلاً- أيده الله- ثم قال للمغني أعد الذمات، وقل :

إِذَا ضَاقتْ بِكَ الدُّنْيَا فَعَرَجْ نَحْوُ إِدْرِيسَا

إِذَا لَاقَيْتَ تَلَسَّقَى رَئِيساً غَيْرَ مَرْوُوسَا

فتبادر من بالحضرة إلى حفظها، ثم قال : أيجوز من طريق النحو «رئيساً غير مَرْوُوسَا»؟ فقلت : للنحويين في هذا مذهبان، وهم في جوازه وامتناعه فرقان، فأهل البصرة أنكروه، والأخفش والكوفيون في جوازه وامتناعه فرقان^(٢).

فقد حاول ابن الوليد المخزومي إيجاد مخرج للأمير لكنه أخفق، وعندما رأى الأمير تسويغاته الواهية وحججه الضعيفة لتمرير الخطأ «أمر أن يبدل مكان غير» في البيت «ليس مَرْوُوسَا» وقال : السلامة من الاختلاف أولى في طريق الإنصاف^(٣)، وفي ذلك دلالة على ما كان يقوم به الحاضرون من مجاملات لإرضاء الأمير على حساب العلم.

وكان الفقهاء يحضرون مثل هذه المجالس^(٤)، وحين لا يروقهم ما يشاهدونه فيها

(١) انظر: القلائد: م ١، ص ١٥١-١٥٢.

(٢) الذخيرة: ق ٢م، ص ٨٦٤-٨٦٥ ولنا وقفة أخرى مع هذا المجلس عند حديثنا عن النقد.

(٣) المصدر نفسه والمكان ذاته.

(٤) انظر: «أخبار الغناء والمغنين في الأندلس»، ص ١٢.

يوجهون إلى أصحابها نقداً أخلاقياً، لسكوتهم عما يجري فيها من خروج على الآداب وانحراف عن السلوك القويم، يقول ابن حزم: « كنت في مجلس فيه إخوان لنا عند بعض مياسر أهل بلدنا، فرأيت بين من حضر، وبين من كان بالحضرة-أيضاً- من أهل أصحاب المجلس أمراً أنكرته وغمزاً استبشعته، وخلوات الحين بعد الحين، وصاحب المجلس كالغائب أو النائم فنبهته بالتعريض فلم ينتبه، وحركته بالتصريح فلم يتحرك، فجعلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن، وهما هذان : الخفيف

إن إخوانه المقيمين بالأمس أتوا للزناء لا للغناء

قطعوا أمرهم وأنت حمار موقر من بلاد غباء

وأكثر من إنشادهما حتى قال لي صاحب المجلس: قد أملتنا من سماعهما فتفضل بتركهما أو إنشاد غيرهما، فأمسكت وأنا لا أدري أغافل هو أم متغافل، وما أذكر أنني عدت إلى ذلك المجلس بعدها^(١).

وقد يكون النقد تندراً وسخرية بالراقصات والمغنيات، ومن ذلك قول محمد بن مسعود بن خضله، في رواقص قباح الوجوه: مخلع البسيط

جاء علي بملهيات اللهم والقبح جامعات

لم يلتفت ناظري إليها إلا تذكرت سيئاتي

وقال فيهن وبينهن واحدة أشبه : المنسرح

وليلة طولها علي سنة بات بها الجفن نادباً وسنة

بأربع بينهن واحدة كسيئات وبينها حسنة^(٢)

وربما كانت متجالتس الغناء نوعاً من العلاج للنفوس المكتئبة، وتفريجاً للهموم

(١) طوق الحمامة: ص ١٢٨.

(٢) الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٩٥.

الجائمة على الصدور، يقول ابن اللبانة: « كنت بين يدي الرشيد بن المعتمد في مجلس أنسه، فورد الخبر بأخذ يوسف بن تاشفين غرناطة سنة ٤٨٣هـ، فتفجع وتلهف واسترجع أسفه، وذكر قصر غرناطة، فدعونا لعزه بالدوام، ولملكه بتراخي الأيام، وأمر عند ذلك أبا بكر الإشبيلي بالغناء فغنى : البسيط

إن شئت ألا ترى صبراً لمصطبر فانظر على أي حال أصبح الطفل

فتأكد تطيره، واشتد اربداد وجهه وتغيره، وأمر مغنية أخرى بالغناء فغنت : البسيط

يا لهف نفسي على مال أضيعه على المقلين من أهل المروءات

إن اعتذاري إلى من جاء يسألني مالست أملك من إحدى المصيات

قال فتلاقت الحال بأن قلت : البسيط

محل مكرمة لا هـد مبناة وشمل مائرة لا شئت الله

البيت كالبيت، لكن زاد ذا شرفاً أن الرشيد مع المعتد ركنه

ثاو على أنجم الجوزاء مقعده وراحل في سبيل السعد مسراه

فلعمري لقد بسطت من نفسه، وأعدت إليه بعض أنسه، على أني وقعت فيما وقع فيه الكل لقولي البيت كالبيت.

وأمر إثر ذلك أبا بكر فغنى : الطويل

ولما قضينا من منى كل حاجة ولم يبق إلا أن تُزَمَّ الركائبُ

فأيقنا أن هذا التطير يعقبه التغير^(١).

من كل ما سبق يتضح لنا أن ثم أثراً اجتماعياً أصاب المجتمع الأندلسي في حياته،

قد تمثل في تلك الموجة الفنية التي طغت وعمت المجتمع الأندلسي بمختلف فئاته

(١) النفع: ج ٥، ص ٢٤٠-٢٤١.

وطبقاته، وليس ذلك غريباً عن مجتمع عرف برقة الطباع وإغرام الغزل، فاستعانوا عليه بالموسيقى والرقص والغناء^(١).

ومن المؤكد-وكما لاحظنا- أن هذه المجالس الغنائية، وما كان يغمر أصحابها من أنس وطرب وسرور وبهجة، قد أثرت في نفوس الشعراء وحفزتهم على وصف أحوالها، يقول أحد الباحثين: «إن الشعر الأندلسي استمد من جو المجالس الغنائية بعض القوة والإلهام»^(٢).

ولنا أن نتساءل: هل كانت حياة المجتمع الأندلسي كلها لاهية سادرة على نحو ما رأينا غارقة في المتع واللذائذ في أحوالها كلها؟

وللإجابة على ذلك نقول باختصار: إن الأندلسيين كانوا ينظرون إلى هذه الوسائل على أنها ضرب من ضروب التسلية والترفيه عن النفس، وهي أشبه بوسائل ترفيه عصرنا الكثيرة المتنوعة، فكانوا يرفهون عن أنفسهم بكل ما هو ممكن ومتاح.

وقد كان بعضهم يوزع حياته بين الجد واللعب والتعب والراحة، لا يجعلها كلها جداً وكذاً ولا يجعلها كلها لهواً ولعباً، وقد أشار المعتضد بن عباد إلى هاتين الصورتين في حياته بقوله: الطويل

قسمت زماني بين كد وراحة	فللرأي أسحار وللطيب آصال
فأُمسي على اللذات واللهو عاكفاً	وأُضحى بساحات الرئاسة أختال
ولست على الإدمان أغفلُ بغيّتي	من المجد إنني في المعالي لمحتال ^(٣)

ففي الأبيات إشارة واضحة إلى ذلك التزاوج والمزج بين الحياتين وعمل نوع من التوازن والاعتدال في حياة الأمير.

(١) ظهر الإسلام: أحمد أمين، بيروت، ط ٥، ١٩٦٩م، ج ٣، ص ٣٣.

(٢) أدب الأندلس وتاريخها: ص ٧.

(٣) الحلة السراء: ج ٢، ص ٤٦.

الفصل الثاني

قضايا البناء الفني والملاحظات النقدية

١- البناء الفني لشعر المجالس:

فن الرسالة الشعرية:

لقد كان الدافع إلى نظم الرسالة الشعرية أمور كثيرة، منها : عقد المجالس الشعرية، والعلاقات الحميمة بين الشعراء والملوك، وبين الشعراء أنفسهم، والارتحال والتنقل من بلد إلى بلد^(١)، وسوف تقتصر على دراسة الرسائل المتعلقة بالمجالس الشعرية.

ويجد الباحث في تلك الرسائل أنها لا تكاد تخرج عن الأغراض الآتية : الدعوة إلى حضور مجلس، والعتاب، والشكر، والاستهداء، والاستعطاف.

والرسالة الشعرية- كما هو واضح من خلال الشواهد والنماذج- تنطوي على خصائص معنوية وأخرى بنائية سوف نعرض لها في هذه الدراسة. ووفقاً لما هو مألوف كان ينبغي أن نتحدث أولاً عن الخصائص المعنوية، ومن ثم نتناول الخصائص البنائية، لكن الباحث يرى أن الخصائص المعنوية هي نتاج وإفراز للخصائص البنائية ومرتبة عليها، فالتقديم والتأخير، والتعريف والتكثير، والوصل والفصل والسرقة والجزالة في الألفاظ ونحو ذلك، يترتب عليها معانٍ تبعاً لهذا التأليف أو ذاك التركيب^(٢)؛ لذلك سيتم البدء بدراسة خصائص الرسالة البنائية.

لقد كانت تلك الرسائل الشعرية أشبه بالبرقيات-في عصرنا- من حيث مبنائها ومعناها، فهي عبارة عن مقطوعات صغيرة لا تقل عن بيتين، ولا تزيد- في الغالب- على عشرة أبيات، يراد منها إيصال فكرة معينة ومحددة، كما سنرى^(٣).

فأول ما يلاحظ في بناء هذه الرسائل الشعرية :

(١) انظر: الأدب العربي في جزر الليار: ص ٧٨.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز/ الجرجاني: عبد القادر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧٤هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ١٠٠-١٠١، ١٤٦، ٢٢، ٢٥٤، ٣٦٢، ٣٢٨، ٢٥٥.

(٣) انظر: على سبيل المثال: النفح/ ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٣٥٧/٤، ١٥٧/٢، والذخيرة، ق ٢، م ١، ص ٢٣٨، ق ٢م ٢، ص ٨٧٦، والقلائد : م ١، ص ٥٨، والمطرب: ص ٣٩.

- أنها تخلو من المقدمات الاستفتاحية الموروثة؛ لأن موقف القول لا يحتمل ذلك ولا يقتضيه، كما هو الحال مع القصائد المدحية التي تلقى بين يدي الأمير، فقد لوحظ أن القصيدة تبنى -غالباً- من مطالع طلبية أو وصفية، أو خميرية، يجعل الشاعر منها مدخلاً إلى الغرض، فيذكر الديار والأحباب أو الحنين إلى ذكريات عزيزة وجميلة، وأزمان غابرة، أو التسلي والتعزي عنها بما تغير من أحوال وتبدل من ظروف.

يقول ابن حمديس: المنسرح

ورد الخدود ونرجس المقل عدلاً بسمعتي عن العذل^(١)

ويقول ابن جاج: الكامل

قطعت يا يوم النوى أكبادي وحرمت عن عيني لذيد رقاد^(٢)

ويقول ابن شرف: الرمل

مطل الليل بوعد الفلق وتشكى النجم طول الأرق^(٣)

ويقول ابن مقان: الرمل

البرق لائح من أندرين ذرقت عينك بالماء المعين^(٤)

فالشعراء السابقون قدموا قصائدهم بتلك المطالع ثم أردفوها بما أشادوا به من وصف ونحوه.

لكن الأمر في الرسائل الشعرية، الداخلة في شرط الدراسة^(٥)، يختلف عن ذلك، فهي تدخل إلى الغرض مباشرة دون مقدمات، وربما يعود ذلك إلى كونها مقطوعات صغيرة، يتحرى فيها الإيجاز الشديد، ولأنها - أيضاً - ليست هي الغرض المقصود لذاته، وإنما هي وسيلة إلى غاية مرجوة منها.

(١) الديوان: ص ٣٧١.

(٢) الفتح: ج ٦، ص ٢٠-٢١.

(٣) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٣٥٢.

(٤) المصدر نفسه: ج ١، ص ٢٠٦، ٤١٤، ٤١٦.

(٥) انظر: الصفحة السابقة.

ومن الأمثلة على ذلك أن المعتمد كتب إلى مجموعة من الوزراء والكتاب يدعوهم

إلى مجلسه، فقال : الخفيف

حَسَدَ الْقَصْرُ فَيْكُمْ الزَّهْرَاءَ وَلَعْمَرِي وَعَمْرُكُمْ مَا أَسَاءَ

قَدْ طَلَعْتُمْ بِهِ شَمُوساً صَبَاحاً فَاطْلَعُوا عِنْدَنَا بِدَوْرًا مَسَاءً^(١)

فقد دخل إلى الموضوع مباشرة، والذي يتتبع بقية النماذج الأخرى - التي أشرنا إليها سابقاً-، سيلاحظ أنها لا تخرج عن هذا الأسلوب.

- وهناك قضية في بناء الرسالة الشعرية، في غاية الأهمية، وهي ذلك النظام المتبع لدى المتراسلين في كيفية صياغة الرسالة والرد عليها، رغبة منهم في اختبار مواهبهم وقدراتهم على خوض هذا الميدان والتسابق في مضماره .

كتب المعتمد إلى ابن عمار يدعوهُ إلى مجلسه فقال : مَخْلَعُ الْبَسِيطِ

قَدْ زَارَنَا التَّرْجُسُ الذِّكِيُّ وَأَنْ مِنْ يَوْمِنَا الْعِشِيُّ

وَنَحْنُ فِي مَجْلَسٍ أُنِيقٍ وَقَدْ ظَمُنَا وَتَسَمَّ رِي

وَلِي نَدِيمٌ غَدَا سَمِيٍّ يَا لَيْتَهُ سَاعَدَ السَّنِيَّ

فأجابه ابن عمار : مَخْلَعُ الْبَسِيطِ

لِيكَ لِيكَ مِنْ مَنَادٍ لَهُ النَّدَى الرَّحْبُ وَالنَّدِيُّ

هَا أَنَا فِي الْبَابِ عَبْدُ قَنَّ قَبْلَتَهُ وَجْهُكَ السَّنِيُّ

شَرْفُهُ وَالِدَاهُ بِاسْمٍ شَرْفَتُهُ أَنْتَ وَالنَّبِيُّ^(٢)

فرسالة المعتمد-كما نلاحظ- مكونة من ثلاثة أبيات، وقافيتها الياء، وبحرها من

(١) الديوان : ٤٩ .

(٢) الذخيرة : ق ٢ م ١، ص ٤٦، والمطرب : ١٦-١٧، والنفع : ج ٦، ص ٨٦، ج ٤، ص ٣٣٠-٣٣١ .

المخلع البسيط^(١)، وكذلك كانت رسالة ابن عمار.

وربما التزموا الوزن والقافية دون عدد الأبيات، ومن ذلك نماذج كثيرة^(٢)، منها هذه

الدعوة التي بعث بها ابن رزين حسام الدين إلى ابن عمار: الطويل

ضماناً على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت في ودي مسراً ومعلننا

فلو تسأل الأيام من هو مفرد بود ابن عمار؟ لقلت لها: أنا^(٣)

فرد عليه ابن عمار بمقطوعة بلغت تسعة أبيات ملتزماً فيها الوزن نفسه والقافية

نفسها^(٤).

ومما يلاحظ على بناء الرسالة الشعرية أنها صيغت من الفاظ رقيقة عذبة يسيرة

سهلة، تم اختيارها من قبل قائلها اختياراً ينم عن أحاسيس صادقة متبادلة بين المتراسلين

وخاصية رسائل الأمراء إلى الشعراء، ورسائل هؤلاء الأخيرين إلى بعضهم البعض،

حيث نلمس فيها أيضاً من المشاعر النبيلة، وحشداً من الأحاسيس الرقيقة.

ونبدأ بالرسائل المتبادلة بين الملوك، وخاصة تلك الرسائل المتضمنة دعوات للقاءات

يقوم بها الأمراء فيما بينهم ما بين الحين والآخر، وتلقانا مقطوعة شعرية للمعتضد بن

عباد بعث بها إلى أمير دانية، مجاهد العامري، يقول فيها: الكامل

أترى اللقاء كما نحب فوق فنظل نصبح بالسرور ونغب

حتام تطلني الليالي قرب من قلبي له متشوق متشوق

(١) وزن المخلع البسيط، (مستفعلن فاعلن فعولن) والتفعيلة الأخيرة أصلها: مُتَفَعِّل تحولت إلى فعولن. (انظر: عليم العروض والقافية، عبدالعزيز عتيق، ص ٥١).

(٢) انظر: النفح: ج ٤، ص ٣٥٧، وديوان ابن زيدون: ص ٢١١-٢١٢، والمعتمد بن عباد: على أدهم، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، ص ١١٠.

(٣) النفح: ج ٢، ص ١٩٦.

(٤) المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٩٦-١٩٧.

أفدى أبا الجيش المسوق إنه للمكرمات ميسر وموفق

باهى به الزمن البهي كأنه بشر على وجه الزمان وروث^(١)

في هذه المقطوعة الرقيقة الألفاظ الناعمة الكلمات قد لا نجد فيها شيئاً من الصدق العاطفي الذي تحدثنا عنه سابقاً، كما توحى به كلماتها، لأننا نعلم أن رجلاً مثل المعتضد لا يمكن أن يصدر عنه ذلك الكلام من أعماقه، ويتودد هذا التودد، وهذا يجعلنا نختلف مع الدكتور سعد شلبي الذي يذهب إلى القول بأن الرسائل المتبادلة بين الأمراء «تمتاز بالصدق الخالص، فلا تزلف ولا تزوير»^(٢). وذلك ممكن في الرسائل المتبادلة في إطار الأسرة الواحدة، كأن يرسل الأب إلى ابنه أو العكس برسالة دعوة أو رسالة عتاب أو اعتذار، أو نحو ذلك، لكننا لا نتفق معه، في الحكم السابق، في الرسائل المتبادلة بين أمير دولة وأمير دولة أخرى بصورة مطلقة، والقطعة السابقة خير دليل على ذلك، فالمعتضد وإن كان صاغها صياغة رقيقة، وضمنها مشاعر لطيفة وأحاسيس نبيلة، وثناءً عاطفياً وتودداً غامراً، لكننا لا نستطيع القطع بقاء السريرة وصفاء الضمير وصدق العاطفة وسلامة النية لديه، لسبب بسيط، وهو ذلك التزلف المصطنع الذي بدا واضحاً في روح القطعة، وخاصة حين نقف على مثل كلمة «أفدي» وهو أمر لا يتفق بأي حال من الأحوال مع ما عرف عنه المعتضد من شدة بأس، وعظيم سطوة، وقوة جيوش. ووراء تلك النعمومة والرقّة والابتسام الصفاء - إن جاز التعبير - مآرب لا يمكن أن تخفى.

وهناك مقطوعة أخرى بعث بها -أيضاً- إلى مجاهد نستطيع أن نقول فيها ما قلناه في سابقتها^(٣).

لكن الأمر يختلف مع رسائل الأمراء إلى الشعراء حيث نحس بحرارة العاطفة

(١) الحلة السيرة: ج ٢، ص ٤٧.

(٢) البيئة الأندلسية: ص ٤٦٩.

(٣) انظر: الأبيات: ص ١١ من هذا البحث.

وصدق الشاعر، فالمعتمد في دعوته التي وجهها إلى أبي محمد المصري^(١) اختار لها من الألفاظ الدرية والمعاني الجوهرية ما يذوب رقة وعدوبة ويشف نقاءً وصفاءً، ويسمو حباً ووفاءً، ناهيك عن تلك الألفاظ التي تشع وتثاق وتبهج النفوس وتبعث على السعادة، وتوحي بتحقيق الآمال المشرقة، والأحلام المترعة السعيدة.

حيث يبدأها بقوله «أيها صاحب»، وهو استهلال بارع مقصود، فيخاطب المنادى دون ذكر حرف النداء، لقرب المخاطب منه، ثم ينعت بصفة تذيب كل الفوارق الاجتماعية والطبقية بينه وبين المخاطب، وهي لفظ «صاحب» وهذا من شأنه يكسر الحواجز النفسية، ويزيل الكلفة والاحتشام أثناء السمر والمناذمة، ويعمل على اطراح الحرج والوقار أثناء المجالسة والمؤانسة، ولعظم المنزلة وسمو المكانة للمدعو اختار الشاعر لفظتي «العين والنفس» وهما أغلى ما يملك الإنسان، وجعل وجودهما مرهوناً بوجود المدعو، واختار للفظتين «العين» و«النفس» ما يلائمهما، وهو «السناء» والزيادة به النور، وللظة «النفس» السناء والمراد به المجد والرفعة والسمو، وماذا يبقى للمرء بعدهما إن عدمهما، فالشاعر من غير صديقه يعد نفسه عدماً لا قيمة له.

وفي بقية الأبيات تحتشد الألفاظ وتتابع بما يضي على المجلس أجواء حاملة تفيض بالبشر، وتفعم بالمرح، وتغري بكل لذيذ وممتع، فالمجلس يهب الراحة ويُطرب بالغناء، ويزيل الهموم، ويفرج الكروب، وينعش الأرواح، ويهيج النفوس، ويغري بالملذات، ويرفع من الشأن والقدر، ويمد في العمر والحياة.

ذلك ما يمكن أن نفهمه من ألفاظ الدعوة التي صاغها أمير إلى صديقه، وبنها بذلك الأسلوب، وربما لا نجد كثيراً من الفرق بينها وبين رسالة أخرى بعث بها المتوكل ابن الأفتس إلى نديم له، وهو الوزير أبو طالب بن غانم^(٢)، حيث يلاحظ أنه بدأها

(١) النسخ: ج ٦، ص ٥٦.

(٢) المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٩٨.

بقوله: «أقبل أبا طالب» مستخدماً فعل الأمر «أقبل» وفيه دلالة على طلب السرعة في الوصول إلى المجلس، والدعوة موجهة إليه مباشرة دون وسيط، وفيها دلالة على عدم الكلفة بين الداعي والمدعو، ثم يختار لفظ «الندى» والتعبير بهذا اللفظ فيه إحياء شاعري رقيق، فهو يُذكر بجمال منظر هذا العنصر الطبيعي حين يغطي الأوراق عند انبلاج الصباح، ويضفي عليها منظرًا بديعاً ووجهاً غضاً ظرياً.

وكثيراً ما عبر الشعراء بهذا اللفظ لرقته ولطافته وحسن وقعه في النفوس، يقول ابن عمار مادحاً المعتضد بن عباد: الكامل

أندى على الأكباد من قطر الندى وألذ في الأجفان من سِنَّة الكرى^(١)

ولمكانه المدعو لدى الأمير أنزله منه منزلة الواسطة من العقد، وما أجمل هذا الجنس بين هاتين الكلمتين «وقع وقوع الندى» ففيها إحياء من الشاعر بمدى الرغبة الشديدة إلى المدعو، فهو متعطش للقاءه تعطش الأرض الجذباء إلى السحابة الحبلية، وهناك كثير من الرسائل التي يحرص فيها الشعراء على تحميلها معاني الشوق واللهفة والحرص على الاستجابة من بعضهم البعض^(٢).

وإذا كنا قد لاحظنا طريقة بناء الملوك لرسائلهم إلى المدعويين وأنها، وإن كانت قد أزلت النوارق وأغت الحواجز، إلا أنها حافظت على مستوى معين من التعبير، ولم تهبط إلى مستوى سائر الشعراء، حيث احتفظت لأصحابها بشيء من علو المنزلة والقدرة.

والآن ماذا عن رسائل الشعراء؟ سواء ما كان موجهاً منها إلى الأمراء أو إلى بعضهم بعضاً.

عندما قدم الوزير أبو الأصبغ على المعتمد بن عباد سفيراً من قبل المعتصم بعث

(١) المغرب: ج ١، ص ٣٩١.

(٢) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ص ٤٧٨.

إليه يستأذنه بآيات من الشعر يقول فيها : البسيط

يا ملكاً عظمته العربُ والعجمُ وواحداً وهو في أثوابه أممٌ

إنا وردناك والأقطار مظلمة والبدر يرجي إذا ما تحت الظلم^(١)

فالشاعر- كما نلاحظ- بنى رسالته بناء فيه من الجلالة والتعظيم والتفخيم ما لا يخفى، فقد اختار حرف النداء «يا» للدلالة على بعد مكانة الأمير، وفي تنكير لفظ «ملك» دلالة على العظمة والشمولية في الملك، وفي كل من لفظتي «وردنا»، «البدر» ما يوحي بأن الأمير مصدر السقي والري والحياة والنور، فهو كهف الغرباء وملاذ الأدباء وسراج الأمراء.

وفي ردود الشعراء على الأمراء نلاحظ في بناء تلك الردود شيئاً من التودد والتواضع والمسكنة والشعور بالدونية أمام مقام الأمراء، فحين دعا المعتمد ابن عمار إلى حضور مجلسه أجابه على الفور مضطحبا معه رداً على رسالة المعتمد إليه^(٢)، واستهل رده بقوله :

« لبيك لبيك » ولا يخفى ما في هاتين الكلمتين من معاني الطاعة المطلقة، والاستجابة ذات التسليم المطلق، الدال على أقصى درجات التنفيذ لما هو مطلوب منه.

وفي قوله : مخلع البسيط

« ها أنا في الباب عبد قن قبلته وجهك السني »

غاية في المسكنة والتواضع والتذلل، ثم يقرن اسم الأمير باسم النبي (ص) فيقول :

« شرفه والداه باسم شرفته أنت والنبي »

للدلالة على مكانة الأمير السامية والكريمة في نفس الشاعر.

(١) ديوان المعتمد بن عباد: ص ٥٩.

(٢) الذخيرة: ق ١٢٢، ص ٤٦.

وها هو ذا شاعر آخر ينهج الأسلوب نفسه في رسالة رد بها على أمير آخر، فقد وجه الحاجب أبو زكريا يحيى بن المعتصم رسالة إلى الشاعر يحيى بن مطروح لحضور مجلته^(١)، فرد عليه الشاعر بقوله: الرمل

أنا عبدٌ من أقلّ الأعبدِ قبلي وجهٌ بأفنى الأسعدِ
كلما أظمأني وردٌ فما مني هلي إلا بذاك الموردِ
ها أنا بالباب أبغي إذنكم والنظما قد مد للكَاسِ يدي^(٢)

لقد كانت تلك المقامات تقتضي من المتراسلين أن يختاروا لمعانيهم أرق الألفاظ وأعذبها، فواءموا بين معانيهم وألفاظهم، وهو أسلوب أشاد به النقاد القدماء والمحدثون، وألحوا عليه أثناء حديثهم عن ضرورة التلائم بين المعاني وطرائق التعبير عنها وأهمية ذلك^(٣).

ولننظر إلى أبيات ابن زيدون التالية التي ردَّ بها على المعتمد لتبين تلك الرقة والعذوبة والنعومة التي وصف بها شعر المعتمد: الرمل

أسقيطُ الطلِّ فوقَ الترجسِ أم نسيمُ الروضِ تحتَ الحِنْدِسِ
أم نظامٌ للآلِ نسقي جامِيعٌ كلَّ خطيرٍ مُنْفسِ
أم قريضٌ جاءني عن ملك مالكٌ بالبرِّ رِقَّ الأنْفُسِ^(٤)

فهو أرق من النسيم، وأعذب من الماء السلسيل، وألطف من الندى في غسق الدجى، وأنضد من القلائد على نحور الخرائد.

(١) النفح: ج ٤. ص ٣٣٠.

(٢) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٣٣١.

(٣) انظر: موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٩٦٥م، ص ٢٢.

(٤) الديوان: ص ٢١١-٢١٢.

أما ما يتعلق برسائل الشعراء المتبادلة فيما بينهم فإننا نجد أن هناك قاسماً مشتركاً بينها وبين الرسائل الشعرية الإخوانية، وهو التلطف في التعبير والتودد في التخاطب، لكن ما يلاحظ عليها، بالإضافة إلى ما سبق، أن بعضها أشبه برسائل المحبين المتعاشقين المتغزلين، فالشاعر حين يرسل بقطعة شعرية إلى صديقه يختار لها من الألفاظ ما يجعلها أشبه برسالة محب شغوف شفه الوجد وأمضه القراق وبرح به الهيام، ولنستمع إلى رسالة أبي علي الحسن بن الغليظ التي بعث بها إلى صديقه أبي عبد الله بن السراج يقول فيها : البسيط

يا من أقلب طرفي في محاسنه فلا أرى مثله في السناس إنسانا

لو كنت تعلم ما لقيت بعدك ما شربت كأساً ولا استحسنت ريحانا^(١)

فنحن أمام شاعر مشوق ولهان، وفي تلك المشاعر الحميمة المشوبة بصدق العاطفة ما يجعلنا نقر بعنق المحبة وضماء المودة التي يكتسها الشاعر لصديقه، وذلك أبرز ما يميز رسائل الشعراء إلى بعضهم بعضاً، بخلاف رسائل الأمراء إلى الأمراء، فهي وإن كانت تتسم بالركة والعدوبة، إلا أن بعضها يشوبه شيء من النفاق والخداع، وكذلك رسائل الشعراء إلى الأمراء، فإن أكثرها لا يخلو من التملق والتزلف والحب الزائف.

وما يلحق بقرن الرسالة الشعرية ما تواطأ عليه المتراسلون في دعوات الحضور إلى المجالس الشعرية، من ضرورة حضور المدعو مصطحباً معه الرد^(٢)، ويلزمه في حالة التخلف عن الحضور الاعتذار بشيء مقنع للداعي له شعراً^(٣)؛ لأن عدم هذا أو ذاك سوف يقلل من مكانته الأدبية وموهبته الشعرية^(٤).

ومن الممكن أن نعد تلك الرسائل الشعرية ضرباً من ضروب المعارضة الشعرية

(١) النفع : ٤ ج، ص ٣٥٧.

(٢) انظر: المطرب: ص ٣٨، والنفع: ٢ ج، ص ١٩٦-١٩٧.

(٣) انظر: الذخيرة: ق ٢٢، ص ٤٧، ق ٢١، ص ٨٧١.

(٤) انظر: النقد الأدبي في كتاب نفع الطيب: ص ١٩٤.

«فقد ترد صور من الرسائل الشعرية المتبادلة بين الشعراء، وهذه يمكن أن يسير بعضها في إطار المعارضات إذا ما توحدت بين الشاعرين الأطر الشكلية للقصيدة، أو تشابهت التجارب، ومن ثم يبدو الشاعران وكأنما قصدا بالفعل إلى هذا الضرب من ضروب الإبداع الفني»^(١).

وهناك ضرب من الرسائل الشعرية، يُبنى بناء خاصاً، ولع به الأندلسيون يعرف بـ «المطيرات»، وهو: «نوع من المطارحات الشعرية ينهض على الأحاجي والألغاز، وتدور كلها على أسماء الطيور، ولكل طائر حرف يرمز إليه، وقد تتغير الرموز بتغير القصائد»^(٢).

وفي ديوان ابن زيدون والمعتمد بن عباد كثير من هذه الرسائل^(٣)، والذي يعد أثراً من آثار الترف الذهني، وضرباً من ضروب الرياضة العقلية.

وتسمى تلك الرسائل -أيضاً- بالمعميات^(٤)، وقد دار بين ابن زيدون وبين المعتمد كثير منها: «فكان أحدهما يرسل إلى الآخر قصيدة يشير بها إلى بيت أو بيتين من الشعر رامزاً إلى كل حرف من حروفه باسم طير من الطيور، ولذلك يسمى البيت بالمطير»^(٥).

وكان الشاعران يفهمان تلك الحروف ورموزها وحدهما، مما يجعلها بمثابة الشفرات السرية التي لا يعلمها أحد غيرهما.

ونظراً لعدم دخول هذا اللون من الشعر في ميادين العاطفة وبحور الوجدان،

(١) المعارضات الشعرية (أنماط وتجازب): عبدالله التطاوي، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٨م ص ٨٦.

(٢) ديوان ابن زيدون: ص ٥٩٤.

(٣) انظر: المصدر نفسه: وديوان المعتمد بن عباد.

(٤) المصدر نفسه: ص ٧٧.

(٥) المصدر نفسه والمكان ذاته.

وخلوة من روح الأدب وخياله، وأنه إلى النظم العلمي أقرب منه إلى الفن الأدبي، فقد اطرحت ولم تتناوله في هذه الدراسة، على الرغم من أنه كان واحداً من أنشطة المجالس الأدبية الذي تبارى به الشعراء فيها، وتألقت قدراتهم الذهنية فيه ومواهبهم الإبداعية.

فإذا عرفنا ما سبق تبين لنا كيف كانت تبنى الرسالة الشعرية الخاصة بالدعوات إلى المجالس الشعرية، حيث كانت تتسم بطريقة معينة في بنائها وعرف سائد في كتابتها ونظام متبع يصل إلى درجة الالتزام به، وعدم الخروج عليه، وكان لها من الضوابط والقيود ما يجعلها فناً قائماً بذاته. كما اتضح لنا شدة عناية المتراسلين بالفاظهم وحسن تخييرهم لها، وحرصهم على ضرورة المواءمة والملاءمة بين الأساليب والمقامات التي تقال فيها الأشعار، وقد تحروا فيها الرقة والوضوح والسهولة انسجاماً مع الذوق الأدبي العام للمجتمع الأندلسي^(١).

وفي ضوء ذلك كله نستطيع أن نخلص إلى عدد من الخصائص المعنوية التي أفرزها الجانب البنائي للرسالة الشعرية، والتي يمكن أن يحملها فيما يلي:

- ١- أنها ذات وحدة شعورية وعاطفية تعبر عن موقف معين وهدف محدد.
- ٢- أنها تتسم بالمشاعر النبيلة والأحاسيس الرقيقة والمعاني الأخوية.
- ٣- أنها تحمل كثيراً من الأبعاد الاجتماعية مثل: الحرص على تعميق جذور المحبة والمودة والصحة والألفة، والمحافظة على بقاء حبائها موصولة، وإزالة الحواجز النفسية وإلغاء الفروق الاجتماعية والطبقية بين الشعراء والأمراء، واستراق الأوقات الجميلة وانتهاب الملذات الممتعة في أجواء تنعم بالأنس والمرح والبهجة عن طريق تلك اللقاءات المتجددة والاجتماعات المخصصة لذلك بين الندماء والأصحاب.
- ٤- أنها تحمل بعداً فنياً خاصاً بالشعراء، ففي تلك الرسائل يظهر المتقدم في الشعر من المتأخر، والبارع من المقصر، فهي ميدان للتنافس في الإجابة وإظهار المهارات الفنية والقدرات الإبداعية.

(١) إشبيلية في القرن الخامس الهجري: صلاح خالص، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٨٥.

فن الإجازة في المجالس الشعرية:

الإجازة في الشعر هي: أن ينظم الشاعر على شعر غيره في معناه ما يكون به تمامه، وكماله^(١)، وهي ظاهرة فنية شاعت في الأندلس، وتدلل على الإقبال على الشعر والشغف به، والقدرة عليه وتمكن الأندلسيين منه^(٢)، فقد ولعوا بهذا الفن واعتبروه دلالة على مقدرة الشاعر الأدبية، وشاع فيهم شيوعاً كبيراً حتى أصبح الصبي حين يجيب على الإجازة يعلم أنه سيكون له شأن في الأدب والبيان^(٣).

وهي، إلى جانب كونها ضرباً من الترف الذهني واللهو العقلي، أشبه بالسؤال والجواب اللذين نتحسس بهما القدرات الفنية لدى المتأدين في الامتحان، واستطلاع مواهبهم، عندما نريد الحكم على ما يتمتعون به من التفكير والقدرة على التعبير عن أفكارهم بالشعر^(٤)، كما أنها تمثل مظهراً من مظاهر التحدي الفني والرغبة في إفحام الأقران في حلبة البيان.

والإجازة كالارتجال تقال بديهة، إلا أن بينهما فرقاً يكمن في: أن الأولى يطلب من صاحبها أن يقول في شيء لم يختار هو طريقة التعبير عنه، ولم يختار بحره ولا قافيته، بل عليه أن يتم ويكمل ما خطه غيره معنى ومبنى، وفي الثانية يكون الشاعر مخيراً بحيث يختار لأفكاره وموضوعه من التعبير ما يقدر عليه، ولا شك أن الإجازة، والحالة هذه، أصعب مراناً من الارتجال لذلك السبب^(٥).

وللإجازة طرق متعددة من حيث بناؤها، فقد تكون قسيماً بقسيم^(٦)، ومن ذلك ما

(١) البداهة: ص ٦١.

(٢) انظر: دراسات أدبية في الشعر الأندلسي: ص ٢٨.

(٣) انظر: النفح: ج ٣، ص ٥١٩-٥٢٠.

(٤) انظر: دراسات أدبية في الشعر الأندلسي: ص ٢٨.

(٥) المرجع نفسه والمكان ذاته.

(٦) انظر: البداهة: ص ٧٣-٧٤.

يروى عن المعتمد بن عباد أنه خرج في نزهة مع شعرائه، وعندما مر بشجرة تين أخذ عصاً وثبت على طرفها ثمرة من ثمارها، فأعجبه المنظر، وكان إلى جانبه ابن جاح الشاعر، فقال له: أجز: مجزوء الرجز

كأنها فوق العصا

فقال: بهامة زنجي عصى^(١)

فارتاح لذلك المعتمد وأمر له بجائزة سنية^(٢).

ولعل ارتياح المعتمد كان نابعاً من براعة ابن جاح في اهتدائه إلى تلك الصورة البيانية التي تخيلها الشاعر لهذا المنظر في سرعة خاطفة من دون روية أو تفكير، حيث شبه ثمرة التين السوداء على العصا بهامة زنجي فصل رأسه عن جسده ووضع على مكان مرتفع، والجامع بينهما اللون والهيئة.

وقد تكون الإجازة قسيماً بقسيم وبيت^(٣)، ومن ذلك ما يروى عن المتوكل بن الأفطس أنه صنع قسيماً يقول فيه: المجتث

الشعر خطه خسف

تم أرتج عليه، فاستدعى عبدالمجيد بن عبدون، وهو أحد وزراء دولته، فاستجازه إياه، فقال:

لكل طالب عرف

للشيخ عيبة عيب وللفتى ظرف ظرف^(٤)

(١) الديوان: ص ٧٤.

(٢) البدائع: ص ٧٣-٧٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ٧٩.

(٤) المصدر نفسه: ص ٨٠.

فيلاحظ أن القسم الثاني الذي أتم به ابن عبدون معنى قسم المتوكل كان متجانساً معه، متلائماً في فكرته، ثم لم يترك ذلك الحكم على إطلاقه، فأضاف بيتاً يفصل فيه الأمر ويجلي القضية، فيذهب إلى أن الشعر، والحالة هذه، شين بالشيوخ زين بالشباب.

وقد تكون الإجازة قسيماً بقسيم وأكثر من بيت^(١)، ومن ذلك ما يروى عن ابن شهيد أنه كان في مجلس بقرطبة، فاستجاز الوزير أبو جعفر بن عباس الحاضرين بهذا القسم: الكامل

مرضُ الجفونِ ولثغةُ في المنطقِ

فقال ابن شهيد للحاضرين: لا تجهدوا أنفسكم، فما المراد غيري، ثم أخذ الدواة فكتب:

سيان جرا عشق من لا يعشق

من لي بالثغ لا يزال حديثه يذكي على الأكباد جمرةً مُحرقِ

يُنبي فينبو في الكلام لسانه فكأنه من خمر عينيه سُقي

لا ينعش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له في مُهرَقِ^(٢)

وقصد ابن جاح الشاعر فخر الدولة، أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد، فلما

وصل إليه قال: أجز: البسيط

إذا مررت بركب العيس حيها

فقال ابن جاح في الحال:

يا ناقتي فعسى أحبابنا فيها

(١) المصدر السابق: ص ٨١.

(٢) ديوان ابن شهيد: ص ١٣٢.

ثم زاد فقال :

يا ناق عوجي على الأطلال علّ بها منهم غريباً يراني كيف أبكيها
أم كيف أرفض طيب العيش بعدهم أم كيف أسكب دمعاً في مغانيها
إني لأكنم أشواقني وأسترّها جهدي ولكن دموع العين تبديها^(١)

فابن شهيد في إجازته السابقة يظهر بجلاء اتكاؤه على رصيده الذاتي وشاعريته المطبوعة وقدرته على الابتداع والاختراع في معانيه وأفكاره ، لكن ابن جاح قد اتكا في إجازته على ما يحفظه من موروث ، فهو لم يتدع شيئاً ، فطالما تغنى الشعراء القدماء بالعيس والأطلال وبكائها في أشعارهم .

ومن إجازة بيت بيت ما يكون الشاعر قد عمل بيتاً واستجاز له أولاً ، أو عمل بيتين وأراد إبدال أحدهما أو الاختبار فيه^(٢) ، ومن ذلك ما يروى عن المعتمد أن جارية كانت تسميه الخمر ، وبينما هي كانت كذلك إذ لمع البرق فارتاعت ، فقال : السريخ

يروعها البرق وفي كفها برق من القهوة لماع
يا ليت شعري ، وهي شمس ضحى ، كيف من الأنوار ترتاع

فقال ابن وهبون :

ولن ترى أعجب من آنس من مثل ما يُسك يرتاع^(٣)

ومنها إجازة بيت بأكثر من بيت^(٤) ، ومن ذلك ما يرويه ابن بسام من أن المعتمد ابن عباد جلس يوماً في بعض دور الحرم ، فمر عليه بعض حظاياها «في غلالة لا يكاد يفرق بينها وبين جسمها ، وذوائب تبدي إياة الشمس في مدلهما ، فسكب عليها إناء ماء ورد كان بين يديه ، فامتزج الكل ليناً واسترسالاً وطيباً وجمالاً ، وأدركت المعتمد

(١) البداهة : ص ٨٥-٨٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٠٦ .

(٣) المطرب : ص ١٥ ، والبداهة : ص ١٠٧-١٠٨ .

(٤) البداهة : ص ١٠٩ .

أريحية الطرب، ومادت بعطفه راح الأدب، فقال: الكامل

وهويتُ سالية النفوس عزيزةً تختالُ بين أسنةٍ وبواترٍ

وتعذر عليه المثال، فقال لبعض الخدم القائمين على رأسه: سرّ إلى أبي الوليد النحلي، وخذه بإجازة هذا البيت ولا تفارقه حتى يفرغ، فأضاف إليه لأول وقوع الرقعة بين يديه:

راقت محاسنها ورقاً أديمها فتكادُ تبصرُ باطنا من ظاهيرِ

وتمايلت كالغصن بلكه الندى يختالُ في ورقِ الشباب الناصرِ

يندي بماء الورد مسبلٌ شعرها كالطلّ يسقطُ من جناح الطائرِ

تزهى برونقها وحسن جمالها زهو المؤيد بالثناء العاطرِ

ملك تضاءلت الملوك لقدره وعنا له صرفُ الزمان الجائرِ

وإذا لمحت جيئته ويميسه أبصرتُ بدرأ فوق بحرٍ زاخرِ

فلما قراها المعتمد استحضره وقال له: أو كنت معنا؟ فاجابه النحلي بكلام معناه:

يا قاتِلَ المَحَلِّ، أو ما تلوت «وأوحى ربك إلى النحل»^(١)»^(٢).

(١) سورة النحل: آية ٦٧.

(٢) الذخيرة: ق ٢٢، ص ٨١٠-٨١١. ولعله من المفيد الإشارة إلى أن هذه الحكاية تشبه ما

حدث في عهد الأمين العباسي حيث يروي أن الأمير محمد بن زبيدة رأى فتاة حسناء بقصره، عليها كساء نسجت أذياله من خز، فراودها عن نفسها فمأطلته وواعدته بأن تمكنه من نفسها في اليوم التالي، وعندما حضر في الموعد الذي ضربته له قالت: «كلام الليل يحجوه النهار» فاستنحت الشعراء في بلاطه بأن يقولوا شعراً تكون تلك الجملة آخر شطر فيه، فقال أبو نواس: الوافر

وليلةً أقبلتُ في القصر سكرى ولكن زين السكر الوقارُ

وهز الريح أردافاً ثقالاً وغصناً فيه رمان صغارُ

وقد سقط الردا عن منكبيها من التكريه وانحل الإزارُ

فقلت الوعد سيدتي فقالت: كلام الليل يحجوه النهارُ

فالنحلي يصورها بشيء من الاحتشام، حين استخدم كلمة «تكاد» ولم يقطع بطغيان ما بدا من جسمها على ملابسها، على الرغم من تلك الشفافية وذلك البلال، لكن أبا نواس صورها سافرة عارية تماماً، فقد ذكر إلتهاا وثدييها، وانكشاف صدرها وظهرها بسقوط رداثها، وعورتها وساقها بسقوط إزارها، وليس ذلك غريباً على أبي نواس، فكل إناء بالذي فيه ينضح. (انظر: البداية: ص ٢٥١-٢٥٢).

ومنها إجازة يتين بأكثر من بيت^(١)، ومن ذلك ما يروى عن ابن خفاجة من أنه
خرج هو وابن وهبون في نزهة، فبينما كانا يسيران في الطريق رأيا مشهدين متقابلين،
وعليهما رأسان منصوبان، فقال ابن خفاجة: الطويل

الآرب رأس لا تزاور بينه وبين أخيه والمزار قريب
أناف به صلد الصفا فهو مُدبرٌ وقام على أعلاه فهو خطيبٌ
ثم استجاز ابن وهبون فقال:

يقول حذار الا غتراب فطالما أناخ قتيلٌ بي وفرّ سليبٌ
وينشدنا أنا غريان ها هنا وكلُّ غريب للغريب نسيبٌ
فإن لم يزره صاحب أو خليله فقد زاره نسرٌ هناك وذيبٌ^(٢)

منها ما تكون الإجازة فيه لشعر قديم بأكثر من بيت^(٣)، ومن ذلك ما يرويه
ابن بسام من أنه غني يوماً بسين يدي العالسي الإدريسي بمالقة بيت لعبدالله
ابن المعتز: المديد

هل ترين البدر يختال إن غدت للسير أجمالُ
فأمر الفقيه أبا محمد غانم بن الوليد المالقي بإجازته، فقال بديهاً:

إنما العالسي إمام هدى جلبت في عصره الخالُ
ملك إقبال دولته لذوي الأفهام إقبال
قل لمن أكدت مطالبه راحته الجاه والمال^(٤)

(١) البداه: ص ١٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٤٧.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٥٢-١٥٣.

وهناك ضرب آخر من المطارحات الشعرية يسمى التمليط^(١)، وهو «أن يجتمع شاعران فصاعداً على تجريد أفكارهم، وتجريب خواطرهم في العمل في معنى واحد»^(٢).

وهو نوع من المساجلات، حيث يتساجل الشاعران، فيصنع هذا قسيماً لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه^(٣).

والفرق بين الإجازة وبين التمليط : أن التمليط يتفق فيه الشعراء قبل العمل على العمل ، أو يندبون لذلك ، وتتكرر منهم المنادمة ، وهذا ليس من شروط الإجازة^(٤) ومن ذلك ما يروى من أن المعتمد بن عباد ركب في يوم قاصداً الجامع، والوزير أبو بكر ابن عمار يسايره، فسمع أذان المؤذن، فقال المعتمد: الكامل هذا المؤذن قد بدا بأذانه

فقال ابن عمار: يرجو بذاك العفو من رحمانه

فقال المعتمد: طوبى له من شاهد بحقيقة

فقال ابن عمار: إن كان عقد ضميره كلسانه^(٥)

وفي هذه المطارحة الشعرية العابرة يظهر لنا جانب من الفرق بين مزاجي عقليتين مختلفتين : عقلية واثقة بالله مطمئنة، وعقلية متوجسة متشككة^(٦)، فشعر المعتمد عكس حسن نيته وصفاء سريرته، بينما شعر ابن عمار عكس ما انطوت عليه نفسيته من قلق وتوتر، وتوجس من المجهول.

(١) يقال: مالط فلان فلاناً إذا قال هذا نصف بيت وأتمه الآخر بيتاً، يقال ملط له تمليطاً، وقد يكون اشتقاقه من الملاط، وهو الطين يدخل في البناء، يملط به الحاحط ملطاً، أي يدخل بين اللبن حتى يصير شيئاً واحداً، أما الملط، وهو الذي لا يبالي ما صنع، والأملط الذي لا شعر عليه في جسده، فليس لاشتقاقه منها وجه. (انظر: العمدة: ج ٢، ص ٧١٦، والبداهة: ص ١٦٧، واللسان: مادة: ملط).

(٢) البداهة: ص ١٦٧.

(٣) انظر: العمدة: ج ٢، ص ٧١٦.

(٤) البداهة: ص ١٦٨.

(٥) الديوان: ص ٧٥-٧٦.

(٦) انظر: المعتمد بن عباد، على أدهم، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، ص ٩٩.

ومن ذلك -أيضاً- هذه المطارحة التي جرت بين المعتمد وابن حمديس، حيث يروى أن المعتمد بعث إلى ابن حمديس، ولما وافاه، قال له افتح الطاق الذي يليك، ففتحه فإذا بكور زجاج على بعد، والنار تلوح من بابه، وواقد يفتخهما نارة، ويسدهما أخرى، ثم أدام سد أحدهما وفتح الآخر، يقول ابن حمديس فحين تأملتُهما قال لي: ملط: المنسرح

انظرهما في الظلام قد نجما

فقلت: كما رنا في الدجنة الأسد

فقال: يفتح عينيه ثم يطبقهما

فقلت: فعل امرئ في جفونه رمد

فقال: فابتره الدهر نور واحدة

فقلت: وهل نجا من صروفه أحد^(١)

وقد يكون التمليط بين عدد من الشعراء^(٢)، ومن ذلك ما يروى عن ابن زيدون وابن خلدون وابن عمار، أنهم أرسلوا غلاماً يأتيهم بشراب، فلما استيأسوا من رجوعه ذهبوا يفتفون أثره، فوجدوه مرمياً على الأرض، وإلى جانبه قدح الشراب مكسور، فقال ابن زيدون: الوافر

أنلهو والحتوف بنا مطيفةً ونأمن والمنون لنا مخيفةً

وقال ابن خلدون:

وفي يوم وما أدراك يوم مضى قمعالنا ومضى خليفه^(٣)

وقال ابن عمار:

هما فخارتا راح وروح تكسرتا فشققفات وجيفة^(٤)

(١) الديوان المعتمد: ص ٧٥.

(٢) البداهة: ص ٢١٢.

(٣) القمعال: القبح: انظر: لسان العرب، مادة: قمعل، وخليفة: اسم الغلام.

(٤) ديوان ابن زيدون: ص ٢١١.

صلى النقد الأدبي في المجالس الشعرية:

لقد كان للنقد الأدبي في المجالس الشعرية دور كبير في تجويد الشعراء لأعمالهم الأدبية وإنتاجهم الشعري، فقد كانت تلك المجالس بمثابة «لجان حكم واختبار، وأعضاء النادي هم الفاحصون والنقده الذين يتصيدون الأخطاء لكل وافد جديد، بل لكل واحد منهم، ومن ينجح في هذا الاختبار يطير صيته، وينظم إلى قائمة أعضاء النادي»^(١).

وقد كانت هذه المجالس تمثل مجمعا علميا فيها يلتقي العلماء والشعراء والأدباء، فتدور بينهم مناقشات علمية وجدلية في الفقه وعلم الكلام والنحو والآدب، وكثيرا ما يتخلل تلك المجالس الشعر شاهد أو تمثيلا أو استفسارا عن سؤال أو غير ذلك مما يعزب لروادها^(٢).

وقد ساعد على ذلك الأمراء أنفسهم الذين كانوا يتمتعون بثقافة علمية وأدبية، تركت آثارا ملموسة على النتاج الأدبي في تلك المجالس، وكان بعضهم له بصر نافذ في الشعر وفي تذوقه ونقده^(٣). فقد روي عن أبي العرب الصقلي أنه كان في مجلس المعتمد بن عباد قدفع إليه بورقة خط فيها قصيدة، فأخذ يطيل النظر والفكر فيها، يقول الصقلي: «وأنا مترقب لنقده لكونه في هذا الشأن من أئمة، وكثيرا ما كان الشعراء يتحامونه لذلك، إلا من عرف من نفسه التبريز ووثق بها»^(٤).

(١) الأدب العربي في جزر البليار: ص ٣٧.

(٢) انظر: النقد الأدبي في كتاب نفع الطيب: ص ١٧٧.

(٣) انظر: ابن بسام وكتابه الذخيرة: ص ١١٥.

(٤) النفع: ج ٢، ص ٣٨٧.

وها هوذا ابن زيدون بحثري الأندلس^(١)، كان قبل أن ينشد شعره بين يدي المعتمد

يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، خوفاً من نقده، وفي ذلك يقول: الكامل

قد كان هجري الشعر - قبل - صريمةً حذري لذاك النقد فيها عاذر^(٢)

وكان المظفر بن الأفيطس أكثر الأمراء تشبداً في الشعر الذي يرغب في سماعه من الشعراء، فقد كان «ينكر الشعر على قائله في زمانه ويفيل رأي من ارتسم في ديوانه، وكان يقول: من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعري فليست، لا يرضى بدون ذلك»^(٣).

وكان الشعراء يهابون أبا الجيش مجاهداً العامري، صاحب دانية، لأنه كان «أزهد الأمراء في الشعر، وأنكرهم على منشد»^(٤)، ليس لأنه لا يرغب في سماع الشعر، ولكنه كان يتعقب قصائد الذين يتملقون بالنقد الدقيق، «ويكشف في بهجة غامره عن كل لفظة غير مناسبة، وكل تشبيه خاطيء، وكل سرقة أو إحالة»^(٥). وإذا لم يكن للأمير باع في ميدان النقد وبصيرة نافذة إلى محاسن وعيوبه، استعان بجلسائه وخواصه من الشعراء، فقد روي أن المعتصم كان يلجأ إليهم بعد أن ينصرف الشاعر من مجلسه يسألهم عن مستوى شعره^(٦).

وكان الأمير - غالباً - ما يحكم بين الشعراء، ويفاضل بينهم، ويقدم أحدهم على الآخر^(٧)، من ذلك ما يروي عن الشاعر ابن حصن من أنه التمس من المعتضد بن عباد

(١) انظر: الذخيرة: ق ١م ١، ص ٣٧٩.

(٢) الديوان: ص ٥٠٨.

(٣) الذخيرة: ق ٢م ٢، ص ٦٤١.

(٤) المصدر نفسه: ق ٣م ١، ص ٢٣.

(٥) المصدر نفسه: ق ٣م ١، ص ٢٣، ٣٤، وأعمال الأعلام: ص ٢١٩.

(٦) انظر: معجم الأدباء: ج ٤، ص ١٨٠٨.

(٧) انظر: المعجب: ص ٢٧٦، والبدائع: ص ٧١، والنفع: ج ٦، ص ٢٠-٢١.

أن يفصل في شعره وشعر ابن زيدون، ويحكم في أيهما أشعر من الآخر، حيث قال: الطويل

ودونك فاحكم بين نظمي ونظمه بذهن ذكي ثم قدّم وأخّر

وما أنت ممن يحمّد السيف عنده لجودة صقل وهو غير مذكر^(١)

أو يطلب من الأمير أن يعيد الحقوق الفكرية والأدبية إلى أصحابها، بعد أن يتفحص الدعوى ويتأكد من صحتها^(٢).

ولم يقتصر النشاط النقدي على مجالس الأمراء وحدها، بل كان يشغل الساحة الأدبية كلها في طول الأندلس وعرضها، فهذا ابن حزم يحدّثنا عن النقد الذي كان يتجاوز الأغراض الموضوعية، إلى أغراض أخرى ترمي إلى ترصد عيوب الآخرين والتقليل من شأنهم وإغماط حقوقهم، وفي ذلك إشارة إلى تفشي ظاهرة تتبع الآخرين ونقدهم في أوساط المجتمع الأندلسي، يقول ابن حزم، في مرارة وامتناع،: «ولا سيما أندلسنا فإنها خُصّت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناته، وتبعهم سقطاته وعثراته... إن أجاد قالوا: سارق مغير، ومتحل مدع، وإن توسط قالوا: غث بارد، وضعيف ساقط... وهكذا -عندنا- نصيب من ابتدا يحوك شعراً، أو يعمل رسالة، فإنه لا يفلت من هذه البحائل»^(٣).

فإذا نحن عرفنا ذلك فلننظر عملياً في القضايا النقدية التي كانت تثار في المجالس الشعرية، وسنبداً بالنقد الانطباعي القائم على التذوق الذاتي، والابتعاد عن التحليل والتعليل، ثم سنتناول النقد الموضوعي القائم على أصول مقررة، تعتمد التحليل والتعليل، وفي مقدمة ذلك: اللفظ والمعنى، ثم سنتناول قضيتي السرقات والمعارضات الشعرية، ثم البديهة والارتجال باعتبارها معياراً نقدياً.

(١) الذخير: ق ٢ م ١، ص ١٧٣.

(٢) انظر: المطمح: ص ٣٣٧، وتاريخ الفكر الأندلسي: ص ١١١.

(٣) النفع: ج ٣، ص ١٦٦-١٦٧.

الملحوظات النقدية الانطباعية:

النقد في العصر الطائفي - بشكل عام - لم يكن - في معظمه - قائماً على أسس وأصول مقررّة، تعتمد التحليل والتعليل في نقد الشعر، وتبين مواطن الجودة والحسن، ومواقع الضعف والقبح، وفق آليات وأدوات متبعة في تحليل الشعر ونقده؛ لذلك رأينا كثيراً من الملحوظات والآراء النقدية المبثوثة في مصادر الأدب الأندلسي قائمة على التذوق الذاتي والتأثر الوقتي والانفعال السريع، وهي بذلك تذكرنا بالنقد الأدبي في المشرق في بداياته الأولى، حيث كان يقوم على الإحساس بأثر الشعر ووقعه في النفس، وبقدر ذلك التأثير يكون الحكم على ذلك العمل بالقوة أو الضعف، وبالحسن أو الرداءة^(١).

وتلك الطريقة في التعامل مع الشعر رأيناها كثيراً في مجالس ملوك الطوائف وفي مجالس الشعراء أنفسهم، وكانت أشبه بتلك المجالس التي كانت تنعقد في المشرق العربي في سوق عكاظ، وكانت الأحكام التي تصدر فيها على الأعمال الشعرية أحكاماً تدور في إطار النقد الذوقي التأثري^(٢).

وبالطبع لم تكن الملحوظات التي كان الناقد يديها داخل المجلس تخلو من العمق والبعد الفني أثناء استحسانه أو استهجانه إذا ما رحنا تأملها، ومن الأمثلة على ذلك ما يروى من أن السمسر أنشد بين يدي المعتصم بن صمادح بيتين عبر فيهما عن رغبته في خيارين طلب منه المعتصم اختيار أحدهما، فقال: مجزوء السريع

(١) انظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص ٢٣.

(٢) انظر: الشعر والشعراء: ج١، ص ٣٤٤، والأغاني / الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ)، الدار التونسية، تونس، طبعة ١٩٨٣م، ج١، ص ٤-٦، وذيل الأمالي / القالي: راجعته لجنة إحياء التراث العربي، في دار الآفاق، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ص ٢٣، ٧٤-٧٥، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب: ص ٢٣.

خَيْرَنِي الْمُعْتَصِمُ وَهُوَ بِقَصْدِي أَعْلَمُ

وَهُوَ إِذَا يَجْمَعُ لِي مَنًّا وَأَمْنًا أَكْرَمُ^(١)

فاندهش المعتصم من سرعة بديهته، وحسن تلفظه في طلبه، فقال: «خاطرك
خاطر شيطان، ولك الأمن والأمان»^(٢).

فنحن أمام ملاحظة نقدية أفصح عنها المعتصم بعد تأثره بما سمع، حيث أطلق
ذلك الحكم النقدي مستمداً له من رواسب نقدية أسطورية قديمة، وقد كان المعتصم يعي
ما يقول وما يرمي إليه، فقد لاحظ على الشاعر قوة ذكاء وسرعة خاطر وحضور بديهة،
فأوعز ذلك كله إلى ما كان يعتقد الشعراء والمتلقون القدماء من أن لكل شاعر شيطانا
يوحي إليه بما يقول، وبمعنى آخر كانوا يرجعون الإبداع الشعري إلى قوى غيبية وخوارق
أسطورية^(٣).

فقد كان أبو النجم العجلي يقول: الرجز

إني وكل واحد من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر^(٤)

وأورد الجاحظ نبأاً للحكم بن عمرو البهراني^(٥) يقول فيه:

بنت عمرو وخالها مسحل الخيـر وخالي هُميمٌ صاحبُ عمرو

ويفسره بقوله: «إنهم يزعمون أن مع كل فحل من الشعراء شيطانا يقول ذلك
الفحل على لسانه الشعر، فزعم البهراني أن هذه الجنية بنت عمرو صاحب المخبل، وأن

(١) النفع: ج ٤، ص ٣٧٠.

(٢) المصدر نفسه والمكان ذاته.

(٣) انظر: دراسات في الشعر الجاهلي، أنور أبو سويلم، دار عمار، عمان، ط ١، ١٩٨٧م، ص ٧٨.

(٤) الحيوان/ الجاحظ: أبو عمر عثمان بن بحر (ت ٢٥٥هـ) تحقيق عبدالسلام هارون، مطبعة
مصطفى الباوي الحلبي، مصر، ط ٢، ١٩٦٧، ج ٦، ص ٢٢٩.

(٥) البهراني: نسبة إلى بهراء، وهم بنو عمرو بن الحارث بن قضاة، ونسبهم في اليمن.
انظر الحيوان: ج ٦، ص ٨٠.

خالها مسحل شيطان الأعشى، وذكر أن خاله هميم، وهو همام، وهمام هو الفرزدق، وكان غالب بن صعصعة إذا دعا الفرزدق قال: يا هميم^(١).

وكان الدافع لهم إلى هذا الاعتقاد هو إيمانهم بأن ما يقوله الشعراء شيء لا يقدر عليه أي أحد من الناس، لما يمتاز به ذلك القول من نظام معين وتركيب خاص^(٢)، وقد كان هناك فريق من القدماء لا يؤيد هذا الاعتقاد وفي مقدمتهم أرسطو فقد كان يرى أن انبثاق الشعر في الإنسان يرجع إلى غريزتين متأصلتين في طبيعته: إحداهما غريزة التقليد أو المحاكاة^(٣)، والثانية غريزة اللحن والنغم^(٤).

وقد حاولت الدراسات النفسية الحديثة في أبحاثها الإجابة عن سر ظاهرة الإبداع، وأرجعتها إلى عوامل فطرية وأخرى مكتسبة^(٥).

ويلقانا موقف نقدي آخر، ربما لا يختلف عن الموقف السابق، فعندما أنشد مختار بنى النجار بين يدي المعتمد هذين البيتين البسيط

ذلت لغزتك الملوك الصيد يا من إذا نقص الزمان يزيد

وفتحت باب الغرب يا ابن محمد وبلغت أقصاء فأين تريد

لمح المعتمد في الشطر الأخير خبثاً من الشاعر وتشيطناً وإثارة لغوره، فعبر عن ذلك، في زهو وانتشاء، بقوله: «يا ابن الفاعلة إلى بغداد»^(٦).

(١) المصدر السابق: ج ٦، ص ٢٢٥-٢٢٦، ٨٠.

(٢) انظر: دراسات في الشعر الجاهلي: ص ٧٨، وموسيقى الشعر: إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٩٦٥م، ص ٨-١١.

(٣) انظر: في النقد الأدبي: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٦٢م، ص ١٨-١٩.

(٤) انظر: فن الشعر: أرسطو، ترجمة عبدالرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ص ٢٠٦-٢٠٧، ومن الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، مجيد خلف الله أحمد، معهد البحوث والدراسات الأدبية، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٠م، ص ٤٧.

(٥) انظر: الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مصطفى سوري، دار المعارف، مصر، ط ١، ١٩٦٩م، ص ١١٨-١٢٠، ١٨٨-١٨٦.

(٦) الذخيرة: ق ٢٣، ص ٨١٤-٨١٥.

وقد كان الأمراء حين يبدون رضاهم واستحسانهم لما يسمعون ينظرون على إعجاب وتقدير لذلك الشعر المنشد، دون أن يذكروا أسباباً لذلك الإعجاب، سوى إطلاق أحكام عامة مجملة، وإظهار ردود أفعال سلوكية معينة إزاء هذا العمل أو ذاك، فعندما استمع المعتدل لبيت المتنبي في مجلسه: الطويل

إذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها معيي المطي ورازمه^(١)

استبدعه واستحسنه، وجعله أبداعاً ما للعتبي وأحسنه^(٢)، واستفز بذلك جلساءه.

وكذلك عندما أطلق المظفر بن الأفطس قوله: «من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعري فليسكت، لا يرضى بدون ذلك»^(٣).

لم يحدثنا أحدهما أو كلاهما عن تعليل معين أو نقد مفسر ولكن ما قصده الأميران من هذه الأحكام النقدية لا يخفى، فالشعر الجزل الرصين البناء، المحكم التركيب والتأليف، القوي الأسلوب، المتين العبارة، الغني بالخيال وكثافة الصور ونحو ذلك، هو ذاك ما أراداه دون أن يفصحا عنه.

وربما عبروا عن نقدهم الانطباعي بإجراء عملي وانفعالي سلوكي، يظهر من خلالهما الارتياح مما يسمعون أو التمليل والتذمر من ذلك، فعندما قدم ابن جاح على المعتضد وأنشد بين يديه قصيدته التي مطلعها: الكامل

قطعت يا يوم النوى أكبادي وحرمت عن عيني لذيق رقادي

قال له المعتضد: أنت ابن جاح؟ فقال: نعم، فقال: اجلس فقد وليتك رئاسة الشعراء، وأحسن إليه، ولم يأذن في الكلام في ذلك اليوم لأحد بعده^(٤)، وكذلك فعل

(١) ديوان المتنبي: ج ٣، ص ٣٣١.

(٢) البداهة: ص ٣٦٨.

(٣) الذخيرة: ق ٢٢، ص ٦٤١.

(٤) النفع: ج ٦، ص ٢٠-٢١.

مع ابن عمار^(١).

وعندما أنشد الشعراء المأمون بن ذي النون قصائدهم التي هتثوه بها بمناسبة إعدار حفيده، أدركت المأمون سأمه وملل من الشعر الذي سمعه^(٢)، وإلحساس بالملل والشعور بالسأم من قبل المتلقي هو في حقيقته نقد مبطن غير مصرح به.

فقد استمع المأمون إلى شعر لا يحرك نفساً ولا يهز مستمعا^(٣)، الأمر الذي حدا به إلى استبراد ذلك الشعر والتضجر منه، وأمر حاجبه بأن يعطي أصحابه شيئاً يتبلغون به ويصرفهم عن مجلسه^(٤).

ومن ذلك الشعر الذي قيل بين يدي المأمون يومئذ قول عبدالعزيز السوسي: الكامل

إعذار يحيى أبهج الدنيا ويبـ ين عذرنا في نخوة المختال

حشد السرور لنا طهور مطهر من عائر الجبناء والبخال

عرض من الآلام يجلب صحة وتطيف نقص فيه كل كمال^(٥).

وقد كان المأمون معذوراً حين سئم مما سمع، فقد كان شعراً عارياً من أي لباس جمالي وتأثير نفسي، ممتلئاً بالزيف والمجاملة والضعف والركاكة، خالياً من الماء والرواء ومن الموضوعية أيضاً، إذ هل من الممكن أن يمدح طفل بهذه الأوصاف وهو لا يزال في مهده لم يتضح بعد خيره من شره؟ والمأمون بذلك الموقف النقدي الأنطباعي عبر بطريق غير مباشر عن موقف نقدي ألح عليه النقد، وهو تأثير الشعر في النفوس وتحريكها، وقد اتخذ حازم القرطاجني مقياساً للجودة والرداءة، إذ المعول عليه من الشعر هو ما تتأثر به النفوس^(٦).

(١) انظر: المعجب: ص ١٧٦.

(٢) انظر: الذخيرة: ق ١٤٠، ص ١٣٨-١٤٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٣٨.

(٤) المصدر نفسه: والمكان ذاته.

(٥) المصدر نفسه: ص ١٢٧.

(٦) انظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء/ حازم القرطاجني: أبو الحسن (ت ٦٨٤هـ)، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨١م، ص ٣٦٥.

ومن الواضح أن الملاحظات النقدية في هذا الجانب من النقد الانطباعي يقوم على أساس عفوي وسطحي، حيث يُنظر إلى العمل الأدبي نظرة عامة لا تتجاوز درجة الشعور والإحساس به، والتعبير عن ذلك بالاستحسان أو الاستهجان، ولننظر إلى موقف آخر من هذا القبيل في مجلس المعتصم بن صمادح، «فعندما أنشده عمر بن الشهيد قصيدته التي يقول فيها: الكامل

سبط البنان كان كل غمامة قد ركب في راحته أناملأ

لا عيش إلا حيث كنت وإنما تمضي ليالي العمر يعذك باطلا.

التفت إلى من حضر من الشعراء، وقال: هل فيكم من يحسن أن يجلب القلوب بمثل هذا؟ فقال أبو جعفر بن الجزار البطرني^(١): نعم، ولكن للسعادة هبات، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتاً أقول فيها: الطويل

وما زلت أجنبي منك والدمع محجل ولا ثمرة يجنى ولا الزرع حصيد

ثمارة أباد دائيات قطوفها لأغصانها ظل علي ممدد

يرى جارياً ماء المكارم تحستها وأطيأ شكري فوقهن تغرد

فارتاح المعتصم، وقال: أنت أنشدتني هذا؟ قال: نعم: قال: والله كأنها ما مرت بسمعي إلى الآن، صدقت للسعادة هبات، ونحن نجيزك عليها بجائزتين، الأولى لها، والثانية لمطل راجيها، وغمط إحسانها^(٢).

قد يقول قائل: إن ذلك الاستحسان الصادر من المعتصم ليس بالضرورة أن يكون صادراً منه بناء على تذوق للشعر ومعرفة بمواطن الحسن والقبح فيه، فقد يكون ذلك الإعجاب بدافع كون الشعر مدحاً فيه وثناءً عليه، ولكي نجيب على هذا التشكك علينا أن نستمع إلى الحكاية التالية:

(١) هو أبو جعفر بن الجزار البطرني، نسبة إلى بطرنة من قرى بلنسية. (انظر ترجمته في: المغرب: ج ٢، ص ٣٥٥).

(٢) النفع: ج ٤، ص ٣٧٠.

أتشد ابن شرف القيرواني المعتصم قصيدة، وكان منها قوله: البسيط

لم يبق للجور في أيامهم أثر إلا الذي في عيون الغيد من حور

فلما سمعه المعتصم استحسنته وأعطى الشاعر مكافأة كبيرة^(١). فقد يكون هذا الاستحسان غير نابع عن تذوق نقدي وتأثر نفسي بما اشتمل عليه ذلك البيت من جمال وطرافة، لكننا نستطيع أن نؤكد أن المعتصم كان ذواقه للشعر عالماً بمواطن حسنه حين نرى رأي ناقد آخر هو الحجاري في هذا البيت، فقد أبدى إعجابه به، وأطنب في الشاء على قائله، وعظمه في الشعر^(٢).

ولا شك أن إعجاب الحجاري كان مبنياً على أساس من ظرف في تركيب الصورة، وتقنن في براعة التخيل، وفي البيت أسلوب يسمى لدى البلاغيين «تأكيد المدح بما يشبه الذم»، وهو: «أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها في صفة الذم»^(٣).

وفي مجالس الشعراء أنفسهم كنا نرى ملحوظات تجري مجرى النقد الانطباعي، حيث يتم التنويه فيها من قبل أحد الشعراء بشعر يسمعه من غيره، دون أن يبدي تفصيلاً يفسر به ذلك الاستحسان أو الاستهجان، ومن ذلك هذا اللقاء الشعري العفوي الذي جرى - كما يبدو - على قارعة الطريق، بين أبي حاتم الحجاري، وأبي تمام غالب بن رياح الحجاج، فقد لقي الأول الثاني على فرس في غاية الضعف والهزال «قد أهلكها الوجى، وكانا في جماعتين، فقال له: يا أبا تمام أنشدني قولك»^(٤)، فأنشده شعراً يصف

(١) المصدر السابق: ج ٣، ص ٣٩٦.

(٢) انظر: المغرب: ج ٢، ٢٣٢، والحجاري: هو عبدالله بن إبراهيم الحجاري نسبة إلى وادي الحجارة، صاحب «السهب»، (انظر ترجمته في: المغرب، ج ٢، ص ٤، ص ٦٣).

(٣) علم البديع: عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥م، ص ١٦٤-١٦٥.

(٤) النفع: ج ٤، ص ٣٧٤، والآيات هي: الطويل

وتحتي ربح تسبق الريح إن جرت وما خلّت أن الريح ذات قوائم
لها في المدى سبق إلى كل غاية كأن لها سبقاً يفوق عزائم
وهمة نفسي زهتها عن الوجى فيا عجبا حتى العلّا في البهائم

فيه فرسه التي كان يركبها، فاندesh أبو حاتم من ذلك الشعر، وأعجب به، وقال:
«ناشدتكم الله أيجوز على فرس مثل هذه الرمكة»^(١) الهزيلة العرجاء أن يقول مثل هذا؟
فضحك من حضر، وأقبل أبو تمام من غيظه بسبه»^(٢).

فأبو حاتم أشاد بشعر أبي تمام واندesh من ذلك الشعر الجميل الذي صدر عن
شخص في هيئة مزرية، بل استنكر عليه ذلك، وكان الشكل الخارجي أو الحسب
والنسب له علاقة بقضية الإبداع، وقد رأينا غير أبي حاتم^(٣) يربط بين المستوى
الاجتماعي والإبداع الشعري، ويقرر ذلك في قوله: الكامل

والشعر بهجته إذا نطقت به بين المجافل السن الأعيان

ما كان قول الشعر إلا خطئة كانت مراكبها على كيوان

حتى تدنس ثوبها بزعانف نشأت على الأوضار والأدران

من صنعة القراز والجزار أو من صنعة الحجام واللبان^(٤)

والأمر -في نظري- لا يعدو المزاح والمداعبة وإثارة الحاضرين بالضحك، والنقد
بهذا النحو وبهذه الصورة نقد لا يعدو درجة الشعور -كما أسلفنا من قبل-، أما النقد
بمعناه الدقيق «الذي يقوم ويُقدَّر ما للنص الأدبي من قيمة فنية، فيزري ويهجن أو يقبل
ويستحسن»^(٥)، فهو ما سنعرض لجانب منه لاحقاً.

(١) الرمكة: الفرس التي تتخذ للنسل. (انظر: لسان العرب مادة: رمك).

(٢) ألفح: ج ٤، ض ٣٧٤.

(٣) هو يوسف بن عبد الصمد، مضت ترجمته ص ١٩.

(٤) الذخيرة: ق ٢٣، ص ٨١٤.

(٥) في النقد الأدبي: ص ٩.

الملاحظات النقدية المنهجية(*) :

تعد قضية اللفظ والمعنى من القضايا النقدية الجدلية، التي شغلت النقاد القدماء^(١)، وقبل أن نخوض في الملاحظات المتعلقة باللفظ والمعنى في المجالس الشعرية نود أن نوطيء للحديث عن ذلك بلمحة تاريخية في التراث النقدي والبلاغي لمعرفة موقف النقاد القدماء من ذلك، ولنتظر إلى أي مدى سائر النقد في المجالس الشعرية النقد القديم وسار في ركابه.

يعد الجاحظ أول من أطلق رأياً نقدياً في هذه القضية، وتابعه كثير ممن جاء بعده، حيث قال «... والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك، وإنما الشعر صنيعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير»^(٢).

ويظهر من كلام الجاحظ أنه من أنصار اللفظ، ولا يعول على المعنى، ومرتبة المعنى عنده تالية للفظ، والمزية للفظ دون المعنى، لكنه في موضع آخر يستدرك أو بالأحرى يوضح رأيه بجلاء، ويبين أن المعاني التي قصدها هي « المعاني القائمة في صدور الناس، المقصورة في أذهانهم، المتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وموجودة في معنى معدومة... وإنما يحيى تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو

(*) النقد المنهجي: هو ذلك النقد الذي يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية وتطبيقية. (انظر: النقد المنهجي عن العرب، محمد مندور، دار نهضة مصر، ص ٥).

(١) انظر: العملة: ج ١، ص ٢٥٢، وأسس النقد الأدبي عند العرب: ص ٣٥٧، والنقد الأدبي في المغرب العربي: ص ٩١، وابن شرف القيرواني: حياته وأدبه، ص ٢٢٧.

(٢) الخيران: ج ٣، ص ١٣١.

فالمعاني، إذن، هي المادة المتاحة لجميع الناس، وهي موجودة: منها ما يرى ومنها ما لا يرى، وهنا تأتي أهمية الألفاظ التي يتم التعبير بها عن تلك المعاني (المادة)، فهي بمثابة الأصابع والألوان التي يشكل بها الأديب اللوحة التي يريدها، والأدباء متفاوتون في اختيار الألفاظ المناسبة للمعاني المقصودة، وكل ينظر للمعنى من زاويته ونظرة الخاصة به، ويختلفون في القدرة على تأليف الصور وتركيبها والمزاوجة بينها، وكلما كان الحس مرهفاً والنظر عميقاً والخيال خصباً والاختيار للألفاظ موفقاً كان ذلك العمل الفني أعظم تأثيراً وأكثر نضجاً.

وقد ظلت هذه النظرة الثنائية للفظ والمعنى تشغل حيزاً كبيراً من اهتمامات النقاد الذين جاءوا من بعد الجاحظ، فابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) أخذ بهذه الثنائية عن الجاحظ وقال برأيه، دون أن يزيد عليه شيئاً آخر سوى أنه قسم اللفظ إلى حسن وقبيح، وكذلك قسم المعنى (٢).

وسار في الطريق نفسه ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ)، إلا أنه يجعل المعنى ملازماً للفظ لزوم اللحم بالسدى، فاللفظ هو الجسد والمعنى هو الروح، ويضرب لذلك الأمثلة ويعلق عليها، وهو بذلك يتابع من سبقه في أن المعنى موجود، والعبرة بتخير اللفظ وحسن معرضه (٣).

وحاول ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ)، من نقاد المغاربة، أن يفصل في هذه القضية ويبسط الرأي فيها بشيء من التوضيح، لكنه لم يخرج عن هذه الدائرة ولم يتجاوز ما قرره

(١) البيان والبيان: ج ١، ص ٧٥.

(٢) انظر: الشعر والشعراء/ ابن قتيبة: عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨م، ج ١، ص ٦٤-٦٩.

(٣) انظر: عيار الشعر: ص ١٦-١٧.

غيره، سوى أنه يرى قوة المعنى من قوة اللفظ، وعلة المعنى من علة اللفظ، فالمعنى يقوى ويضعف بشكل طردي مع اللفظ، والعكس صحيح^(١).

ويتنصر ابن خلدون (ت ٨٠٨)، من نقاد المغاربة، للفظ انتصاراً شديداً، حيث يذهب في الفصل السابع والخمسين من فصوله في مقدمته إلى أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، ويشبه المعنى بالماء واللفظ بالإناء، وإذا كان الماء واحداً فإن الإناء مختلف، منه الذهب والصدف والزجاج والخزف^(٢).

ومن بين النقاد القدماء عموماً يعد عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ) أول ناقد وقف من هذه القضية موقفاً مختلفاً، حيث لم يعول فيه على اللفظ ولا على المعنى، وقد كان النبع منه على ضربة معول فلم يضربها، كما يقول سيد قطب^(٣).

والحقيقة أن خلاصة جهود النقاد القدماء في هذه القضية قد تبلورت ونضجت على يد عبدالقاهر وكادت أن تستوي على سوقها، فقد اختط منهجاً جديداً في الدرس البلاغي والنقدي باختراعه فكرة « نظرية النظم »، التي لا تجعل للمعنى مزية في حد ذاته ولا للفظ مزية في حد ذاته، وإنما مدار الجمال والحسن والجودة يكمن في حسن التأليف والتركيب للكلام وفقاً لتوخي معاني النحو، وما يفيد من شمول وعموم، أو قصر وخصوص، أو وصل وفصل، أو حذف وذكر، أو تقديم وتأخير^(٤).

(١) انظر: العمدة: ج ١، ص ٢٥٢ وما بعدها.

(٢) انظر: المقدمة: ج ٣، ص ١٣١٢.

(٣) انظر: التصوير الفني في القرآن: ص ٣٢.

(٤) انظر: دلائل الإعجاز: الصفحات: ٤٦، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٨٧، ١٤٦، ٢٢٢، ٢٥٤، ٢٥٥،

٣٢٨، ٣٦٢، وأسرار البلاغة في علم البيان، عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، تحقيق السيد

محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية، ط ٢، ص ١٦، ١٧، ٢٩٨، ٢٩٩.

اللفظ :

أسهمت المجالس الشعرية بنصيب غير قليل في النشاط النقدي، وأكسبته إثراء وحيوية، ذلك لما كان يدور فيها من ملحوظات ومناقشات، وقد مر معنا جانب من ذلك النقد الذي أطلقنا عليه بـ «النقد الانطباعي»، ونود الآن الوقوف على جانب آخر أكثر عمقاً وأبعد أثراً في النقد، وهو النقد القائم على التحليل والتعليل والتفسير للفظ والمعنى وغيرهما، لننظر إلى أي مدى كان لهذه القضية من العناية والاهتمام لدى الأندلسيين في مجالسهم الشعرية في عهد الطوائف.

أولى النقد في تلك المجالس الناحية الشكلية اهتماماً خاصاً، وكانت أحد المنافذ التي كان النقد في المجلس الشعري ينفذون من خلالها إلى الشاعر ويقفون له على ناصيتها. فقد أنشد ابن الحداد قصيدته الهمزية بين يدي المعتصم، فاتهمه الحاضرون بأنه همز فيها مالا يهمز^(١)، وذلك في قوله: الطويل

وآل الهوى جرحى، ولكن دماؤهم دموع هوام والجروح مآقى^(٢)

فالتهمة - كما نلاحظ - تدور حول عيب لغوي وقع فيه الشاعر، ولكن هل كان الشاعر يجهل ذلك العيب، وأنه ما كان ينبغي له أن يقع فيه؟ أم أنه عيب سطحي، كان ينبغي على من أخذه عليه ألا يجشم نفسه عناء ذلك؟

لقد رد الشاعر على من انتقده وانتقصهم ونسب تقدمهم إلى الجهل، حيث يقول: الطويل

عجبت لغمازين علمي بجهلهم وإن قناتي لا تلين على الغمز

تجلت لهم آيات فهمي ومنطقي مينة الإعجاز ملزمة العجز

(١) الذخيرة: ق ٢١، ص ٧١١.

(٢) الديوان: ص ١٤٠.

ولاحث لهم همزية أو حندية وويل بها وويل لذي الهمز واللمز

رموها بنقص ينت فيه نقصهم ومن لمس الأفعى شكى ألم النكر

وإن أنكرت أفهامهم بعض همزها فقد عرفت أكبادهم صحة الهمز^(١)

ومن خلال هذا الرد يتضح أن الشاعر كان يغي ما يقول، ويعلم جواز ذلك، فقد ذهب في ذلك مذهب من يجيز إبدال الياء في الاسم المنقوص همزة، يقول ابن رشيق: «ومنهم من يبدل الياء همزة، وهو القليل، فيقول القاضي والغزالي^(٢)»، ويقول السيرافي: «اعلم أنهم يبدلون الحرف من الحرف في الشعر في الموضوع الذي لا يبدل مثله في الكلام لمعنى يحاولونه، فمثال ذلك: البسيط

قد كان يذهب بالدنيا ولذتها موالئ لكباش العرس سحاح

فهمز الياء من «موالئ» لاستقامة البيت^(٣).

فهذا الموقف النقدي والنقاش الجدلي الذي أثير في مجلس المعتصم بين ابن الحداد وخصومه يعطينا دلالة واضحة على أهمية الشكل لدى الأندلسيين، كما يعطينا دلالة على ملاحظة النقاد للشعراء وعدم تفويت أي شيء يقعون فيه، مهما دق ذلك الشيء وصغر، ولم يكن الشاعر الأندلسي من الشجاعة بحيث يستطيع الخروج على القواعد المقررة، ويقول مثل ما قال الفرزدق: «علي أن أقول وعليكم أن تحتجوا»^(٤)، في وجه خصومه، حين خرج على القواعد والأصول المتبعة.

وللعروضيين قوانين صارمة التزمها الشعراء، ويعد الخروج عنها عيباً لا يمكن

(١) الديوان: ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٢) العملة: ج ٢، ص ١٠٢٩.

(٣) ما يحتمل الشعر من الضرورة: السيرافي/ أبو سعيد (ت ٣٦٨هـ) تحقيق عوض القوزي، جامعة الملك سعود، الرياض، ط ٢، ١٩٩١م، ص ١٥٥.

(٤) الشعر والشعراء: ج ١، ص ٨٩.

التسامح فيه، فقد عابوا على النابغة الذبياني، أحد الشعراء الفحول، تغيير حركة الروي في القصيدة، وسموا ذلك «إقواء»^(١)، وقد فقه الأندلسيون ذلك جيداً، وكانت الأخطاء العروضية في الشعر من ضمن ما لاحظوه على شعرائهم، داخل المجالس، فقد لاحظ المعتمد بن عباد خطأ عروضياً وقع فيه عبد الجليل بن وهب، ونوه إليه بطريقة ظريفة، حيث يروي «أن عبد الجليل بن وهب مدحه بقصيدة فيها تسعون بيتاً، فأجازه بتسعين ديناراً فيها دينار مقروض، فلم يعرف العلة في ذلك، إلى أن تأملها، وإذا هو قد خرج من العروض الطويل في بيت إلى العروض الكامل، فعرف حينئذ السبب»^(٢).

وفي الحكاية ما يدل على المكانة الأدبية والثقافة الواسعة التي كان يتمتع بها المعتمد، حيث استطاع بحسه الأدبي وبذوقه النقدي أن ينفذ إلى مكنن هذا الخط الخفي، ولينبه عليه.

وفي الخبر الذي أورده ابن بسام عن ابن حيان ما يؤكد تلك الأهمية الشكلية عند الأندلسيين وشده عنايتهم بالأسلوب، حيث يتحدث ابن حيان عن شعر دار في مجلس ابن ذي النون مبدياً فيه بعض التعليقات النقدية، فوصف أصحاب ذلك الشعر بأنهم «يهميون بما لا ودق له من سمائهم، ويفرغون في قوالب تضيق عن إفراغهم، ويجهدون في حشو قوافيهم دون إرهاف للفظ، ولا استنباط لمعنى، فلا يسرون ناقداً، ولا يهزود متراً ولا ينشطون راوياً»^(٣).

ثم يواصل نقده لذلك الشعر بشيء من التعليل والإيضاح، مبيناً مكانن الضعف في ذلك الشعر، متناولاً بنقده شاعراً بعد شاعر، فيقول: «فتقدمهم ابن شرف فأشأ قصيدة أولها: الطويل

«يريني الهوى أن الهوى لين سهل»

(١) انظر: طبقات فحول الشعراء/الجمحي: محمد بن سلام (ت ٣٢١هـ)، تحقيق محمود محمدا شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م، ص ٦٧-٧١.

(٢) أخبار وتراجم أندلسية: ص ١٩.

(٣) الذخيرة: ق ١٤١، ص ١٣٨.

ما إن هي لاحقة بعيون شعره، أطال فيها التشبيب، فخلص إلى التهتهة وقد استفرغ القريحة، وطول فما أتى بطائل، ثم تقدم بعده البائس عبدالله بن خليفة الأندلسي المتمصر بزعمه، فيا بؤسى لسابق صلى بعده، فأنشد قصيدة ملفقة، ذات طنين وقعقة، كثر أبياتها وقلل أقواتها أولها : الطويل

«أرى أثلاث الجزع بالوصل تورق»

... وقام بعده محمد بن زكي الأشبوني فأنشده شعراً أوله : البسيط

«اليوم أبهج منبر وسرير»

ركب فيها سنن من قبله... وأما المتكلف المصري فُسْكُلُ الحلبة فكان أبطاهم جِراء وأنَاهم عن الغاية لما اجتهد في المتح، فجاء بقليل ماء، فوقَّ ظمأه بخمسين بيتاً سدى، لفقها قصيدة متخاذلة لم يفتق فيها معنى حسناً ولا قافية حرة^(١).

ففي الحكاية السابقة نقد للفظ وللمعنى بالإضافة إلى المفاضلة بين الشعراء، فابن حيان في نقده السابق لم يقف عند حدود الاستحسان والاستهجان، بل تجاوز ذلك إلى شيء من وضع اليد على مواطن الضعف، فيما ذكره من شعر، وإن كان قد أجمل في بعض من تلك الملحوظات، إلا أنه أعطى صورة عن شدة اعتناء الأندلسيين بجودة الألفاظ وحسن سبكها وتخيرها، وجلال الأفكار والمعاني وعمقها، فالشعر الذي سمعه يخلو من ذلك ولم يكن من « النمط الرفيع الذي يبهر الأنظار، ويستولي على الأمد »^(٢).

وكان لهم في مجالسهم ملحوظات تظهر مالهم من براعة في النقد، تصيب أحياناً وتخطيء أحياناً أخرى، والخطأ كما سنلاحظ نوعان : نوع غير مقصود، وهو لا يعد خطأ بالمعنى الحرفي، وإنما هو اجتهاد، ونوع مقصود والهدف منه مجاملة الأمير .

(١) المصدر السابق: ص ١٣٩-١٤٠.

(٢) ابن شرف القيرواني: ص ٧٨.

ومن الأول ما يروى من أن المعتمد تباحث مرة « مع الجلساء في بيت المتنبي الذي

زعم أنه أمير شعره: البسيط

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنتي وياض الصبح يُغري بي^(١)

فقال: ما قصر في مقابلة كل لفظة بضدها إلا أن فيه نقداً خفياً، ففكروا فيه، فلما فكروا، قالوا: ما وقفنا على شيء، فقال: الليل لا يطابق إلا النهار، ولا يطابق بالصبح، لأن الليل كلي والصبح جزئي، فتعجب الحاضرون، وأثنوا على تدقيق انتقاده.

قال الصفدي (ت ٧٦٤هـ) (والحديث للمقري): قلت: ليس هذا بنقد صحيح، والصواب مع أبي الطيب: لأنه قال: أزورهم وسواد الليل يشفع لي فهذا منحّب يزور أحبابهم في سواد الليل خوفاً من يشي به، فإذا لاح الصبح أغرى به الوشاة، ودل عليه أهل النميمه، والصبح أول ما يغري به قبل النهار، وعادة الزائر المريب أن يزور ليلاً، وينصرف عند انفجار الصبح خوفاً من الرقباء، ولم تجر العادة أن الخائف يتلبث إلى أن يتوضح النهار، ويمتليء الأفق نوراً، فذكر الصبح هنا أولى من ذكر النهار.

قلت: كان يختلج في صدري ضعف ما قال الصفدي، حتى وقفت على ما كتبه البدر البشتكي، ومن خطه نقلت ما صورته: هو ما انتقد عليه المعنى، إنما انتقد عليه مطابقة المليل بالصبح، فإن ذلك فاسد، فحمدت الله على الموافقة^(٢).

والحكاية السابقة، وإن كنا نشهد فيها للمعتمد بالبراعة وحسن التعليل، إلا أننا نلمس فيها تعصباً واضحاً من المقري منذ البداية، فقد قال: «تباحث المعتمد مرة مع الجلساء في بيت المتنبي الذي (زُعم) أنه أمير شعره»، وإمارة المتنبي للشعراء أمر لا يحتاج إلى بيان، والمقري - كما أظن - لا يجهل هذا، ولكن هل أخطأ المتنبي أم لا؟

أقول: إن المتنبي لم تكن مطابقته مطابقة فاسدة كما ذهب البشتكي، فقد كان

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي: ج ١، ص ١٦١.

(٢) النفح: ج ٦، ص ٣٨.

يقصد أبو الطيب ما ذهب إليه، ويرى أن لمطابقته هذه نظائر وأشباها ليس في كلام الناس فحسب، بل في كلام رب الناس، قال الله تعالى ﴿كَلَّا وَالْقَمَرُ، وَاللَّيْلُ إِذَا أَدْبَرُ، وَالصَّبْحُ إِذَا أَسْفَرُ﴾^(١)، فقابل الليل بالصبح؛ لأن السياق يقتضيه، كما اقتضاه بيت المتنبي. وقد أورد القرطاجني هذا البيت وعلق عليه بقوله: «ومن أبدع ما ضوعف فيه المطابقة وجاءت العبارة الدالة عليه في أحسن ترتيب وأبدع تركيب قول أبي الطيب: البسيط

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي»^(٢)

ولكي نفهم ما ذكره حازم في كلامه السابق علينا أن نقف على قوله الخاص بالطباق، فهو يقول: «فالمطابقة تنقسم إلى محضة وغير محضة، فالمحضة مفاجأة اللفظ بما يضاده من جهة المعنى، كقول جرير: البسيط

وباسطُ خيرٍ فيكمُ يمينه وقابضُ شرٍ عنكم بشماليا»^(٣)

فقوله: باسط وقابض وخير وشر من المطابقات المحضة.

وغير المحضة، تنقسم إلى مقابلة الشيء بما يتنزل منه منزلة الضد، وإلى مقابلة الشيء بما يخالفه، فأما ما تنزل منزلة الضد فمثل قول الشريف الرضي: الكامل

أبكي ويسم والدجى ما بيننا حتى أضاء بثغره ود موعى»^(٤)

فتنزل التسم منزلة الضحك في المطابقة، وأما المخالف فهو مقارنة الشيء بما يقرب من مضاده، كقول عمرو بن كلثوم: الوافر

(١) المدثر: الآيات: ٣٢، ٣٣، ٣٤.

(٢) منهاج البلاغة: ص ٤٨-٤٩.

(٣) الديوان: شرحه، تأليف محمد إسماعيل عبالله الصاوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ١٣٥٣هـ، ص ٦٠٥.

(٤) ديوان الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م، ج ١، ص ٦٥٢.

بأنا نورد الرايات أيضاً ونصدرهن حمراً قد رويناً^(١)

.... وقد اجتمع في هذا البيت (أي بيت المتنبي) صنفاً المطابقة المحضة وغير

المحضّة^(٢).

وذكر أبو بكر الرازي بيت المتنبي عند حديثه عن المطابقة التي يراعى فيها المشاكلة،
وجعل بيت المتنبي شاهداً على ذلك^(٣).

وعد النقاد القدماء هذا البيت من النوع الذي قوبل فيه خمسة معانٍ بخمسة معانٍ:
فقد قوبل بين «أزور، سواد، الليل، يشفع، لي، وبين: انثني، وياض، الصبح،
يغري، بي»^(٤).

وقد حذا حذو المتنبي في هذه المطابقة شعراء أندلسيون، منهم ابن زيدون، حيث
يقول: البسيط

سران في خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يفشي^(٥)

واهتمام الأندلسيين بهذا المنحى البديعي من طباق ونحوه في تقديمهم وشعرهم، يأتي
في إطار ولعهم بالبديع الذي تبناه المحدثون، وتلقفه الشعراء الأندلسيون^(٦)، لذلك
رأيناهم يكثر من أشعارهم، وفي المجلس الشعري التالي ما يؤكد ذلك الاعتناء،
فقد جرى بين ابن خفاجة وأحد ندمائه نقاش حول قول ابن رشيق: مجزوء الكامل

(١) شرح القصائد العشر/ التبريزي: أبو زكريا يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٥، ص ٢٦٢.

(٢) منهاج البلاغة: ص ٤٨-٥٠.

(٣) انظر: روضة الفصاحة: الرازي/ زين الدين محمد بن أبي بكر (ت ٦٦٦هـ)، تحقيق أحمد النادي شعله، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط ١، ١٩٨٢م، ص ٢٣٢-٢٣٦.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٥) الديوان: ص ١٤٦.

(٦) «النقد الأدبي في الأندلس»: مجلة الأبحاث: ص ٥١٠.

يا من يمر ولا تمر	رُبَّه القلوب من الفرق
بعمامة من خده	أو خده منه استرق
فكأنه وكأنها	قمر تعمم بالشفق
فإذا بدا وإذا اثني	وإذا شدا وإذا نطق
شغل الخواطر والجوا	نحَّ والمسامع والحدق ^(١)

فأعجب بها جليس ابن خفاجة، وأثنى عليها كثيراً، فقال ابن خفاجة : أحسن ما في القطعة سياقه الأعداد، وإلا فأنت تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذي قبله، فينزل بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها، وهل ينزل بإزاء قوله : «وإذا نطق» قوله : «شغل الحدق»، وكأنه نازعني القول في هذا غاية الجهد، فقلت بديها :

ومفهم طاري الحشا	خنث المعاطف والنظر
ملا العيون بصورة	تليت محاسنها سور
فإذا رنا وإذا مشى	وإذا شدا وإذا سفر
فضح الغزاة والغما	مده والحمامة والقمر ^(٢)

فالأبيات - كما نلاحظ - فيها حشد كبير من الصور والمحسنات البديعية كالتشبيه والاستعارة والجناس والمقابلة والتقسيم ونحو ذلك .

وكانوا يهشون للبديع حين يكثُر في أساليبهم؛ لذلك رأينا ابن بسام يستنكر على

أبي محمد بن الطلاء المهدوي قوله في المعتمد : الكامل

(١) ديوان ابن رشيق: جمعه ورتبه عبدالرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، ٨٩، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) ديوان ابن خفاجة: ص ٣٥٩، والنفع: ج ٤، ص ٢٨٦-٢٨٧.

فتحت سعودك كل باب مغلق فتسهن ذلك وابق يصلح ما بقي

يا أيها الملك السعادة أطبقت جفناً عليك فبت بجفن مطبق^(١)

ويصف ذلك الأسلوب بأنه « عاطل من حلى البديع، وأفسرط في باب الاستعارة »^(٢).

ومن الثاني تلك الآراء النقدية التي يتجامل بها الأمراء حين يخطئون من قبل الجلساء، ومن ذلك هذا المجلس الذي دار فيه نقاش لغوي في أبيات قالها العالي بالله إدريس بن حمود، وهي : مجزوء الوافر

إذا ضاقت بك الدنيا فعرج نحو إدريسا

إذا الاقيسته تلقى رئيساً غير مرؤوسا^(٣)

فقال العالي بالله لجلسائه : أيجوز من طريق النحو « رئيساً غير مرؤوسا »، فأجابه أبو محمد غانم بن الوليد بقوله : « للنحويين في هذا مذهبان، وهما في جوازه وامتناعه فرقتان : فأهل البصرة أنكروه، والأخفش والكوفيون أجازوه ، وعندما بدا للعالي بالله تلك التخريجات الواهية أمر أن يبدل مكان « غير » في البيت « ليس مرؤوسا » وقال : السلامة من الاختلاف أولى في طريق الإنصاف »^(٤).

فقد استند ابن الوليد في تصويب قول العالي بالله إلى بعض الآراء النحوية الضعيفة، ولتجلية هذه القضية نقول :

للنحويين فيها آراء مختلفة، يقول أبو سعيد السيرافي : « وقد أجاز الكوفيون والأخفش ترك صرف ما ينصرف، وأباه سيويه وأكثر البصريين، لأنه ليس لمنع صرف

(١) الذخيرة : ق ١٤م ، ص ٣٦١.

(٢) المصدر نفسه : ٣٦٠.

(٣) الذخيرة : ق ١٤م ، ص ٨٦٤.

(٤) المصدر نفسه والمكان ذاته.

ما ينصرف أصل يرد إليه الاسم»^(١).

وينفصل القزاز القيرواني (ت ٤١٢) القول في هذه القضية ويدعها بالشواهد، حيث يقول: «أجاز قوم أن يترك صرف ما ينصرف، ومن ذلك: المتقارب

وما كان حسن ولا حابس» يفوقان مرداس في مجمع

قالوا: فترك صرف «مرداس» ومثله ينصرف، ومن أنكر هذا رواه:

«يفوقان شيخني»، واحتج من أجاز هذا بقول الآخر: الهزج

ومن ولدوا عامر — ذو الطول وذو العرض

قالوا: فلم يصرف «عامراً» وحقه الصرف، ومن أبى هذا يقول: «عامر» يراد به القبيلة، فلذلك لم ينصرف، واحتج عليهم بقوله «ذو الطول وذو العرض»، وأنه لو أراد القبيلة لقال: «ذات الطول والعرض». وهذا الاحتجاج عندهم لا يلزم؛ لأنه لما اضطر ذكر، وأنشد آخر ترك صرف ما ينصرف: الكامل

وإلى ابن أم أناس أرحل ناقتي عمرو فتدرك حاجتي أو تسعفا

فلم يصرف «أناساً»....

ومن أجاز صرف ما لا ينصرف، زعم أن أصل الأسماء كلها أن يترك صرفها، ولكن خففت منها أسماء صرفت، فإذا ترك صرفها ردت إلى أصلها، والوجه غير هذا، لأن أصل الأسماء التمكن من التسمية والإعراب، وترك صرف ما لا ينصرف منها؛ لعلل...»^(٢).

(١) ما يتحمل الشعر من الضرورة: ص ٤٦-٤٧.

(٢) ما يجوز للشاعر في الضرورة/ القزاز القيرواني: أبو عبيد الله محمد بن جعفر القزاز التميمي (ت ٥١٢هـ)، تحقيق رمضان عبد التواب، وصلاح الدين الهادي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢، ص ١٦٠-١٦٣.

ومهما يكن من شيء فإن الأصول المقررة والقواعد الغالبة، التي قعدها وقررها
حذاق اللغة ورسم طريقها العلماء وفق مناهج علمية متينة ضبطت بها اللغة من
التحايل، أولى بالاتباع وأسلم في النهج، وقد لاحظ إدريس بن حمود على جلسائه
نزعة المجاملة وتزيين الباطل، لإيجاد مخرج لخطأ وقع فيه، فأثر الصواب على الخطأ،
وكبح برجوعه إلى الحق جماح الهوى والتحايل على اللغة .

تحدثنا - فيما سبق - عن اللفظ ومكانته لدى شعراء الأندلس ونقاده، وعرفنا من خلال تلك الملاحظات النقدية في المجالس الشعرية أن التركيز النقدي كان منصباً في أكثره على الألفاظ، والتأكيد على ضرورة حسن اختيارها وملامتها لبقية الألفاظ الواردة معها في البيت الواحد أو الأبيات الأخرى، وكثرة ملاحظتنا من اهتمام بجانب اللفظ ذهبنا إلى القول بأن الأندلسيين قد جعلوا من الألفاظ مقياساً للجودة ومعياراً للتفوق والتقدم في هذه الصناعة، ونستطيع تفسير ذلك بأن الأندلسيين نظروا إلى المعاني والأفكار، فأروا أن أغلبها قد طرقه المشاركة فراحوا يرددون ما قالوه، ولكن بنسج وتشكيل وعرض يتحرون فيه الإجابة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وإذا نحن ذهبنا نبحت عن عنايتهم بالمعنى فقد لا نظفر بطائل يُذهب الطوى ويبل القنطري، سوى ملاحظات يسيرة، قد لا يكون بعضها موضوعياً، ومن ذلك ما جرى من نقاش بين المعتمد وجلسائه حول بيت ابن عمار: الطويل

وَلَمْ لَا وَقَدْ أَسْلَفْتُ وَدَأْ وَخْدَمَةٌ يَكَرَنُ فِي لَيْلِ الْخَطَايَا فَيَصْبِحُ^(١)

فعندما سمعه أبو سالم العراقي أخذ يتمضغ بقوله: «يكرن في ليل الخطايا» وقال: ما معناه؟ وهلا بدل هذا اللفظ بسواه، فقال له المعتمد مختبراً له: أبا سالم، أنزله، وإن استطعت بفضلك فأبدله، فأحجم وتلعثم، ولم يتأخر ولا تقدم^(٢).

فقد حاول ابن عمار التقرب إلى المعتمد - بعد انقطاع حبل المودة بينهما - بهذا الاعتذار والاستعطاف، وتذكيره بالأيام الجميلة التي قضاها معه وخدمته الطويلة له لعل ذلك يكون له شفيعاً عنده، وعبر عن ذلك بصورة بيانية جميلة، وقد أدرك المعتمد من جلسائه ذلك المنحى البغيض والسلوك المشين غير المنصف لشاعرية ابن عمار، فزجرهم،

(١) الذخيرة: ق ١٢م، ص ٤٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٢٠-٤٢١.

ودافع عن الشاعر وعن شاعريته، دون أن تؤثر عليه تلك العداوة في أحكامه.

وفي الحكاية ما يصور حال الانتهازين الذين يتخذون من النقد وسيلة لبلوغ رضا الأمير، وهم يعلمون ما بينه وبين صديقه القديم من ود مفقود^(١).

وهناك صور نقدية للمعاني، لكنها لا تعطينا صورة عن اتجاه النقد في المجالس الشعرية، بقدر ما تعطينا فكرة عن ثقافة صاحب المجلس ودقة ملحوظاته وحده ذكاء وحسن إصغائه للشعر.

ومن ذلك ما يروي عن عبدالجليل بن وهبون من أنه قعد فترة طويلة في قصر المعتمد دون أن يؤبه له، وعندما أحس بالضيم والإهمال أطلق لسانه راثياً حظه وناعياً إلى الناس فقدان الوفاء بينهم، فقال: البسيط

غاض الوفاء فما تلقاه في رجل ولا يمر لمخلوق على بال

قد صار عندهم عنقاء مغربة أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال^(٢)

وعندما مثل بين يدي المعتمد وقال هذين البيتين، قال له المعتمد: «عنقاء مغرباً وألف مثقال يا عبدالجليل عندك سواء؟ فقال: نعم، قال: قد أمرنا لك بألف دينار أخرى تنفقها»^(٣).

فقد دفع الشاعر فقره الشديد وحاجته الملحة إلى المال إلى أن يقرن استحالة الوفاء بين الناس باستحالة رؤية العنقاء، وجعل ذلك بديلاً فنياً لعدم حصوله على حاجته من المال من أحد، ففهم المعتمد ما رمى إليه الشاعر وأدرك غايته، وسرعان ما جعله يغير رأيه وينظر إلى الحياة نظرة أخرى.

وفي المجلس التالي - أيضاً - ما يصور قدرة المعتمد في النقد وقوة ملاحظته حين

(١) انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ٩٥.

(٢) النفع: ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٣) المصدر نفسه والمكان ذاته.

يستمع إلى الشعر، فقد رفع إليه أبو محمد عبدالله الحجاري رقعة يمدحه بها،
ويقول: البسيط

لا روع الله سرباً في رحابهم وإن رموني بترويع وإبعاد
ولاسقام على ما كان من عطش إلا ببعض ندى كف ابن عباد
فقال له المعتمد: لأي شيء بخلت عليهم أن يسقوا بكفه؟ فرد عليه: إذن كان
يلحقني من النقد ما لحق ذا الرمة في قوله: الطويل
« ولا زال منهلاً بجرعائك القطر »^(١)

وكان طوفان نوح أهون عليهم من ذلك، فتألفت غرته، وبدت مسرته، وقال:
إنا لله على أن لم يُعنا الزمان على مكافأتك^(٢).

فقد استقل المعتمد في البداية ذلك العطاء الذي يكون في حجم الكف أو بعضه،
وهو عطاء من الممكن أن يقدر عليه غيره من عامة الناس أو من هم دون الملوك، والملوك
عادة « تمدح بالإغراق والتفضيل بما لا يتسع غيرهم لبذله »^(٣)؛ لذلك رأينا الشاعر يوضح
وجهة نظره في قصده من قوله، وهو أنه احترز لعطائه بأن يكون بعضاً من ندى كفه
حتى لا يلحق الشاعر ما لحق ذا الرمة من انتقاد لبيته^(٤)، الذي جعل المطر واكفاً
منسكباً، ليلَ نهار، على ممدوحه، فكان ذلك بمثابة الدعاء عليه لا الدعاء له^(٥)، وقد
أدرك المعتمد ذلك المغزى الذي إليه قصد الشاعر، فأبدى سروره وارتياحه من
ذلك.

(١) النفع: ج ٥، ص ١١٢-١١٣.

(٢) المصدر نفسه: ج ٥، ص ١١٢-١١٣.

(٣) العملة: ج ٢، ص ٧٧٥.

(٤) انظر: المصدر نفسه: ج ١، ص ٦٦٤.

(٥) انظر: النفع: ج ٥، ص ٣٤٢.

وقد يتوقف الأمير عند بعض المعاني التي يطرقها الشاعر، فيبدي رأيه منها، ويعبر
عن رغبته في تعديلها وتصويبها، ومن ذلك ما يروى عن ابن عبادة الوشاح أنه أنشد
المعتصم قوله : الطويل

ولو لم أكن عبداً لآل صمادح وفي أرضهم أصلى وعيشي ومتلدي

لما كان لي إلا إليهم ترحل وفي ظلهم أمسي وأضحى وأغتدي

فقال له المعتصم : يا عبادة ما أنصفناك بل أنت الحر لا العبد^(١).

فقد كره المعتصم من شاعره أن يلحق بنفسه صفة تجعله في مصاف العبيد، وفي
ذلك ما يدل على إجلال المعتصم للشعراء وتقديره لهم وتواضعه معهم .

(١) النفع : ج ٤ ، ص ٣٦٨ .

السرقااا الشعرياء:

لقد أفاض النقاد في حديثهم حول هذه القضية؁ وذهبوا فيها مذهب شتى وتباينوا في وضع الضوابط والحدود لها؁ فالجاحظ لا يرى بأساً من تناول الشاعر لمعنى سبقه إليه غيره؁ فمعيار التمايز عنده بين الشعراء هو الجودة في السبك؁ أما المعاني فهي حق شائع بين الناس؁ وليست وفقاً على أحد منهم^(١).

ويرى ابن عبدربه الأندلسي أن أخذ المعنى والزيادة عليه يجعل حق المعنى للذي زاد فيه^(٢)؁ ولا يختلف ابن شهيد عن ابن عبدربه في هذا الرأي حيث يقول: «إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تراكيبه وأرق حاشيته؁ فأضرب عنه جملة؁ وإن لم يكن بُدٌ ففي غير العروض الذي تقدم إليها ذلك المحسن»^(٣)؁ فهو يقرر بـ: «التناول من الآخرين؁ ولكنه يفلسف الأمر من منظار إبداعى»^(٤).

وقد كان ابن بسام أكثر النقاد الأندلسيين تحرجاً من إغارة شعراء أفقه على معاني غيرهم من المشاركة؁ لذلك راح يذم الشعراء الذين اتكثوا في شعرهم على معاني غيرهم؁ يقول عن ابن زيدون: «وأبو الوليد بن زيدون على كثير إحسانه كثير الاهتمام^(٥) في الثار والنظام»^(٦).

وعندما رأى أبناء بلده أسرفوا في تناولهم لمعاني غيرهم راح يخفف من تلك النظرء المعيبة عليهم؁ وأرجع ذلك التشابه والتقارب في الألفاظ والمعاني إلى توارء

(١) الحيوان: ج ٣؁ ص ١٣١-١٣٢/٣١١.

(٢) انظر: العقد الفريد/ ابن عبدربه الأندلسي: أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ)؁ دار إحياء التراث العربي؁ بيروت؁ ط ١؁ ١٩٨٩م؁ ج ٥؁ ص ٣٠١.

(٣) الذخيرة: ق ١م ١؁ ص ٢٨٧.

(٤) رسالة «التوايع والزوايع»: ص ٢٠.

(٥) هو أخذ قسم من الشعر والتصرف في القسم الآخر تصرفاً يسيراً. انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها؁ أحمد مطلوب؁ مطبعة المجمع العلمي العراقي؁ ١٩٨٣م؁ ص ٣٤٠.

(٦) الذخيرة: ق ١م ١؁ ص ٣٠٥.

الخواطر، حتى لا يُرمى شعراء بلده بالسرقة، فقال : « وإذا ظفرت بمعنى حسن، أو وقفت على لفظ مستحسن، ذكرتُ من سبق إليه، وأشرتُ إلى من نقص عنه، أو زاد عليه، ولست أقول أخذ هذا من هذا، قولاً مطلقاً، فقد تتوارد الخواطر ويقع الحافر على الحافر، إذ الشعر ميدان، والشعراء فرسان»^(١).

وفصل ابن رشيق القول في هذه القضية، وبين كيف يكون السرقة من عدمه، وما هو مسروق من المعاني والألفاظ، وما هو غير مسروق، وذلك في قوله : « والسرقة إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر، لا في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم، ومما ترتفع الظنة فيه عن الذي يورده أن يقال : إنه أخذه من غيره، واتكال الشاعر على السرقة بلاذة وعجز، وتركه كل معنى سبق جهل، ولكن المختار له عندي أوسط الحالات، وقال بعض الخذاق من المتأخرين، إن أخذ معنى بلفظه كما هو كان سارقاً، فإن غير بعض اللفظ كان سالحاً، فإن غير بعض المعنى ليخفيه أو قلبه عن وجهه كان ذلك دليل حذقه»^(٢).

ولا يختلف حازم القرطاجني عن ابن رشيق في قضية الأخذ عن الآخرين على شرط أن يحسن الشاعر التصرف في ذلك الأخذ، فهو يرى أن العملية الإبداعية اكتساب وامتداد ودربة وتمرس على جهود الآخرين، وسمى ذلك كثرة المزاولة^(٣).

فابن رشيق وحازم يلتقيان في فكرة التدريب والتمرس التي هي ضرورة للشاعر، كي يسرع في هذه الصناعة، وذلك عن طريق الاطلاع على الأنماط الأدبية الرفيعة وهضمها والاستعانة بها من غير تفريط ولا إفراط .

فإذا عرفنا ذلك فلنتنظر الآن فيما بين أيدينا من نماذج شعرية قبلت في المجالس،

(١) المصدر السابق: ص ١٨-١٩.

(٢) العملة: ج ٢، ص ١٠٣٨-١٠٣٩.

(٣) انظر: منهاج البلغاء: ص ١٩٢-١٩٣.

عهد الطوائف، لتقف على جانب من هذه القضية، سواء ما أثير منها داخل المجالس أو ما أثاره النقاد الذين عاصروا تلك الفترة أو جاءوا بعدها حول الأشعار التي قيلت فيها.

لقد كان هناك جهتان وراء إثارة قضية السرقات الشعرية في المجالس: الحساد الذين يتنافسون في مجالس الأمراء على المراتب وإظهار المعرفة والحذق في هذه الصنعة، والنقاد الماهرون من أدباء وكتاب ونحوهم.

ومن النوع الأول ما يروى عن ابن عمار من أنه أرسل بقصيدة إلى المعتمد، يعتذر إليه فيها عما بدر منه من عصيان، وكان منها قوله: الطويل

وبين ضلوعي من هواه تيممة ستفزع لو أن الحمام يُجَلِّح^(١)

فلما سمع الحاضرون هذا البيت أخذوا يغمزونهم، ويتقصصون منه وقالوا: «أي معنى أراد؟ ما قال شيئاً ولا كاد، فقال لهم المعتمد: مهما سلبه الله من المروءة فليم يسلبه الشعر، وإنما قلب بيت الهذلي: الكامل

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تيممة لا تنفع^(٢)

فالمعتمد أشار إلى أمر في هذا الموقف، دل على خبرة واطلاع، وهو ما يعرف بقلب المعنى الذي يُعدُّ، عند البعض، أحد صور السرقات الشعرية، كما سنعرف.

وقد اختلف النقاد في «قلب المعنى» أهو من باب السرقات أم لا؟ فأبو هلال العسكري يقول: «وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم، فليس على أحد فيه عيب إلا إذا أخذه فافسده وقصر فيه عن تقدمه»^(٣).

ووفقاً لهذا الرأي فإن ابن عمار قد أخذ المعنى وقلبه ووظفه توظيفاً جديداً، مغايراً

(١) الذخيرة: ق ١٢م، ص ٤٢١-٤٢٢.

(٢) المصدر السابق والمكان ذاته.

(٣) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٢١٨.

لمعنى بيت الهذلي، فالتميمة في بيت الهذلي مستحيل تحقق النفع منها، لكنها في بيت ابن عمار ممكن تحقق ذلك منها.

أما أبو عبدالله جمال الدين الأندلسي (ت ٧٨٠هـ) فيذهب إلى أن القلب من باب السرقات أيا كان ذلك، حيث يذكر أن السرقات على عدة أضرب، منها : القلب، وهو أن يقلب المعنى إلى ضده نحو قول الشاعر : الكامل

أجد الملامة في هواك لذيدةً حباً لذكرك فليلمني اللوم

أخذه أبو الطيب ، فقال : الكامل

أحبه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه^(١)

ولكن نجد ناقداً مشرقياً أو مغربياً أصاب المحز في هذه القضية، واهتدى إلى الحدود الفاصلة التي تنير الطريق للباحث وترسم له المنهج السليم إزاءها، غير أن عبد القاهر الجرجاني وضع ضابطاً لهذه القضية من الممكن أن يعول عليه، فهو يذهب إلى أن اختلاف الألفاظ يؤدي بالضرورة إلى اختلاف المعنى، ويعبر عن ذلك بقوله : « فإنه ليس يتصور مثل ذلك في الكلام لأنه لا سبيل إلى أن تحيى إلى معنى بيت من الشعر أو فصل من النثر فتؤديه بعينه وعلى خاصيته ، بعباره أخرى حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه في صفة ولا وجه، ولا أمر من الأمور »^(٢).

ومما لا شك فيه أن الصورة التعبيرية في بيت ابن عمار مختلفة عنها في بيت الهذلي، فابن عمار يذكر أن الماضي الذي كان يربطه بصديقه المعتمد ماض حافل بالصحبة الوفية، والتفاني والإخلاص في خدمته، والعشرة الطويلة المشتمة على ذكريات عزيزة، منذ كانا شاوين يافعين، وتلك أمور حرة بأن تكون له شفيعة عند

(١) المعيار في نقد الأشعار/ جمال الدين الأندلسي: أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت ٧٨٠هـ)، تحقيق عبدالله هندأوي، مطبعة الأمانة، مصر، ط ١، ١٩٨٧م، ص ١٩٥-٢٠٢.

(٢) دلائل الإعجاز: ص ٢٦١.

الأمير، وإن بدا منه ما بدا من عصيان وتمرد، وعليه فالعنى هنا غيره في بيت
الهذلي.

وقد تكون الدوافع الشخصية سبباً في توجيه التهمة إلى الشاعر بالسرقة، حيث
يروى أن أبا الفضل تسابَّ مع ابن اخت غانم في مجلس المعتصم بن صمادح، وأغاض
كل منهما الآخر، فلما أنشد أبو الفضل قصيدته : -الرميل

مطل -الليل بوعد الفلق وتشكى النجم طول الأرق

اتهمه ابن اخت غانم داخل المجلس بأنه قد أغار فيها على شعر المشاركة، ووجه
إليه إهانة شديدة، حيث يقول : الكامل

قولوا لشاعر برجة هل جاء من أرض العراق فحاز طبع البحري
وافى بأشعار تضج بكفه وتقول هل أغزى لمن لا يشعر
يا جعفرأ ردّ القريض لأهله واترك مباراة لتلك الأبحر
لا ترعمن ما لم تكن أهلاً له هذا الرضاب لغير فيك الأبحر^(١)

وفي مجلس المعتصم -أيضاً- تشاجر شاعران، وادّعى أحدهما على الآخر بأنه قد
سرق شعره، وطلب من الأمير أن ينصفه منه، فقد أنشد ابن اللبانة قصيدة،
مطلعها: الكامل

«عج بالحمى حيث الظباء العين»

فسمعه ابن الحداد، فقال مرتجلاً :

حاشا لعدلك يا بن مَعْنٍ أن يرى في سلك غيري دُرِّي المكنون

واليكها أشكو استلاب مطيها «عج بالحمى حيث الخماص العين»

(١) المغرب: ج ١، ص ٤٣٣.

فاحكم لها واقطع لساناً لا يداً فليسان من سرق القريض^(١)

تلك غماذج تعطينا صورة عن ما كان يدور في تلك المجالس من مشادات ومواجهات بين الشعراء، يغذيها الحسد وبذكيها التنافس، وكانت السرقة الشعرية مأخذ من المآخذ التي لا يمكن التسامح فيها داخل تلك المجالس، وتشكل مصدر قلق للشعراء لكثرة وقوعهم في حبالها، وسوف نتبع جانباً منها من خلال الجهة الثانية التي تعقبت الشعر، الذي يعتقد أنه مأخوذ من غيره، ونهت عليه.

فقد تعقب ابن بسام قضية السرقة في أشعار أبناء بلده ونبه على ما كان يأخذ الشعراء من بعضهم البعض، من معاني والفاظ، على الرغم من دفاعه عنهم، كما مر معنا، فقد أشار إلى بيت ابن عمار، الذي ورد في قصيدته الموجهة إلى المعتمد، الذي يقول فيه : الطويل

وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا سوى أن ذنبي ثابت متصحح^(٢)

يقول ابن بسام : وهو لفظ المجنون : الطويل

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا سوى أن يقولوا : إنني لك عاشق^(٣)

وتعقب ابن بسام ابن زيدون وأخذ عليه كثيراً من الأبيات التي أغار فيها على معاني شعراء مشاركة وأندلسيين، ومن ذلك قوله : الطويل

ولا قبل عباد حوى البحر مجلس ولا حمل الطود المعظم رفر^(٤)

يقول عنه ابن بسام : وهذا بيت ابن دراج القسطلي بجملته، حيث يقول في ابر

(١) المطمح : ٣٣٧-٣٣٨، والنفع : ج ٥، ص ١٩٦-٢٤٦.

(٢) الذخيرة : ق ٢٢، ص ٤٢٢.

(٣) ديوان مجنون ليلى : يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩١ م، ص ٢٦٥.

(٤) الديوان : ٤٨٦.

أبي عامر: الطويل

وكيف استوى بالبر والبحر مجلس وقام بعبء الراسيات سرير^(١)

وأشار إلى بيته الذي يقول فيه: الطويل

ولما حضرنا الإذن والدهرُ خادمٌ تشيرُ فيمضي والقضاءُ مصرف^(٢)

بقوله «أرى أبا الوليد احتذى فيه حذو الوليد»^(٣)، مشيراً بذلك إلى قول الوليد

البحري: الطويل

ولما حضرنا سدة الإذن أخرجت رجال عن الباب الذي أنا داخله^(٤)

ووفقاً للمعايير النقدية السابقة التي أشرنا إليها فإن أبا الوليد قد تفوق في المعنى على الوليد، فإن كان ابن زيدون قد لمح بيت البحري ونسج على غرارهِ، إلا أن نسج ابن زيدون أكثر دقة وأشمل معنى وأعمق تصوراً، فالبحري يتحدث في بيت كامل عن فكرته التي أوردها، دون أن يشتمل بيته على مديح لصاحب المجلس، فضلاً عن لغة الشطر الثاني غير الشاعرية، بينما ابن زيدون عبر في بيت واحد عن فكرتين اثنتين معاً، فقد أضاف إلى فكرة البحري مدحاً لصاحب المجلس، فضلاً عن ذلك التشخيص الاستعاري للدهر والقدر، حيث جعلهما شيئاً من ممتلكات الممدوح وأداة طيبة في يديه يتصرف فيهما كيف يشاء.

ويقول ابن بسام عن بيتي يوسف بن عبدالصمد، وهما ضمن قصيدة مدح بها

المعتمد بعد انتصاره في موقعة الزلاقة: الكامل

(١) ديوان ابن دراج القسطلي (٤٢١هـ): تحقيق محمود علي مكّي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ط ١، ١٩٦١م، ص ٣٠٢.

(٢) الديوان: ص ٤٩٦.

(٣) الذخيرة: ق ١م ١، ص ٣٧٨.

(٤) ديوان البحري: م ٣، ص ١٦٠٩.

خضعت لعزتك الملوك الصيد وعنت لك الأبطال وهي أسود

رأي بفل الجيش وهو عرمم ويعفر الجبار وهو عنيد^(١)

وهذا مما أراه نظر إلى قول مختار بني النجار... أنشد المعتمد بن عباد من جملة

قصيد فريد قال فيه : الكامل

ذلت لعزتك الملوك الصيبد يا من إذا نقص الزمان يزيد

وفتحت باب الغرب يا ابن محمد وبلغت أقصاه فأين تريد^(٢)

وابن عبدالصمد، وإن كان قد نظر إلى هذا الشعر، فإنه قصر عنه كثيراً، ولم يلحق به، لما احتوى عليه شعر مختار بني النجار من تعدد أفكار وطرافة ومحاوره وحركة وإثارة، الأمر الذي جعل ابن عباد يتأثر من ذلك القول ويؤدي ارتياحه منه، ويعلق عليه بقوله: «إلى بغداد يا ابن الفاعلة»^(٣).

وعندما ألقى المعتمد القبض على ابن عمار، جاءه الشعراء يهتفونه على هذا الصنيع، ومنهم أبو العرب الصقلي^(٤)، حيث يقول: الطويل

كان بلاد الله كفك إن يسر بها هارب تجمع عليه الأناملا

فأين يفر المرء عنك بجرمه إذا كان يطوي في يديك المراحلا^(٥)

يقول ابن بسام: وهذا المعنى قد تداولته جماعة من الجاهليين والمخضرمين والمحدثين والمسولدين، وأرى أن أول من أثاره، ورفع ناره النابغة، حيث

(١) الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٨١٥.

(٢) المصدر نفسه والمكان ذاته.

(٣) المصدر نفسه والمكان ذاته.

(٤) سبقت ترجمته.

(٥) الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٣٠١.

يقول: الطويل

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأني عنك واسع^(١)

ويقول البحتري: الكامل

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن لمجدهم من أخذ بأسك مهرب^(٢)

والتأمل لبتي الصقلي يجد في سياقهما أنسياً في المعنى، وسلاسة في التعبير، وتنوعاً في الخطاب، وحيوية في الصورة والخيال.

وعندما أنشد ابن أرفع رأسه المأمون بن ذي النون قوله: البسيط

دعوا الملوك وأبناء الملوك فمن أضحى على البحر لم يشتق إلى نهر^(٣)

أغار فيه على قول المتنبي: الطويل

قواصد كافور توارثك غيره ومن قصد البحر استقل السواقي^(٤)

تلك كانت أمثلة للشعر المتشابه والمتوافق في بعض معانيه وألفاظه، حرصنا على أن يكون من شعر المجالس، ويتبين من خلالها كثرة تلك المعاني التي تعاورها الشعراء فيما بينهم، واتكأ فيها اللاحقون على السابقين، ولكن هل كل ما وجد من شعر فيه تشابه في مبناء أو في معناه أو في كليهما معاً يكون قد نظر فيه اللاحق إلى السابق، أو قد يكون ذلك من قبيل توارث الخواطر؟ ذلك ما ستأوله في السطور التالية:

(١) ديوان النابغة الذبياني: راجعه ونقحه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٦، ص ١٦٨.

(٢) ديوان البحتري: م ١، ص ٧٦.

(٣) المغرب: ج ٢، ص ١٨.

(٤) ديون المتنبي: بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه مصطفى السقا، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠ م، ج ٣، ص ٢٨٧.

توارد الخواطر «التخاطر» :

أثار النقاد والأدباء القدماء هذه القضية، وأقر البعض منهم بحصول ما يسمى بالتخاطر أو توارد الخواطر، فقد سئل أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) عن الشاعرين يتفقان في المعنى، ويتواردان في اللفظ، لم يلتق واحد منهما صاحبه ولم يسمع شعره، فقال: تلك عقول رجال توافقت على ألسنتها^(١)، وسئل أبو الطيب عن ذلك فأجاب: «الشعر جادة، وربما وقع الخافر على موضع الخافر»^(٢). والمقصود بتوارد الخواطر: هو أن تمر فكرة واحدة أو معنى واحد على خاطرين في وقت واحد، ويعبران عنها تعبيراً واحداً أو متشابهاً^(٣).

ولعلماء النفس تفسير لهذه الظاهرة، حيث يقولون: «إن الفكر يحدث ذبذبة كأجهزة الإرسال (اللاسلكية)، وأن أي مخ مستقبل قد يكون مفتوحاً على مخ المرسل فيتلقى هذه الذبذبة على نحو ما يحدث في الراديو (المذياع)»^(٤).

ونحن إذا سلّمنا بهذا القول بين أشخاص متعاصرين، فما تفسير توافق أفكار أشخاص غير متعاصرين؟ ذلك ما سنعرفه في نهاية حديثنا عن هذه القضية.

ومهما يكن من شيء فإن التسليم بتوارد الخواطر في اللفظ والمعنى ودون أن يسمع أحد بالآخر أمرٌ من الصعوبة بمكان^(٥)، فإذا سلّمنا بالمعنى فإننا لا نسلم بالتوافق بين

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج ١، ص ٨٦.

(٢) حلية المحاضرة في صناعة الشعر: تحقيق محمد قرقران، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨م، ج ١، ص ٣٦٢-٣٦٣.

(٣) شياطين الشعراء: عبدالرزاق حميدة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦م، ص ٣٠.

(٤) المرجع نفسه والمكان ذاته.

(٥) انظر: «موقف النقاد العرب من ظاهرة التخاطر»، جهاد المجالي، مؤنة للبحوث والدراسات، المجلد التاسع، العدد الأول، ١٩٩٤م، ص ١٥٨.

وقد شك النقاد^(٢) في بيتي امرئ القيس وطرفة، حيث قال امرؤ القيس: الطويل

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم يقولون: لا تهلك أسي وتجلد^(٣)

فجاء بعده طرفة، فقال: الطويل

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم يقولون: لا تهلك أسي وتجلد^(٤)

فالتوارد على هذه الصورة أمر مشكوك فيه، أما التوارد في المعنى كله أو بعضه، وفي يسير من الألفاظ فذلك قد يكون - في اعتقادي - ناتجاً عن كثرة ما يحفظ الشعراء من نماذج لسابقيهم أو لمعاصريهم، خاصة تلك النماذج التي تعبر عن مناسبات عامة، كثيراً ما تتكرر صورها عبر العصور، فيتلقفها الشعراء ويتجاوبون معها من مخزونهم الفكري والثقافي، الذي وعاه عقلهم الباطن، وعندما تعن مناسبة مشابهة لمناسبة سابقة أخرج الشاعر من ذلك المخزون - بعد أن يصبغه بالوانه، وينسجه من خياله - ما يفي بحق تلك المناسبة عليه.

وهذا الاعتقاد مبني على أساس قديم عند ابن رشيق، فهو يحيل أمر التوارد على الحفظ، فكلما غزر محفوظ الشاعر من الشعر وأراد أن يسقول قصيدة ما على وزن ما، وروي ما، اضطر بحكم طبيعة التركيب والإيقاع إلى تكرار ما عند غيره مما حفظ لهم تكراراً لفظياً أحياناً، وهو لا يعدُّ مثل هذا من قبيل

(١) المرجع نفسه والمكان ذاته.

(٢) انظر: قراضة الذهب في نقد أشعار العرب/ القيرواني: أبو علي الحسن بن رشيق (٤٥٦هـ). تحقيق الشاذلي بويحيى، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٢م، ص ٨٦.

(٣) ديوان امرئ القيس بشرح أبي سعيد السكري (٢٧٥هـ) وملحقاته، تحقيق محمد الشوابكة وأنور أبو سريلم، دار عمار، عمان، ط ١، ١٩٩٨م، ١م، ص ١٧٢.

(٤) ديوان طرفة بن العبد: شرح الأعلام الشتمري (٤٧٦هـ)، تحقيق دُرّة الخطيب ولطفو الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٥م، ص ٦.

وقد يلتقي الشعراء في بعض الصور والتشبيهات، وتلك الصور من الممكن أن تعن لأي شاعر، وليس بالضرورة أن يكون قد اطلع بعضهم على شعر بعض، كالصورة التالية :

عندما أنشد المتوكل بن الأفطس قوله : مخلع البسيط

أقبل أبا طالب إلينا وقع وقسوع الندى علينا

فإنه ليس بالضرورة أن يكون قد اطلع على شعر وضاح اليمن^(٢) الذي يقول فيه : السريع

فاسقط علينا كسقوط الندى ليلة لاناء ولا زاجر^(٣)

وأخذه عنه .

إذن ينبغي أن نلاحظ، في كل ما سبق، أن هناك صوراً مركبة، وخواهر متشابهة، وقوالب بنائية جاهزة، تتألف من عناصر طبيعية ثابتة، من الممكن أن يدركها بشكل متساو أو متقارب كل من أوتي رهافة في الحس ونفاذاً في الرؤية وبراعة في التصوير وقدرة على التقاط الصور المتشابهة وإيجاد العلاقة فيما بينها.

وعلى سبيل المثال ما يروى عن شاعرين طلبا منهما أن يقولا في دائرتين، صنعت

إحدهما من الورد والثانية من الياسمين، فقال الأول : السريع

يا حسنّها دائرة من ياسمين مُشرق

والورد قد قابلها في حلة من شفق

(١) انظر: قراضة الذهب: ص ٨٦، و«موقف النقاد العرب من ظاهرة التخاطر»: ص ١٥٣.

(٢) وضاح اليمن: هو عبدالرحمن بن إسماعيل شاعر أموي رقيق الغزل، تغزل بأم البنين، زوجة الوليد بن عبدالملك، فقتله نجر ٩٠ هـ. (انظر: الأغاني: ج ٦، ص ٢٠٩، والأعلام: ج ٣، ص ٢٩٩).

(٣) الأغاني: ج ٦، ص ٢٤٤.

كعاشق وحببه تغامزا بالحسدى

فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من فرق^(١)

وأراد الثاني أن يعتذر عن القول، لأن الأول قد سبقه إلى تلك الصور التي قد وردت إلى ذهنه، كما وردت إلى ذهن صاحبه، ثم قال :

يا خنبا دائرة من ياسمين كالحلى

والورد قد قابلهما في حلة من خجل

كعاشق وحببه تغامزا بالمسقل

فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من وجل^(٢)

والشعراء كثيراً ما مزجوا بين الإنسان والطبيعة، وشبهوا الحدود بالورود^(٣)، وشبهوا اصفرار وجه المحب بالأس، وهي صور لاكتها الألسنة وتخيلتها الأذهان باستمرار، وعبر بها الشعراء فى أكثر من مناسبة^(٤).

وإذا كان الشعراء المتأخرون قد سبقوا « إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح وحيلة لطيفة، وخلاصة ساحرة »^(٥)، فالسابق والسابك يظلان فى تقدم وتأخر فى نظر النقاد^(٦)، ما دام هناك شعر ينشد وشعراء يولدون، إذ الشعر ميدان والشعراء فرسان، كما يقول ابن بسام^(٧).

(١) النفع: ج ٤، ص ٣١٦-٣١٧.

(٢) المصدر نفسه والمكان ذاته.

(٣) انظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه / الجرجاني: القاضي علي بن عبدالعزیز (ت ٣٦٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار القلم، بيروت، ١٩٦٦م، ص ١٨٧.

(٤) انظر: النقد الأدبي فى المغرب العربي: ص ٢٣٩.

(٥) عيار الشعر / ابن طباطبا: أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم (ت ٣٢٢هـ)، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٩.

(٦) انظر: كتاب الصناعتين: ص ٢١٧-٢١٨.

(٧) انظر: الذخيرة ق ١م، ص ١٨-١٩.

المعارضة بمعناها الاصطلاحي هي: أن يحاكي الأديب في أثره أديباً آخر، محاكاة دقيقة تدل على براعته ومهارته^(١).

ويعرفها أحمد الشايب تعريفاً أكثر تفصيلاً وإيضاحاً، فيقول: والمعارضة في الشعر أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما، من أي بحر وقافية، فيأتي شاعر فيعجب بهذه القصيدة لجانبها الفني وصياغتها المختارة، فيقول قصيدة في بحر الأولى وقافيتها وفي موضوعها، أو مع انحراف يسير أو كثير، حريصاً على أن يتعلق بالأول في درجته ويفوقه، فيأتي بمعان أو صور يلازم الأولى تبلغها في الجمال الغني، أو تسمو عليها بالعمق أو بحسن التعليل وجمال التمثيل، أو فتح آفاق جديدة في باب المعارضة^(٢).

وهي بهذا المفهوم قد تبدو ضرباً من ضروب التقليد للغير، ومتابعتهم فيما أنتجوا والسير على خطاهم والتعلق بركابهم واحتذاء أعمالهم الفنية^(٣)، لكن المعارضة في واقع الأمر «حالة تتجاوز التقليد إلى الإبداع، والمتابعة إلى الابتكار»^(٤)؛ لذلك رأينا كثيراً من الأدباء قدماء ومحدثين، اختاروا أعمالاً شعرية خالدة، راحوا يجارونها وينسجون على منوالها، بل ويحرزون - أحياناً - تفوقاً عليها، وعلى سبيل المثال، ابن شهيد في القدماء^(٥) وأحمد شوقي في المتأخرين^(٦).

وتعد المعارضة في حد ذاتها وجهاً من وجوه النقد الفطري^(٧)؛ لأن الشاعر حين

-
- (١) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة، ط ٢، ١٩٨٤م، ص ٣٧١.
 (٢) تاريخ النقائض في الشعر العربي القديم: أحمد الشايب، طبعة السعادة، بمصر، ١٩٥٤م، ص ٧.
 (٣) انظر: تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤م، ج ٤، ص ٧٨.
 (٤) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص ٢٦٧.
 (٥) انظر: «التواضع والزواضع» لابن شهيد.
 (٦) انظر: «الموازنة بين الشعراء» أحمد زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م، معارضة شوقي للبوصيري (ت ٦٩٥).
 (٧) انظر: تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ، ج ٤، ص ٧٨.

يحاكي شاعراً آخر، ويحاول مجاراته في أي عمل من أعماله، إنما يكون قد أقر سلفاً بأن ذلك العمل قد استحق إعجابه وأثار انتباهه، وحرى بذلك العمل أن يكون أنموذجاً يحتذى^(١).

وقد كان الأندلسيون مولعين بمحاكاة المشاركة^(٢)، ليس في الشعر فقط، بل وفي التأليف أيضاً^(٣)، إيماناً منهم بأن المشاركة أصحاب سبق، وأرباب فضل في هذا الميدان، مما حدا ببعضهم، كابن حزم وابن بسام، إلى الضيق بهذا المنحى الذي نحاه الأندلسيون والتبرم منه^(٤)، وكان ذلك عاملاً محرراً لكثير من أدبائهم ومؤرخيهم^(٥).

إلا أن بعضهم كان يقر بمبدأ المعارضة، متخذاً منها معياراً نقدياً للتفوق، كما هو الحال عند ابن شهيد^(٦)، والذي استنكر أن يهضم حق شاعر في مجلس المنصور بن أبي عامر؛ لأنه كان كثير المعارضات والتقليد^(٧).

وقد كانت المعارضات الشعرية في المجالس تتخذ المظاهر الأدبية فيها، خاصة معارضة الأشعار المشرقية، مما يؤكد تلك النزعة إلى الولع بالشعر المشرقي، ومحاولة مجاراته وتسجيل تفوق عليه، وبين أيدينا نماذج كثيرة، تعطينا دلالة واضحة على حبهم معارضة المشاركة وإحراز التفوق عليهم - أحياناً^(٨).

ومن ذلك أن المعتصم بن صمادح طلب من ابن الحداد أن يعارض بيتي النابغة

(١) انظر: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص ٢٦٧.

(٢) انظر: الذخيرة: ق ١٤، ص ٢٣-٢٤، ق ١١، ص ٣٧٩.

(٣) انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ٥٩.

(٤) انظر: الذخيرة: ق ١ م، ص ١٢، ١٤، والنفع: ج ٣، ص ١٦٦-١٦٧، وعصر سيادة قرطبة: ص ٧٦-٧٧.

(٥) انظر: دراسات أدبية في الشعر الأندلسي: ص ٦٨.

(٦) انظر: التوابع والتوابع.

(٧) انظر: الجذوة: ص ٢٥٨-٢٥٩، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس: ص ٤٨٤.

(٨) انظر: تاريخ المعارضات في الشعر العربي، محمد محمود قاسم نوفل، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣ م، ص ١٠٨، ١٢٥.

في كلا البيتين، دون أن يأتي بكلام حشواً لا علاقة له بالمعنى، ونلمح في البيتين مترويين من التعبير: خطاب موجه إلى المدح، وفيه ثناء عليه، وخطاب موجه إلى الناس كافة، مشتمل على ثناء أيضاً وإشادة بكرم المدح وعظيم فضله.

إذن فالمعارضة لم تكن لذات المعارضة فحسب، بل هناك تميز يلحظ للأندلسيين عندما يعارضون، وقد قيل إن ابن خفاجة كان حين يعارض غيره يضيف على قصائده التي يعارض بها نسياً من روحه بحيث يتميز أسلوبه بطابعه^(١).

ونجدهم، حين يعارضون، يلتزمون الشروط المتبعة لفن المعارضات، وذلك من حيث اتفاق القصيدتين في البحر والروي والموضوع، الأمر الذي يجعل المعارضة وافية وتامة^(٢).

وللتدليل والتأكيد على ذلك، نورد بعض النماذج التي جرت في المجالس الشعرية وكان الهدف منها معارضة الشعر المشرقي؛ لنقف على المدى الذي بلغته القصيدة الأندلسية في تفوقها على القصائد التي عارضتها.

يقول ابن خفاجة: «خرجت يوماً بشاطبة إلى باب السمارين ابتغاء الفرجة على خريز ذلك الماء بتلك الساقية، وذلك سنة ٤٨٠هـ، وإذا بالفقيه أبي عمران بن أبي تليد، رحمه الله تعالى، قد سبقني إلى ذلك، فالفيتة جالساً على دكان كانت هناك مبنية لهذا الشأن، فسلمت عليه، وجلست إليه، مستأنساً به، فجرى أثناء ما تناشدناه ذكر قول ابن رشيق: مجزوء الكامل

يا من يمر ولا تمر رُ به القلوب من الفرقُ

بِعِمَامَةٍ من خَسَدِهِ أَوْ خَدَهُ منه استرقُ

فكأنه وكأنها قمرٌ تَعَمَّمُ بالشَّفَقِ

(١) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص ٢٧٤.

(٢) انظر: منهاج البلغاء: ص ٤١١، وتاريخ المعارضات في الشعر العربي: ص ١٣.

فإذا بدا وإذا انتشى وإذا شدا وإذا نطق

شغل الخواطر والجوا نح والمسامع والحدق

فقلت: وقد عجب بها جداً، وأثنى عليها كثيراً، أحسن ما في القطعة سياقة الأعداد، وإلا فانت تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذي قبله، فَيُنَزَّلُ بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها، وهل ينزل بإزاء قوله: «وإذا نطق» قوله: «شغل الحدق»، وكأنه نازعني القول في هذا غاية الجهد، فقلت بديهاً:

ومفهف طاوي الحشا خنت المعاطف والنظر

ملاً العيون بصورة تليت محاسنها سور

فإذا رنا وإذا مشى وإذا شدا وإذا سفر

فضح الغزالة والغما مة والحمامة والقمر

فجن بها استحساناً^(١).

ففي الحكاية السابقة نجد شروط المعارضة كلها متوفرة، كما نرى تفوق ابن حفاجة على ابن رشيق واضحاً، فقد قابل كل كلمة بما يلائمها، ووضع كل لفظة في موازة اختها، فبدت تلك المقابلات متجانسة متعانة متشاكله، وتلك الألفاظ متناغمة متآخية متوائمة.

وعندما غني بين يدي المعتمد بقول ابن المعتز: المتقارب

وخمارة من بنات المجوس ترى الزق في بيتها سائلا

وزنا لها ذهباً جامداً فكانت لنا ذهباً سائلا^(٢)

(١) ديوان ابن حفاجة: ص ٣٥٧-٣٥٩، والنفع: ج ٤، ص ٢٨٦.

(٢) ديوان ابن المعتز: يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٥٩٧.

وقلت خذي جوهرأ ثابتاً فقالت خذوا عرضاً زائلاً^(١)

فإذا أردنا المقارنة بين شعر ابن المعتز وابن عباد سنجد أن ابن المعتز لم يصف لنا سوى ما كانت عينه ترصده من مناظر ومشاهد، فنقل ذلك إلينا نقلاً حسيّاً مجرداً، لكن المعتمد أخذ المعنى منه وأضاف إليه بعداً أخلاقياً وسلوكياً محقوتاً، أراد أن يلفت الأنظار إليه، وهو ذلك العبث الذي كان ييدر من الأمراء، والمتمثل في تبديد الأموال والإسراف في إنفاقها، مقابل نزوة عابرة وشهوة عارضة، وكأنا به يسخر من هذه العادة السيئة التي تواطأ عليها المترفون من أثرياء المجتمع.

وهناك قصائد، غير هذه المقطوعات التي ذكرناها، قيلت في مجالس الأمراء عارض بها الأندلسيون كبار شعراء المشاركة كالمتنبي وابن الرومي وأبي تمام^(٢)، لا تخلو من قدرات فنية تشهد للشعراء الأندلسيين بروعة الإبداع، وقد شهد لهم بذلك المشاركة قبل المغاربة، حيث يروي أن المتنبي استمع إلى ابن عبدربه فأعجب بشعره، وقال: «لقد تأتيك العراق حبواً»^(٣).

ولم يكن البعد الفني والأدبي وحده هو الدافع إلى معارضتهم للشعر المشرقي، فقد كان إلى جانب ذلك البعد السياسي «ولا سيما حين يكلف أمير أو حاكم أندلسي شاعراً بمعارضة شاعر مشرقي، فإنه إن نُسب لشاعره التفوق على الشاعر المشرقي، يكون قد عزز ملكه بشاعر متميز يفوق شعراء ملوك المشرق»^(٤).

وكما كانت المجالس الشعرية تحفل بشعر يعارض به الشعراء الأندلسيون أشعار

(١) ديوان المعتمد: ص ٢٥.

(٢) انظر: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٩٥، ٧٠٨.

(٣) معجم الأدباء: ج ٤، ص ٢٢٢.

(٤) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص ٢٧٠.

المشاركة كانت تحفل -أيضاً- بشعر يعارض به الأندلسيون بعضهم بعضاً^(١)، ومن ذلك ما يروى عن إدريس بن اليمان أنه مدح ابن واجب، بمقطوعة اشتملت على وصف حمامة، يقول فيها: الكامل

وادي الأراك أطلت شكوى الشاكي بَشَمِيمٍ كُلِّ بَشَامَةٍ وَأَرَاكِ
وَرَقًا مَطْوَقَةً السَّوَالِفِ سَنَدُسًا لَمْ يَحْكُ صَنَعَتَهَا حَيَاكَةُ حَاكِ
تشدو على خُضْرِ الغصون بالسن صُبُغَتْ مَلَاثِمُهَا بِبَلَا مَسْوَاكِ
وَكأن أَرْجُلُهَا القَوَانِي أَلْبَسَتْ نَعْلًا مِنَ الْمَرْجَانِ دُونَ شِرَاكِ
وَكأنهَا كُحِلَتْ بِنَارِ جَوَانِحِي فَتَرَى لِأَعْيُنِهَا لَهَبَ حَشَاكِ^(٢)

فعارضه أبو الربيع القضاعي بقصيدة مدح بها ابن واجب -أيضاً- وصف فيها الحمامة، لكنه لم يلحق في وصفها بابن اليمان، حيث قال: الكامل

زَعَمَ الْعَبِيرُ بَأَنَّهُ حَاكََاكِ كَذَبَ الْعَبِيرُ وَمَا حَكَى رِيَّاكِ
هَذَا شَمِيمُكَ فَلِهَبٍ نَسِيمُهُ حَتَّى تَبَيَّنَ مَقَالَةُ الْأَفَاكِ
وإن ادعى رِيْمُ الْفَلَاةِ بَأَنَ فِي عَيْنِيهِ لَمَحَةُ عَيْنِكَ السَّفَاكِ
فَلْيَلْتَمَحْكَ بِمَقْلَتِيهِ مِنْ أَزَلَا حَتَّى تُفْنِدَ قَوْلَةَ عَيْسَاكِ^(٣)

يقول عنه ابن بسام: «ثم خرج إلى ذكر الحمامة بوصف غير رائق استبرد فيه، ورأيت ألا أكون ممن يرويه»^(٤).

ولعل ما لم يعجب ابن بسام في شعر القضاعي هو خلو الأبيات من الحيوية

(١) انظر: البديع: ص ٥١، والجدوة: ص ٤١٣، والذخيرة: ق ١٢م، ص ٢٠٥.

(٢) الذخيرة: ق ٣م، ص ٣٤٤.

(٣) المصدر نفسه: ق ١م، ص ٣٤٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٤٥.

الشعرية، وقربها من التقريرية المباشرة في عرض الفكرة، ناهيك عن الأسلوب المنطوق والفكري الذي لجأ إليه الشاعر في المجادلة والمحااجة العقلية المستندة على التدليل والبرهنة، وهو ما يفقد الشعر كثيراً من روحه وحيويته وتأثيره، نتيجة جفافه العاطفي وخلوه من الإبداع الفني والدفق الوجداني.

وبالطبع كانت هناك نماذج معارضة للشعراء الأندلسيين توافرت فيها الشروط التي ذكرناها سابقاً، وتحققت فيها عناصر المعارضة، من حيث البحر والروي والموضوع وعنصر التفوق أيضاً، ومن ذلك ما يروي عن المعتمد بن عباد من أنه قال في جارية كان يحبها «وبينما هي تسقيه إذ لمع البرق فارتاعت: السريع

يلرعوها البرق وفي كفها برق من القهوة لماع
يا ليت شعري وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع
وأمر ابن وهب أن يعارضه، فقال:

ولن ترى أعجب من أنس من مثل ما يمك يرتاع^(١)

وقد كفانا ابن دحية التعليق على ما في قول ابن وهب من إجابة، حيث قال «وهذا من نواذر الخواطر، وليس ينكر على هذا الشاعر، فمن جودة شعره ترتيب اللفظ فيه مع جودته معانيه، أولها المطابقة بلفظتي الأنس والارتجاع، وتشبيه لمعان البرق بلمعان الخمر»^(٢) فضلاً عن اختزال معنى بيتي المعتمد في بيت واحد، ويقول صاحب البدائع «وبيته أحسن من بيت المعتمد عندي»^(٣).

(١) ديوان المعتمد: ص ٢١، والبدائع: ص ١٠٨.

(٢) المطرب: ص ١٥.

(٣) البدائع: ص ١٠٨.

البديهة والارتجال :

سوف نتناول هذه القضية، في هذا الجزء من الدراسة، باعتبارها معياراً نقدياً، ومقياساً فنياً، يجيد فيها من يجيد من الشعراء، ويخفق من يخفق، بل تعد البديهة والارتجال دليلاً على قدرة الأديب وحضور ملكته، كلما دعاها، استجابة لأي أمر من الأمور عن له وأزاد القول فيه. ولذلك رأينا النقاد والمهتمين بهذه الصناعة يشيدون بأصحاب البداهة والارتجال، ويحيون فيهم تلك المواهب وتوقد الأذهان، على اعتبار أنهم يتمتعون بحظ من الذكاء والفطنة والألمعية وبقدر من حسن التصرف غير قليل.

فقد أشاد عبدالرحمن الناصر بمنذر بن سعيد حين ألقى خطبته وقصيدته بين يدي ذلك الحفل الكبير الذي أقامه الخليفة الناصر احتفاءً بوفد روماني كبير، وقال: « لقد أحسن ما شاء، فلئن كان حبر خطبته هذه وأعداها مخافة أن يدور ما دار فتلافي الوهي فإنه لبديع من قدرته واحتياطه... ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته فإنه لأعجب وأغرب»^(١).

ويلقانا ابن عديريه بما يقرب من هذا الرأي- أيضاً- حيث يقول: « ونحن قائلون -بعون الله وتوفيقه- في الجوابات التي هي أصعب الكلام مركباً، وأوعره مطلباً، وأغمظه مذهباً، وأضيقه مسلكاً، لأن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة، واستعمال القريحة، يروم في بديهة نقض ما أبرم في روية، فهو كمن أخذت عليه الفجاجة، وسدت عليه المخارج، قد تعرض للأسنة، واستهدف للمرامي، ... فلا شيء أعضل من الجواب الحاضر»^(٢).

ويأتي بعده ناقد وأديب أندلسي، هو ابن شهيد، فيقرر أن البديهة والارتجال هي المحك الحقيقي للأديب المقتدر من الأديب المقصر، ويقرنها بسلامة الطبع، ونضوج

(١) النفح: ج ١، ص ٣٥١-٣٥٨.

(٢) العقد الفريد: ج ٤، ص ٥، ط ١، ١٩٨٩ م.

الموهبة والقريحة لدى الأديب، فهو يقول : « وإنما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز، إذا اصطكت الركب، وازدحمت الخلق، واستعمل المقال، ولم توجد فسحة لفكرة، ولا أمكنت نظرة لروية، أو في مجالس الملوك عند أنسها وراحتها، فإنه يقع فيها، ويجري لديها ما لا ينفع له إلا الاستعداد، ولا ينفذ فيه غير الطبع والغريز المتدفقة»^(١)، وقد أثبت ذلك في مواقف كثيرة، كما سنرى.

وإننا لنعجب، حين نرى أديباً تعصب لأبناء بلده كثيراً، وهو ابن بسام، يقلل من شأن الأندلسيين فيما ابتدوه وارتجلوه من أشعار، حيث يقول : « والبديهة والارتجال في هذه الأشعار الأندلسية، وإن لم تلحق بالأشعار المشرقية، ولا فيها كبير طائل، ولا تقرب مما ألصقته إليها من أشعار الأوائل، فهي نحوي في هذا المجموع الذي انتحيت، وطلقي الذي جريت، ولذلك ما أثبت مذالها ومصونها، وكتبت غثها وسميتها، والأدب طريق يستلحقها الصحيح والاجرب، وستون يتفق فيها الدر والمخشلت»^(٢).

فابن بسام، وإن كان لا يقر بالتبريز لأبناء بلده في هذا الميدان، إلا أنه يرى ما يراه غيره في البديهة، من أنها تدل على براعة واقتدار، بدليل إشادته بالمشاركة الذين برزوا فيها.

ونحن إذا ذهبنا نبحث عن الشعر المرتجل فيما أنتجه الأندلسيون من أشعار فإننا نجد «الجانب الأكبر من المقطعات الشعرية الأندلسية التي حفظتها لنا كتب الأدب إنما هي مجرد مرتجلات صدرت عن أصحابها وحي لحظتها، وهي قطع وصفية، وفي كثير من الأحيان تشبيهات مفردة»^(٣).

وابن بسام يدرك ذلك جيداً، وفي ذخيرته كثير منه، لكن ما يبدو للباحث من عدم

(١) الذخيرة: ق ١م، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) الذخيرة: ق ١م، ص ٤٤-٤٥.

(٣) الشعر الأندلسي: إميليو غوس: ص ٩٣.

رضا ابن بسام عن الشعر الأندلسي المرتجل هو أنه شعر لا يقاس بالشعر المروى ولا ير
إلى مستواه مبنى ومعنى، وسوف نتناول هذا الجانب والحديث عنه بعد أن نستعر
أنموذجات للشعر الذي قيل بديهة وأرتجالاً في المجالس الشعرية، لتتضح لنا الصورة
هذه الظاهرة الأدبية، ومدى قربها أو بعدها من الشعر المروى .

ذكرنا من قبل رأي ابن شهيد في البديهة والارتجال، وابن شهيد لو لم يكن
الأندلسيين سواء، تألق في هذا الجانب، لكفاهم ولشالوا به كفة المشاركة، فله أشد
ومقطعات قالها بديهة، ترفعه إلى مصاف الشعراء الكبار، أمثال أبي تمام والبحت
وغيرهما، وتشهد له بسرعة البديهة وحدة الذكاء والقدرة الفائقة على امتلاك أدوات
الملكة الفنية الساحرة .

فقد أورد له ابن بسام حكاية، وأشاد ببديهته الشعرية فيها، وذلك أن جماعة
أصدقائه اجتمعوا معه في مجلس، وطلبوا منه أن يصف لهم ذلك المجلس «وكان الـ
طلبه منه زبدة التعنيت؛ لأن المعنى إذا كان جلفاً ثقیلاً، على النفس، قبيح الصورة
الحسن، كلت الفكرة عنه، وإن كانت ماضيه، وأساءت القريحة في وصفه، وإن كا
محسنة، وكان في المجلس باب مخلوع معترض على الأرض، ولبد أحمر مبسوط،
صفت خفافهم عند حاشيته، فقال مسرعاً: مخلع البسيط

وفيتة كالنجوم حسناً كلهم شاعر نبيل
راموا انصرافي عن المعالي والغرب من دونها فليل
في مجلس زانه التصابي وطاردت وصفه العقول
كأنما بأبه أسير قد عرضت وسطه نصول
ينظر من لبده لدينا يحمر دم تحته يسيل
ظلت فلم تدر أين تجسري فتهي على شطة ثقیل^(١)

(١) ديوان ابن شهيد: ص ١٣٩ . والذخيرة: ق ١٤٤، ص ٤٠-٤١، والبداهة: ص ٣٠٤.

ولعل ما يلفت النظر في هذا النص هو قدرة الشاعر على وصف المجلس، على الرغم من ثقل ظله، وقد كان الشاعر ذا نفس طويل، وهو يصفه، ويرصد بعض الجوانب منه، ويضفي عليها من خياله ما يجعلها شاخصة مجسمة، ويبعث فيها العديد من الصور السمعية والبصرية والحركية، وهنا تكمن براعة ابن شهيد في هذا اللون من الشعر، حيث يستطيع برهافة حسه، ونضج طبعه، أن يلتقط الصور بسرعة فائقة، ويوجد فيما بينها علاقات، ويعرضها كما لو أنه قد فكر فيها من قبل، وقد لاحظنا له موقفاً آخر مر معنا^(١)، ظهر فيه بالمستوى نفسه، مما يؤكد طول باعه ورسوخ قدمه في هذا الفن الأدبي، وعدم لحوق غيره له فيه.

وقد كان ملوك الطوائف كثيراً ما يكلفون شعراءهم في مجالسهم بالقول في مواضع يقترحونها عليهم ليمتحنوا مواهبهم وقدراتهم على الابتداء والارتجال، فيتقدم منهم من يتقدم ويتأخر من يتأخر، ومن ذلك ما يروى عن المتوكل بن المظفر من أنه اقترح على شعرائه أن يصفوا فرسه الأغر المخجل ذا النقاط الست على كفله، فبادر إلى ذلك كل من أبي عبدالله بن عبدالبر الشتريني، وأبي بكر بن اللبانة، وأبي الوليد النحلي، وكل منهم أدلى بدلوه، إلا أن النحلي قد بذهم جميعاً، وأخذ عليهم الراية^(٢)، حيث قال: الرمل

حمل البدر جواداً سابحاً تقف الريح لأدنى مهله
لبس الليل قميصاً سابغاً فالشربا نقط في كفله
وكان الصبح قد خاض به فبدا تحجيلة من بلكه
كل مطلوب وإن طالبت به رجله من أجله في أجله^(٣)

فهذه اللوحة الشعرية البديعة قيلت من وحي اللحظة، استطاع النحلي أن يوظف

(١) انظر: ص ١٩٦ من هذا البحث.

(٢) انظر: الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٤٦٥.

(٣) المصدر نفسه والمكان ذاته.

لها كثيراً من الظواهر الطبيعية، ويرسم عليها ألوانها الزاهية، ويضفي على فرس الأمير من الصفات ما تجعله أعجوبة من العجائب وآية من آيات الكون الفريدة.

وهنا تكون البديهة معياراً نقدياً بين الشعراء، يقول حازم « وإنما يحكم بتفضيل أحد الشعارين على الآخر إذا عرف أن كليهما نظم شعره على حال واحدة من النشاط وقوة الياث وإثنياس الوقت وكانا قد سلكا مسلكاً واحداً، وذهب من المقاصد مذهباً مفرداً، أو كان مذهب أحدهما مقارباً للمذهب الآخر ومناسباً له، وكان شعرهما في عروض واحد أو كان عروضين غير بعيد نمط الكلام في أحدهما عن نمطه في الآخر، ثم يقاس ما بين الكلامين من البعد بما بين النمطين، فيظهر الترجيح أو المساواة عند ذلك»^(١).

ولننظر إلى هذه المناظرة التي جرت بين شاعرين يصفان فيها بعض الظواهر الطبيعية، بمتزجة بمشاعر وأحاسيس إنسانية، وفيها من سلاسة التعبير ودقة التصوير ما لا يخفى، يقول ابن القبطرنة: الكامل

هذي البسيطة كاعب أبرادها حلل الربيع وحلّيتها النوارُ

فقال ابن صارة :

وكان هذا الجو فيها عاشق قد شفه التعذيب والإضرارُ

ثم قال ابن صارة :

وإذا شكا فالبرق قلب خافق وإذا بكى فدموعه الأمطارُ

فقال ابن القبطرنة :

من أجل ذلة ذا وعزة هذه يبكي الغمامُ وتضحكُ الأزهارُ^(٢)

وكان الشعراء يرتجلون الشعر كلما عنت لهم مناسبة مهما كانت قيمتها، حيث

(١) منهاج البلغاء: ص ٢٧٠.

(٢) البداهة: ص ١٩٦.

يروى أن كلاً من ابن زيدون وابن خلدون وابن عمار كانوا في نزهة، فبعثوا بـغلام
ليأتيهم بـشراب، وبينما كان الغلام عائداً صدمه جواد، فتهشم رأسه وانكسر القدح الذي
كان يحمله، وعندما رأى الشعراء الثلاثة ذلك الموقف هالهم ما حدث وقالوا فيه شعراً،
فقال الأول : الوافر

أنلهو والحتوف بنا مطيفة ونأمن والمنون لنا مخيفة

وقال الثاني :

وفي يوم وما أدراك يوم مضى قمعا لنا ومضى خليفه^(١)

فقال الثالث :

هما فخارتا راح وروح تكسرتا فأشقاف وجيفة^(٢)

قد استطاع الشاعر السمسير، بحسن بديهته وسرعة خاطرته، أن ينجو من مصيوبة
محقة، وينتزع الرضا من الأمير المعتصم، ولم يحل خوفه منه دون تدفق قريحته، وقد
طلب الأمير منه أن يختار أحد أمرين : إما الإحسان إليه وإخلاء سبيله، وإما إجارته
والبقاء معه في كنفه، فقال : مجزوء التمر يج

خيرني المعتصم وهو بقصدي أعلم

وهو إذا يجمع لي أمنا ومنأ أكرم^(٣)

وقد قيل : إن « أفضل البديهة بديهة أمن وردت في موضع خوف »^(٤).

(١) القمعال : القدح، انظر : اللسان : مادة : قمعل، وخليفة : اسم الغلام.

(٢) البداهة : ص ٢٢٦.

(٣) النفع : ج ٤، ض ٣٧٠.

(٤) العملة : ج ١، ص ٣٥٣.

ظاهرة البديهة والارتجال وموقف الشعراء والنقاد منها :

لقد رأينا، فيما سبق، رأي ابن شهيد في البديهة والارتجال، وتعويله عليها، حيث عدّها مقياساً لسلامة الطبع ورهافة الحس، ومعيّاراً للبراعة وتدقيق الغريزة، وأنها محكّ للشعراء يظهر بها المقصر من المبرز.

ونحن لا نستطيع أن ننكر ما يتمتع به المرتجلون والمبتدّهون من نصيب غير قليل من الألمعية والفتنة والذكاء، فيما يأتون به من إجابات مذهلة تجعلنا نسلم لهم بذلك الذكاء المتميز والقدرة على الجواب الحاضر عند كل مناسبة^(١).

ولكن هناك حقيقة ينبغي أن نسلم بها، وهي خلو الشعر المرتجل من أمور جوهرية ينهض بها الشعر المروى من قبل شعراء ماهرين في هذه الصناعة، وتلك الأمور تكمن في الجوانب الجمالية والصور الفنية، ومثانة الأسلوب وقوته، وجلال المعنى وعمقه، وإن كنا قد رأينا شيئاً منها في الشعر المرتجل، لكنها تظل دون المستوى، وقد أشار إلى ذلك النقاد، ومنهم حازم القرطاجني، أثناء حديثه عن الشعر المروى والشعر المرتجل، حيث يذهب إلى القول بأن الشعر المرتجل يخلو من تأنق الشعر المروى، ويقبل كثيراً مما لا يقبله الشعر المذهب المنقح لضيق الوقت عليه واتساعه للشعر المروى^(٢).

وقد سبق ابن رشيّق حازماً في هذا الرأي، وإن كان لا يصرح به، فهو يقول :

« والشاعر الحاذق المبرز إذا صنع البديهة قنع منه بالعفو الهين، والتزّز التافه، لما فيها من المشقة، وهو في الارتجال أعذر»^(٣).

وربما يكون ذلك هو السبب نفسه الذي دفع ابن بسام إلى عدم رضاه عن الشعر الأندلسي المرتجل، حيث لم ير فيه طائلاً^(٤).

(١) انظر: على سبيل المثال: الجذوة: ص ٢٥٩، والبداهة: ص ٨٣-٨٤، والعمد: ج ١، ص ٣٥٥.

(٢) انظر: منهاج البلغاء: ص ٢١٣ (بتصرف).

(٣) العمدة: ج ١، ص ٣٦٠.

(٤) انظر: ص ٢٥٣ من هذا البحث.

وقد كان ابن عمار من بين الشعراء الأندلسيين يتحاشى قول الشعر المرتجل، وقد عبر عن منهجه ذاك حين رفض أن يرد على دعوة ابن رزين له في التو واللحظة، وأرجأ الرد عليها إلى وقت آخر، فقد روي عنه أنه كان « يعاني قوله ويعلله، ويرويه ولا يرتجله، ويقول في المدة، والساعات الممتدة »^(١)، وأتى بالرد في اليوم التالي بأعذب الألفاظ وأرق المعاني^(٢).

وهذا موقف نقدي من شاعر كبير مثل ابن عمار، فهو يرى جودة الشعر في الشعر المروي لا المرتجل، وإن كنا قد رأينا له أشعاراً مرتجلة^(٣)، لكنه لا يثمنها كما يثمن الشعر المروي، بدليل موقفه السابق، لذلك استبعدنا ما روي عنه من أنه كان مع المعتمد، ولم يستطع الإجازة حين طلب المعتمد منه ذلك، وقد رويت تلك الحكاية بروايات متضاربة، مما يؤكد عدم صحة نسبتها إليه^(٤).

فقد كان ابن عمار يؤمن، كما يؤمن كثير من النقاد والشعراء، بأن البيت من الشعر كالبيت من الأبنية: قراره الطبع، وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدربة^(٥).

ولذلك كان الملك المظفر صاحب بطليوس يرفض هذا النوع من الشعر ولا يقبل به، وينكره على قائله؛ ويؤمن بالشعر القائم على إعمال الفكر وعمق التجربة وبعد الرؤية وحسن المرض^(٦).

وقد كان الشعراء المشارقة أنفسهم لا يرون في الشعر المرتجل نضوجاً، وأنه أكثر عرضة للزلل والخطأ، يقول ابن الرومي: البسيط

(١) النفح: ج ٢، ص ١٩٦-١٩٧.

(٢) انظر: المطرب: ص ٣٩، وانظر: ص ٧٥ من هذا البحث.

(٣) انظر: البدائنه: ص ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢.

(٤) انظر: النفح: ج ٦، ص ٥٩، ج ٥، ص ١٤٣.

(٥) انظر: الوساطة، ص ١٥، والعمدة: ج ١، ص ١٢١.

(٦) انظر: الذخيرة: ق ٢م ١، ص ٦٤١.

وللسبديّة نار ذات تلوح

لكنه عاجل يأتي مع الريح^(١)

نار الروية نار جد منضجة

وقد يفضلها قوم لعاجلها

ويقول ابن المعتز : الكامل

شأن بين روية وبديه^(٢)

والقول بعد الفكر يؤمن زيفه

(١) ديوان ابن الرومي: ج ٢، ص ٥٦٧.

(٢) ديوان ابن المعتز: دراسة وتحقيق يونس أحمد السامرائي، منشورات وزارة الإعلام، العراق، ١٩٧٧م، ج ٣، ص ٣٩٤.

الخاتمة

هناك جملة من النتائج التي خرجت بها الدراسة من هذه الظاهرة الأدبية، ففي التمهيد كشفت الدراسة، من خلال التجول الذي قام به الباحث في بلاطات الأمراء، عن رؤية واضحة للمكانة العظيمة التي كان الأدب يحظى بها، وخاصة الشعر، في تلك البلاطات إلا قليلاً منها، وأبرزت الدراسة صوراً متباينة لما كان يلقاه الأدب من رعاية واهتمام من قبل أمراء الطوائف، حيث بدت صورة الأدب في بلاط بني عباد متألفة زاهية مشرقة، وكذلك كانت في بلاط بني صمادح، ثم تضاءلت الصورة في غير هذين البلاطين واضمحلت شيئاً فشيئاً؛ لتصل إلى الخفوت والانطفاء تماماً في بلاط بني زيري في غرناطة.

وقد أشارت الدراسة إلى أن ذلك يرجع إلى قوة الخس العربي عندنا أولئك وضعفه عند هؤلاء، وفي بعض الحالات قد لا يكون السبب هذا أولاً ذاك، وإنما يرجع إلى ضعف الحوافز وقلة الرعاية من لدن الأمراء للشعراء، كما هو الحال عند بني ذي النون في طليطلة وبني جهور في قرطبة.

أما الفصل الأول من الباب الأول فقد كشفت الدراسة فيه عن كثير من القضايا المتعلقة بظاهرة المجالس الشعرية وطبيعتها، حيث تطرقت إلى تحديد المفهوم اللغوي والاصطلاحي للفظ «مجلس» وبيّنت الفرق بين هذه اللفظة وما يرادفها من ألفاظ أخرى، وانتهت إلى أن لفظة «مجلس» أكثر شمولاً في الدلالة وملاءمة لذلك النشاط الذي كان يجري فيها ويحصل منها.

كما تمت الإشارة إلى أنواع المجالس الشعرية، والتي انحصرت في ثلاثة أنواع، فهناك المجالس الرسمية والمجالس شبه الرسمية التي تنعقد عادة بمعية الأمراء، والمجالس العامة التي يعقدها الشعراء فيما بينهم، والمجالس المتخيلة، وقد كشفت الدراسة عن

ماهية هذه المجالس وطبيعتها خاصة المجالس الرسمية التي كانت تتسم بالطابع الإداري المنظم، حيث كانت تنعقد فيما كان يعرف بـ«ديوان الشعراء»، في يوم مخصوص من أيام الأسبوع، يتفرغ فيه الأمير للالتقاء بالشعراء والاستماع إليهم، ولذلك الديوان رئيس يتدب من قبل الأمير، توكل إليه مهمة تنظيم الجلسات الأسبوعية، والإشراف على شؤون الشعراء ومتابعة حقوقهم، ولهذا الديوان شروط ينبغي توافرها فيمن يود الالتحاق به، يأتي في مقدمة تلك الشروط الإجابة في الشعر.

وقد كشفت الدراسة عن عدد من التقاليد التي كانت متبعة في تلك المجالس الشعرية عند انعقادها، فقد كان الشعراء يدعون إليها بواسطة بطاقات شعرية متضمنة الدعوة، وهذه البطاقة قد يحررها شخص أو أشخاص، وعلى المدعو أن يرد على تلك الدعوة شعراً بالإيجاب أو الاعتذار، ملتزماً فيها بالبحر والقافية وعدد الأبيات أحياناً.

ومن التقاليد - أيضاً - إنشاد الشعر بين يدي الأمير من وراء ستارة، فإذا أعجب الأمير بالشعر يأمر برفع الحجاب عن الشاعر، بالإضافة إلى غير ذلك من التقاليد كالاستئذان للشعراء بالدخول على الأمير والظهور بزيئة تلائم مجالس الأمراء، وتضفي عليها جمالاً وجلالة ومهابة.

أما الفصل الثاني من هذا الباب فقد كشفت الدراسة فيه عن طبيعة حياة الشعراء قبل وبعد البلاط، وعلاقة هؤلاء الشعراء بالأمراء، والتي كانت لا تخرج عن علاقة المصالح المشتركة المتبادلة إلا اليسير النادر منها، وقد أظهرت الدراسة ما تكبدته هذه الطائفة من مشاق وصعوبات، وهي تكافح في سبيل الوصول إلى بلاطات الأمراء، بحثاً عن حياة أهنا وأرغد وأخصب وأكثر استقراراً، بدلاً من حياة التخبط والمغامرات وإراقة ماء الوجه لدى من لا يقدر عملها.

وقد تحقق للبعض منها شيء من ذلك، لكن البعض الآخر اصطدم بواقع مر، لم يكن سببه أصحاب البلاطات بقدر ما كان نابعاً من سلوك الشعراء أنفسهم، حيث كان

الصراع بينهم داخل البلاطات قائماً على أشده، وكان داء الغيرة والحسد والتنافس يذكي من جذوة ذلك الصراع، ويؤجج من لهيبه، وكانت الحرية التي يتمتع بها الشعراء في مجالس الأمراء تسمح لهم بتلك المواجهات المستعرة، وكان الأمراء يستمتعون بتلك المواجهات، وأحياناً يتدخلون في فض نزاعها والحكم فيها، وأحياناً يكون الأمير نفسه خصم هذا الشاعر أو ذاك مما قد يجعل الشاعر يدفع حياته ثمناً لتهوره وعدم مبالاته، أو هجر البلاط والانكفاء على وجهه والضرب في أرجاء الأرض بحثاً عن الرزق.

كما أظهرت الدراسة في هذا الفصل الدور العظيم الذي كان يقوم به الشعراء تجاه هؤلاء الأمراء كإصلاح ذات البين من خلال السفارات التي كانوا يقومون بها فيما بينهم، وإزالة ما يعكر من صفو العلاقات وإصلاح ما يتصدع منها ومد جسور المودة والمحبة بينهم، من خلال قيثاره الشعر وسحر بيانه وجاذبية بلاغته وحلاوة وقعه على النفوس، ولهذا السبب تخير الأمراء لسفاراتهم شعراء ذوي ذكاء وبيان وقوة عارضة، تستطيع تحقيق المهام الموكلة إليها على أحسن وجه.

وفي الفصل الأول من الباب الثاني تعرضت الدراسة لتحليل مضامين شعر المجالس والتي درست تحت غرض واحد هو غرض الوصف، حيث لوحظ أن جل مضامين شعر المجالس جاء وصفاً إما للممدوح، وإما للأحداث السياسية والمناسبات الاجتماعية، وإما للطبيعة والخمرة، وإما للمظاهر العمرانية والأدوات الحضارية، وإما لمجالس الغناء والطرب، وهي تكاد لا تخرج عن ذلك، وقد أظهر التحليل لمضامين شعر المجالس عدداً من الأبعاد الموضوعية التاريخية والأبعاد الفنية الذاتية، أما البعد الموضوعي التاريخي فيكمن في التوثيق والتخليد للأحداث والمناسبات ولأصحابها، وإبراز كثير من الظواهر الاجتماعية والملامح الحضارية لفترة زاهية من فترات تاريخ أمتنا الإسلامية التي أسهمت بدور ترك بصمات حية شاهدة على رقي تلك الأمة من خلال نشاطها الفكري والحضاري، في الأندلس، الفردوس المفقود.

ذلك كان من الناحية الموضوعية، أما من الناحية الفنية، فقد بدا شعر المجالس في

الأعم الأغلب منه شعراً غير ناضج في تجربته وغير عميق في مضامينه الفكرية، مفتقراً إلى خصوصية الخيال وحرارة الشعور والوجدان، ويرجع السبب في ذلك أولاً إلى أن معظم هذا الشعر شعر مديح وتكسب، وثانياً إلى طبيعة ذلك الشعر وطبيعة المواقف التي كان يقال فيها، فقد كان معظم ذلك الشعر يقال بديهة وارتجالاً، تولده الظروف وتقتضيه المواقف، فهو ابن ساعته ووحى لحظته، وذلك الأمر لا يقدر في شاعرية أولئك الشعراء ولا يقلل من مواهبهم الإبداعية، فقد جاء ذلك الشعر العفوي السهل يحكي بساطة الحياة وسماحتها، وعفوية تلك المجالس ومرحها، فلا غرابة أن تنطلق الألسن على سجيتها وتأتي بأشعار هي إلى الوصف والرصد والتسجيل أقرب منه إلى التصوير .

وفي الفصل الثاني من هذا الباب، كشفت الدراسة عن عدد من القضايا المتعلقة بالتشكيل البنائي وعدد من القضايا النقدية والملاحظات الأدبية: لشعر المجالس، فمن حيث البناء تطرقت الدراسة إلى قضيتين ذاتي علاقة بالمجالس الشعرية، وهما: فن الرسالة الشعرية وفن الإجازة، فقد كانت الرسالة الشعرية تبنى بناء خاصاً، وفق ضوابط معينة وقواعد مرعية ومتبعة، يكاد يلتزم الجميع بها، من حيث ألفاظها ومعانيها وعروضها وقافيتها وعدد أبياتها وزمن كتابتها وغير ذلك مما يتعلق بها، وقد كشفت الدراسة عن الأبعاد الاجتماعية والنفسية والأدبية التي كانت تحمل الرسالة الشعرية دلالاتها وتنطوي عليها.

أما الإجازة الشعرية فقد كانت فناً حيويّاً يحتل مكانة مرموقة في المجالس الشعرية خاصة، وفي الأوساط الأدبية عامة، وتكشف عن مقدرة الشاعر ومواهبه الإبداعية، حيث يُحمل الشاعر المجاز على القول في موضوع معين وعروض محدد لم يكن مخيراً -فيهما- ويطلب منه القول فيهما بديهة وارتجالاً، وهو -لا شك- محك تحقيقي يظهر فيه المبرز من المقصر.

ومن حيث القضايا النقدية، فقد وقفت الدراسة على عدد منها كان يثار في

المجالس، وكشفت الدراسة عن نوعين من النقد: النقد الانطباعي والنقد المنهجي، وقد كان النقد الانطباعي الذاتي، على الرغم من أحكامه العامة والمجملّة، لا يخلو من النظرات البعيدة والعميقة والدالة على فهم الشعر وتذوقه.

أما النقد المنهجي القائم على التحليل والتعليل فقد كشفت عنه الدراسة من خلال تتبع تلك الملاحظات والآراء النقدية التي كانت تتعقب الشعر وتكشف عما فيه من حسن أو قبح، بالأدوات الممكنة والمتاحة.

وقد كانت الألفاظ والمعاني في مقدمة المجالات النقدية التي تناولها النقاد في المجالس الشعرية، وتأتي بعدها قضية السرقات والمعارضات الشعرية، والبديهة والارتجال باعتبارها معياراً نقدياً.

ولعل ما يؤخذ على النقد -عموماً- في تلك المجالس أن معظمه كان عفويّاً ساذجاً وأنه كان يتجاوز حدود الموضوعية إلى الأغراض الذاتية والمصالح الشخصية.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- آثار البلاد وأخبار العباد/ القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ)، دار صادر، بيروت.
- ٣- الإحاطة في أخبار غرناطة/ لسان الدين بن الخطيب: أبو عبدالله محمد بن سعيد (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق محمد عبدالله غنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٣م.
- ٤- أخبار وتراجم أندلسية/ السلفي: أبو طاهر أحمد بن محمد (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣م.
- ٥- أزهار الرياض في أخبار عياض/ المقرئ: شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، طبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٧٨م.
- ٦- أساس البلاغة/ الزمخشري: جابر الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق عبدالرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢م.
- ٧- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى/ الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد بن حماد الدرعي السلاوي (ت ١٣١٥هـ)، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري (ولدا المؤلف)، مطبعة دار الكتب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.
- ٨- أسرار البلاغة في علم البيان/ الجرجاني: عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد (ت ٤٧٤هـ)، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية، ط ٢.
- ٩- أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام/ لسان الدين بن الخطيب: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق وتعليق أ. ليثي بروفسال، دار المكشوف، بيروت، ط ٢، ١٩٥٦م.
- ١٠- الأغاني/ الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ)، الدار التونسية، تونس، طبعة ١٩٨٣م.
- ١١- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس/ ابن أبي زرع: علي بن عبدالله بن أبي الفاسي (ت ٧٢٦هـ)، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢م.
- ١٢- بدائع البدائنه/ الأزدي: أبو الحسن علي بن ظافر (ت ٦١٣هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ١٣- البديع في وصف الربيع/ أبو الوليد الحميري: إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الإشيلي (ت ٤٤٠هـ)، تحقيق عبدالله عبدالرحيم عسيلان، دار المدني، جدة، ط ١، ١٩٨٧م.

- ١٤- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس/ الضبي: أحمد بن يحيى بن عميرة (ت ٥٩٩هـ)، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ١٥- بغية الرعاة في طبقات اللغويين والنحاة/ السيوطي: جلال الدين بن عبدالرحمن (ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٧٩م.
- ١٦- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب/ الألويسي: محمود شكري الألويسي البغدادي (ت ١٢٧٣هـ)، عنى بشرحه ونصحيه وضبطه محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٧- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب/ ابن عذارى: أبو عبدالله بن محمد المراكشي (ت ٦٩٥هـ)، تحقيق أ. ليثي بروفسال، دار المكشوف، بيروت، ط ٢، ١٩٥٦م.
- ١٨- البيان والتبيين / الجاحظ: أبو عثمان عمر بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق حسن السنوسي، المكتبة التجارية الكبرى، ط ٢، ١٩٣٢م.
- ١٩- الناج في أخبار الملوك/ الجاحظ: عمر بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٥م.
- ٢٠- تاريخ الأندلس/ ابن الكردبوس: عبدالله بن الكردبوس التوزري (ت ٥٧٥هـ)، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١م.
- ٢١- تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر/ عبدالرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، ضبط المتن ووضع الحواشي خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨م.
- ٢٢- التكملة لكتاب الصلة/ ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي (ت ٦٥٨هـ)، عنى بنشره وصححه ووقف على طبعه عزت العطار الحسيني، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ٢٣- الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ)، دار إحياء التراث العربية، بيروت، ١٩٦٦م.
- ٢٤- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس/ الحميدي: أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي (ت ٤٨٨هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.
- ٢٥- جمهرة أنساب العرب/ ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط ٥، ١٩٨٢م.
- ٢٦- جيش التوشيح/ لسان الدين بن الخطيب: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق وتقديم هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس، ١٩٦٧م.
- ٢٧- الحلة السيرة/ ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ)، تحقيق حسني

- مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٥ م.
- ٢٨- خلية المحاضرة في صناعة الشعر، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨ م.
- ٢٩- الحيوان / الجاحظ: أبو عمر عثمان بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ٢، ١٩٦٧ م.
- ٣٠- خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس/ العماد الأصفهاني: أبو محمد صفي الدين عبدالله بن محمد (ت ٥٦٧هـ)، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبدالعظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٦٩ م.
- ٣١- دلائل الإعجاز/ الجرجاني: عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد (ت ٤٧٤هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤ م.
- ٣٢- ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ١٩٨٣ م.
- ٣٣- ديوان الأسود بن يعفر، صنعه نوري حمودي القيسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٦٨ م.
- ٣٤- ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٩٦٣ م.
- ٣٥- ديوان ابن الحداد الأندلسي (ت ٤٨٠هـ)، تحقيق يوسف قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م.
- ٣٦- ديوان ابن حمديس الصقلّي (ت ٥٢٧هـ)، صححه وقدم له إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠ م.
- ٣٧- ديوان ابن خفاجة: أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي (ت ٤٥٦-٥٣٣هـ)، تحقيق سيد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط ٢، ١٩٧٩ م.
- ٣٨- ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق محمود علي مكّي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ط ١، ١٩٦١ م.
- ٣٩- ديوان ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ)، عبدالرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩ م.
- ٤٠- ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق علي عبدالعظيم، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧ م.
- ٤١- ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه يعقوب زكي، راجعه محمود علي مكّي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
- ٤٢- ديوان ابن المعتز، دراسة وتحقيق يونس أحمد السامرائي، منشورات وزارة الإعلام، العراق، ١٩٧٧ م.

- ٤٣- ديوان ابن نباتة/ السعدي: أبو نصر عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن أحمد (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق عبدالأمين مهدي حبيب الطائي، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ٤٤- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيدي حنفي حسنين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م.
- ٤٥- ديوان الخطيئة، برواية وشرح ابن السكيت، (ت ٢٤٦هـ)، تحقيق نعمان محمد أمين طه، مكتبة الحانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٨٧م.
- ٤٦- ديوان الرصافي البلنسي أبو عبدالله محمد بن غالب (٥٧٢هـ)، جمعه وقدم له إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٦٠م.
- ٤٧- ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق علي حسن فاغور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٨م.
- ٤٨- ديوان الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.
- ٤٩- ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلام الشتمري (ت ٤٧٦هـ)، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٥م.
- ٥٠- ديوان المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، المسمى بـ: «البيان في شرح الديوان»، دار المعرفة، بيروت.
- ٥١- ديوان مجنون ليلى، يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.
- ٥٢- ديوان امرئ القيس بشرح أبي سعيد السكري (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق محمد الشوابكة وأنور أبو سويلم، دار عمار، ط ١، ١٩٩٨م.
- ٥٣- ديوان المعتمد بن عباد، تحقيق أحمد بدوي، وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميرية، القاهرة.
- ٥٤- ديوان الموشحات، تحقيق سيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩م.
- ٥٥- ديوان النابغة الذبياني، راجعه ونقحه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية، تونس، ١٩٧٦م.
- ٥٦- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام: أبو الحسن علي الشتريني (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٥٧- ذيل الأمالي والنوادر/ القالي: راجعته لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق، دار الجيل، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧م.
- ٥٨- ذيل الأمالي/ القالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
- ٥٩- رايات المبرزين وغايات المميزين / ابن سيعد: علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك (ت ٦٧٥هـ)، تحقيق النعمان عبدالمتعال القاضي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى

٦٠- روضة الفصاحة/ الرازي: زين الدين محمد بن أبي بكر (ت ٦٦٦هـ)، تحقيق أحمد النادي شغلة، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط ١، ١٩٨٢م.

٦١- الروض المعطار في خبر الأقطار/ الحميري: أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤م.

٦٢- زاد المسافر وغرة محبب الأدب السافر/ أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسى (ت ٥٩٨هـ)، عده وعلق عليه عبدالقادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م.

٦٣- شرح القصائد العشر/ التبريزي: أبو زكريا يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.

٦٤- شعر ابن اللبانة، جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد، منشورات جامعة البصرة، ١٩٧٧م.

٦٥- الشعر والشعراء/ ابن قتيبة: عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨م.

٦٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء/ القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)، زيادة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٦٣م.

٦٧- الصحاح/ الجوهري: إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤.

٦٨- الصلة/ ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ)، تحقيق إبراهيم الإياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط ١، ١٩٨٩م.

٦٩- طبقات فحول الشعراء/ الجمحي: محمد بن سلام (ت ٢٣١هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م.

٧٠- طوق الحمامة في الألفة والآلاف/ ابن حزم الأندلسي: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ)، ضبط نصه وحرر هوامشه الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧م.

٧١- العقد الفريد/ ابن عبدربه الأندلسي: أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م.

٧٢- العملة في مجاسن الشعر وآدابه ونقده/ ابن رشيق: أبو علي الحسن القيرواني (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق محمد قرقران، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م.

٧٣- عيار الشعر/ ابن طباطبا: أبو الحسن محمد بن أحمد العلوي (ت ٣٢٢هـ)، تحقيق عبدالعزيز

ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥م.

٧٤- عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦م.

٧٥- العين/ الفراهيدي: أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ)، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ٢، ١٩٨٦م.

٧٦- فصل المقال في كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري، تحقيق إحسان عباس، وعبدالمجيد عابدين، دار الأمانة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣م.

٧٧- فن الشعر/ أرسطو: ترجمة وتحقيق عبدالرحمن بدوي، دار القاهرة، بيروت.

٧٨- فوات الوفيات/ الكتبي: محمد بن شاعر (ت ٧٦٤هـ)، أعدها وداد القاضي وآخرون، إشراف إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م.

٧٩- قراضة الذهب في نقد أشعار العرب / القيرواني: أبو علي الحسن بن رشيق (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق الشاذلي بويحيى، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٢م.

٨٠- قلائد العقيان/ ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله القيسي الإشبيلي (ت ٥٢٩هـ)، تحقيق حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الأردن، ط ١، ١٩٨٩م.

٨١- الكامل في التاريخ: ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم: محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني الجزيري (ت ٦٣٠هـ)، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.

٨٢- كتاب الأمالي/ القالي: أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي (ت ٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت.

٨٣- كتاب الصناعتين (الكتابة والشر)، أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م.

٨٤- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون/ حاجي خليفة: مصطفى بن عبدالله (ت ١٠٦٧هـ)، دار الفكر، ١٩٨٢م.

٨٥- لسان العرب/ ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت.

٨٦- ما يحتمل الشعر من الضرورة/ السيرافي: أبو سعيد (ت ٣٦٨هـ)، تحقيق عوض القوزي، جامعة الملك سعود، الرياض، ط ٢، ١٩٩١م.

٨٧- ما يجوز للشاعر في الضرورة/ القزاز القيرواني: أبو عبدالله محمد بن جعفر القزاز التميمي،

(ت ٤١٢هـ)، تحقيق رمضان عبدالتواب وصلاح الدين الهادي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢م.

٨٨- مجمع الأمثال/ الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت ٥١٨هـ)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥م.

٨٩- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٩٠- المختار من شعر بشار/ التجيبي: إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله، نسخ وتصحيح وتعليق وتخريج محمد بدر الدين العلوي، مطبعة الاعتماد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة عليكرة، ١٩٣٤م.

٩١- المختار من شعر شعراء الأندلس/ ابن الصيرفي: علي بن منجب بن سليمان أبو القاسم (ت ٥٤٣هـ)، تحقيق عبدالرزاق حسين، دار البشير، عمان، ط ١، ١٩٨٥م.

٩٢- مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بني زيري بفرنطة (ت ٤٨٣هـ)، نشر وتحقيق أ. ليفي بروفسال، دار المعارف بمصر، ١٩٥٥م.

٩٣- المطرب من أشعار أهل المغرب/ ابن دحية: ذو النسبين أبو الخطاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣هـ)، تحقيق إبراهيم الإياري وآخرين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٥م.

٩٤- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس/ ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد ابن عبدالله القيسي الإشبيلي (ت ٥٢٩هـ)، دراسة وتحقيق محمد علي الشوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.

٩٥- المعجب في تلخيص أخبار المغرب/ المراكشي: عبدالواحد بن علي التميمي (ت ٦٤٧هـ)، تحقيق محمد علي العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٣م.

٩٦- معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب/ ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبدالله ابن عبدالله الرومي، الحموي، (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٣م.

٩٧- معجم البلدان/ ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م.

٩٨- معجم البلدان: الحموي: شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي البغدادي (ت ٦٢٩هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م.

٩٩- معجم مقاييس اللغة/ ابن فارس: أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٦٩م.

- ١٠٠- المعيار في نقد الأشعار/ جمال الدين الأندلسي: أبو عبدالله محمد بن أحمد، (ت٧٨٠هـ)، تحقيق عبدالله هندأوي، مطبعة الأمانة، مصر، ١٩٨٧م.
- ١٠١- المغرب في حلى المغرب/ ابن سعيد: علي بن موسى بن عبدالملك (ت٦٨٥هـ)، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م، وطبعه ١٩٥٥م.
- ١٠٢- منهاج البلغاء وسراج الأدباء/ أبو الحسن حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ)، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.
- ١٠٣- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب/ المقرئ: أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤١هـ) شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له مريم قاسم طویل ويوسف علي طویل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- ١٠٤- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب/ المقرئ: أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤١هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
- ١٠٥- نقد الشعر / قدامه: أبو الفرج بن جعفر بن قدامه بن زيادة (ت٣٣٧هـ)، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٧٨م.
- ١٠٦- الوافي بالوفيات/ صلاح الدين الصفدي: خليل بن أيك (ت٧٦٤هـ)، باعتهاء محمد يوسف نجم، دار النشر، فرانز شتايز بفيسادن، ط٢، ١٩٨٢م.
- ١٠٧- الوساطة بين المتنبئ وخصومه/ الجرجاني: القاضي علي بن عبدالعزيز (ت٣٦٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار القلم، بيروت، ١٩٦٦م.
- ١٠٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- ١٠٩- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر / الثعالبي: أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل (ت٤٢٩هـ)، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

ثانياً: المراجع:

- ١- الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧هـ)، منجد مصطفى بهجت، جامعة الموصل، ١٩٨٧م.
- ٢- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز القيسي، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٨٩م.
- ٣- الأدب العربي في الأندلس، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦.
- ٤- الأدب العربي في جزر البليار، عبدالرزاق حسين، دار الجيل للنشر، عمان، ط١، ١٩٩٤م.
- ٥- الأسر الحاكمة في الإسلام، كليفورد بوزورث، ترجمة حسين علي اللبودي، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط١، ١٩٩٤م.
- ٦- الأسس النفسية للإبداع الفني، عبدالعزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- ٧- الأسس الفنية للإبداع الأدبي في الشعر خاصة، مصطفى سريف، دار المعارف، مصر ط٣، ١٩٦٩م.
- ٨- أسس النقد الأدبي عند العرب، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٨٩م.
- ٩- أسواق العرب، سعيد الأفغاني، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٦٠م.
- ١٠- إشبيلة في القرن الخامس الهجري، صلاح خالص، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ١١- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٨، ١٩٨٩م.
- ١٢- أعمال الملتقي الرابع الإسباني التونسي، تأليف بالماضي ميورقة، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٣م.
- ١٣- بلاغة العرب في الأندلس، أحمد ضيف، مطبعة مصر، ط١، ١٩٢٤م.
- ١٤- ابن بسام وكتابة الذخيرة، حسين خريوش، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٤م.
- ١٥- ابن شرف القيرواني، محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣م.
- ١٦- ابن شرف القيرواني (حياته وأدبه)، حلمي إبراهيم الكيلاني، مؤسسة البلمس للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٨م.
- ١٧- البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر الطوائف، سعد إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٨م.
- ١٨- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٨، ١٩٩٦م.
- ١٩- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٧، ١٩٦٢م.

- ٢٠- تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات (الأندلس) شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.
- ٢١- تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
- ٢٢- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، دار الأندلس، بيروت.
- ٢٣- تاريخ الفكر الأنديلسي، جثالث بالثيا، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٩٥٥م.
- ٢٤- تاريخ المعارضات في الشعر العربي، محمد محمود قاسم نوفل، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
- ٢٥- تاريخ النقائض في الشعر العربي القديم، أحمد الشايب، طبعة السعادة، بمصر، ١٩٥٤م.
- ٢٦- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨١م.
- ٢٧- تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
- ٢٨- تاريخ النقد الأدبي في الأنديلس، محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.
- ٢٩- التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأنديلسي، حسن أحمد النوش، دار الجليل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
- ٣٠- تيارات النقد الأدبي في الأنديلس في القرن الخامس الهجري، مصطفى عليان عبدالرحيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
- ٣١- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأنديلسية، شبيب أرسلان، المطبعة الرحمانية، بمصر، ١٩٣٦م.
- ٣٢- الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلفية مع الصليبيين، عمر كمال توفيق، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د٠ت).
- ٣٣- دراسات أدبية في الشعر الأنديلسي، سعد إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٣م.
- ٣٤- دراسات في الأدب الأنديلسي، إحسان عباس وآخرون، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط٢، ١٩٧٨م.
- ٣٥- دراسات في الشعر الجاهلي، أنور أبو سويلم، دار عمار، عمان.

- ٣٦- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المراتبي، محمد عبدالله عنان، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٩م.
- ٣٧- رسالة «التوابع والزوابع»، ابن شهيد الأندلسي، دراسة في الرؤية الأدبية وفلسفة الإبداع، جسين خريوش، عمان، ط١، ١٩٩٠م.
- ٣٨- سلسلة محاضرات عامة في الأدب الأندلسي وتاريخه، أ. ليفي بروفنسال، ترجمة محمد عبدالهادي شعيرة، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥١م.
- ٣٩- الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، إميليو غرسيه غومث، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٩م.
- ٤٠- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، هنري بيريس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.
- ٤١- شعر الطبيعة في الأدب العربي، سيد نوفل، طبعة مصر، ١٩٤٥م.
- ٤٢- الشعراء النقاد، وليد محمد خالص، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٩٨٦م.
- ٤٣- شياطين الشعراء، عبدالرزاق حميدة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦م.
- ٤٤- ظهر الإسلام، أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٥٣م.
- ٤٥- علم البديع، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥م.
- ٤٦- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٩، ١٩٧٦م.
- ٤٧- في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، بيروت.
- ٤٨- في الأدب الأندلسي، جودة الركابي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦م.
- ٤٩- في محراب المعرفة، تحرير إبراهيم السعافين، مطابع دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- ٥٠- في النقد الأدبي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م.
- ٥١- لغة العرب، معجم مطول للغة العربية ومصطلحاتها الحديثة، جورج ميتري عبدالمسيح، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- ٥٢- مجاهد العامري، تأليف كليلا سارنللي تشركو، طبع لجنة البيان العربي، ط١، القاهرة، ١٩٦١م.
- ٥٣- المعارضات الشعرية (أنماط ونجارب)، عبدالله التطاوي، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٨م.

- ٥٤- المعتمد بن عباد، علي أدهم، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت.
- ٥٥- المعتمد بن عباد، الملك الجواد الشجاع المرزأ، عبدالوهاب عزام، دار المعارف، بصر، ١٩٥٩م.
- ٥٦- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، ط٢، ١٩٨٤م.
- ٥٧- المعجم المفصل في اللغة والأدب، ميشال عاصي، دار العلم للملايين، بيروت.
- ٥٨- المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، استانبول، القاهرة، ط٢، ١٩٧٢م.
- ٥٩- ملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح، مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- ٦٠- الملوك الشعراء، جبرائيل سليمان جبور، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
- ٦١- من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، محمد خلف الله أحمد، معهد البحوث والدراسات الأدبية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٠م.

- ٦٢- الموازنة بين الشعراء، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- ٦٣- موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٥م.
- ٦٤- النقد الأدبي في كتاب نفع الطيب، هدى شوكة بهنام، دار الرائد العربي، بيروت.
- ٦٥- النقد الأدبي في المغرب العربي، عبدالعزيز قلقيلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٨م.
- ٦٦- النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، دار نهضة مصر.

ثالثاً: الرسائل الجامعية

- ١- الحياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مصطفى البشير قط، جامعة الجزائر، رسالة ماجستير، مخطوطة، ١٩٩٣م.
- ٢- الشعر الاجتماعي في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف، محمد مولود خلف المشهداني، الجامعة المستنصرية، رسالة دكتوراه، مخطوطة، ١٩٩٠م.
- ٣- المجالس الأدبية في صدر الإسلام وعصر بني أمية، أحمد عبدالمنعم الخلو، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ١٩٨٢م.

رابعاً - المقالات

١- «أخبار الغناء والمغنين في الأندلس» (١٣٨-٥٣٩هـ)، إحسان عباس، مجلة البحوث، الجامعة الأمريكية، بيروت، العدد ١٦، الجزء الأول.

٢- «الحالة السياسية في الأندلس في عهد دويلات الطوائف»، عبد الجليل الراشد، مجلة المورد، م ١، ج ٣، العدد ٤، ١٩٧٤م، ص ٥٥-٦٦.

٣- «الفنون الشعبية في الأندلس الإسلامية»، صلاح جرار، مؤنة للبحوث والدراسات، المجلد التاسع، العدد الأول، ١٩٩٤م، من ٩١-١٤٣.

٤- «مجالس المنصور بن أبي عامر وأثرها في الشعر بقرطبة»، حلمي إبراهيم عبدالفتاح الكيلاني، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، عدد ٢٣، ١٩٩٢م.

٥- «موقف القواد العرب من ظاهرة التخاطر»، جهاد المجالي، مؤنة للبحوث والدراسات، المجلد التاسع، العدد الأول، ١٩٩٤م.

٦- «النقد الأدبي في الأندلس»، إحسان عباس، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة ١٢، ج ٤، ١٩٥٩م.

المحتويات

أ	- الإهداء
ب	- شكر وتقدير
ج	- ملخص البحث
١	- المقدمة
٧	- التمهيد

الباب الأول

٤١ المجالس الشعرية دراسة عامة

الفصل الأول

٤٢	مدخل تاريخي
٤٣	- مفهوم المجالس الشعرية
٥٢	- أنواع المجالس الشعرية
٥٩	- ديوان الشعراء
٦٧	- تقاليد عقد المجالس الشعرية والمشاركة فيها
٧٩	- دور المجالس الشعرية في تحفيز قرائح الشعراء وتجويدها

الفصل الثاني

٨٥

حياة الشعراء وعلاقتها بالأمرء

٨٥

١- حياة الشعراء خارج البلاط

٨٥

- الهجرة إلى الأندلس

٨٨

- هجرة الشعراء داخل الأندلس

٩٢

- التوسط للشعراء لدى الأمرء

٩٣

٢- حياة الشعراء داخل البلاط

٩٣

- التحاسد والتنافس بين الشعراء

٩٩

- موقف الشعراء من تحاسد الأمرء وتنافسهم

١٠٢

- مكافآت الشعراء وأنواعها

١٠٧

- سفارات الشعراء

الباب الثاني

١١٤

شعر المجالس

دراسة في المضمون والبناء الفني والملاحظات النقدية

الفصل الأول

١١٥

مقامين شعر المجالس

١١٦

١- تخليد المناسبات الاجتماعية والأحداث السياسية

١١٦

أ- تخليد المناسبات الاجتماعية

- ١١٦ - التهاني بالمولود الجديد
- ١١٧ - التهاني بالإعذار (الختان)
- ١٢٠ - التهاني بالزواج
- ١٢١ - التهاني بالأعياد
- ١٢٣ - الأعياد الدينية
- ١٢٣ - الأعياد غير الدينية
- ١٢٤ - عيد المهرجان
- ١٢٦ - التهاني بالشفاء من المرض
- ١٢٧ - تأييد الموتى

ب- تخليد الأحداث السياسية

- ١٣١ - التهنة بمناسبة تقلد مناصب قيادية
- ١٣١ - التهاني بمناسبة نجاح وفادة في مهمة رسمية
- ١٣٢ - التهاني بالانتصارات العسكرية
- ١٣٧ - التهاني بعودة الحاكم

٢- الطبيعة والخمر في المجالس الشعرية

٣- الأدوات الحضارية ومظاهر العمران في المجالس الشعرية

٤- مجالس الفناء والطرب وأشهرها في إنشاد الشعر

الفصل الثاني

قضايا البناء والنقد

١٨١

١٨٢

١- البناء الفني لشعر المجالس

١٨٢

- فن الرسالة الشعرية

١٩٤

- فن الإجازة

٢٠٢

٢- الملاحظات النقدية

٢٠٢

- صدى النقد الأدبي في المجالس الشعرية

٢٠٥

- الملاحظات النقدية الانطباعية

٢١٣

- الملاحظات النقدية المنهجية

٢١٦-٢١٧

- اللفظ

٢٢٧

- المعنى

٢٣١

- السرقات الشعرية

٢٤٠

- توارد الخواطر «التخاطر»

٢٤٤

- المعارضات

٢٥٢

- البديهة والارتجال (معيّاراً نقدياً)

٢٦١

- الخاتمة

٢٦٦

- المصادر والمراجع

٢٨٠

- المحتويات

ABSTRACT

THE POETIC SESSIONS IN AL-ANDALUS DURING THE ERA OF PETTY-KINGS AND ITS ROLE IN LITERARY AND CRITICAL MOVEMENTS

**PREPARED BY
HASAN HAYDAR
SUPERVISED BY**

DR. FAYIZ AL-QAYSI

The era of petty-kings in Islamic Spain in the 5th A.H./ 11th Century A.D. was renowned for its cultural efflorescence, particularly in the field of poetry.

This work offers a study of poetic sessions and its role in literary and critical movements during that period.

The work comprises an introduction, two parts plus a conclusion. The introduction deals with the political, and literary framework in al-Andalus during the period under discussion.

The first part is divided into two chapters. The first chapter describes the historical development of the poetic sessions of various kinds in al-Andalus in general, and assesses the factors contributing to its cultural efflorescence. The second chapter provides an overall view of the atmosphere at the poetic sessions which encouraged rivalry and jealousy among the poets, as each one devoted himself to the form of flattery through which he hoped to secure the attention of the patron. The situation tended to push the development of poetry.

The second part is divided into two chapters. The first chapter highlights the themes of traditional Arabic poetry in the sessions under discussion, such as praise, love poetry, description of nature description of festivals, celebrations, etc.

The second chapter gives an analysis of the main artistic linguistic features of poetry which recited at that sessions, and offers a study of critical movement at these sessions throughout the eyes of the poets.

The major conclusion is that the poetic sessions in various kinds played an effective role in the nourishment and development of poetry in general. They also encouraged the poets to perfect the art of literary criticism by reciting a poem, and then by demonstrating their technical knowledge by commenting on its structures.